أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي

1668 - 1995



sharif mahmoud

أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي

1995 - 1668

الكتاب:
أمريكا في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي 1668 - 1995
الجزء الأول

إعداد وتقديم: د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

التصنيف: سياسة - أدب الرحلات - شرق وغرب

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب
الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-21-4

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com

أمريكا في مرآة عربية

صورة أمريكا

في أدب الرحلات العربي

1668 - 1995

الجزء الأول

إعداد وتقديم

د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

إهداء

إلى أخي الاستاذ عبد الملك معلمي الاول

كمال

إلى أبي وأمي مع محبتي التي لاتعرف الحدود

منى

الفهرس

المقدمة

صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1995 – 1668

تعود بداية العلاقات الأمريكية العربية إلى الأيام الأخيرة من الثورة الأمريكية، حيث وقع السلطان المغربي محمد بن عبد الله الثالث سلف ملك المغرب الحالي في عام 1778 معاهدة صداقة مع الأمريكيين، والتي جعلت المغرب البلد الأول الذي يعترف بما يعرف اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية. و ما زالت معاهدة الصداقة تلك و التي وقعت من قبل توماس جيفرسون و جون آدامس قائمة حتى الآن، و هي قد تكون أطول معاهدة قائمة في تاريخ الولايات المتحدة.

ولقد كان جورج واشنطن قد كتب رسالة حميمة للملك المغربي يدعوه فيها بـ «الصديق الرائع العظيم»، و أضاف واشنطن في رسالته

إننا لنرخص أرواحنا و جهود شعبنا، و لدينا ما يكفي من الأسباب لنباهي بأنفسنا بكوننا أصدقاء حقيقيين

David Lamb, The Arabs: Journeys Beyond Mirage (New York: Random House, 1987)

بالرغم من العلاقات المتينة بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن تلك الأخيرة كانت تواجه تحديات خطيرة من

قراصنة شمال افريقيا، خاصة من اولئك المتحكمين بساحل الجزائر. وحتى تحمي اسطولها من هجوم هؤلاء القراصنة، اضطرت الولايات المتحدة إلى توقيع معاهدات مع الجزائر وتونس وطرابلس.

في غضون ذلك حلت قوات المارينز الأمريكية وبعض قوات وجنود الدفاع الأمريكي مستخدمين كل طاقات الدفاع لديهم. وفي عام 1805 أنهت الولايات المتحدة معاهدتها مع طرابلس. وكما هو الحال مع معاهدة الصداقة التي وقعت مع المغرب عام 1778 قامت الولايات المتحدة بتوقيع معاهدة صداقة أخرى مع عمان سنة 1833، وفي عام 1840 قام السلطان سيد بن سعيد بإرسال أول مبعوث عربي للولايات المتحدة عبر السفينة العمانية «السلطانة».

وفي أوائل القرن التاسع عشر، كانت جماعات التبشير الأمريكية متمركزة في سوريا وفي مصر بعد ذلك. بعض إنجازاتها المهمة للثقافة العربية كانت اقامة بعض المعاهد التعليمية كالكلية البروتستانتية السورية ومقرها بيروت، وذلك عام 1866 والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت. ولاحقاً في عام 1919، تمت اقامة الجامعة الأمريكية في القاهرة. ومن الإنجازات الأمريكية المهمة الأخرى للثقافة العربية ترجمة عربية للإنجيل انجزت في القرن التاسع عشر للميلاد برعاية الطائفة البروتستانتية في سوريا.

في عام 1904، حلت قوات المارينز الأمريكية في مدينة طنجة في المغرب، بعد أن تم اختطاف مواطن امريكي عن طريق بعض زعماء البربر المحليين. وبعد أن تم تنفيذ شروط الزعيم من قبل سلطان المغرب، تم الإفراج عن الرجل الأمريكي.

وفي الثلاثينات زاد الاإهتمام الأمريكي بالدول العربية في مجال البحوث الأركيولوجية والعلاقات التجارية خاصة المتعلقة بالنفط.

ولكن العلاقات الأمريكية مع العرب نمت بقوة واصبحت معقدة أكثر فأكثر، وذلك بعد الحرب العالمية الثانية وقيام دولة اسرائيل عام 1948 وحرب السويس في 1956، والى وقتنا الحالي.

العديد من المصادر والكتب والمقالات الرئيسية والثانوية التي نشرت تتحدث عن التاريخ الدبلوماسي والسياسي والحربي للعلاقات العربية – الأمريكية. لكن العلاقات الثقافية المتبادلة بين العرب والأمريكان فانها لم تلق اهمية الا من بعض الباحثين من المهاجرين العرب في أمريكا ففي عام 2000 قام كمال عبدالملك بنشر كتابه America in an Arab Mirror: Images of America in Arabic Literature, 1895-1995 (New York: St. Martin's Press, 2000).

إن هذا البحث يتعلق ببليواغرفية المصادر العربية منذ العام 1895 الى العام 2000. و لقد وثقت المصادر هنا حسب سنة النشر وهي لمؤلفين وكتاب عرب، أغلبيتهم من مصر وبلدان عربية أخرى وبعضهم من العرب الأمريكان.وهذه المصادر تزودنا بصورة أمريكا في خيال العرب المعاصرين.

أمريكا في كتابات الرحالة العرب

نُشرت أعداد لا حصر لها من الكتب عن تاريخ العلاقات الدبلوماسية والسياسية والعسكرية العربية الأمريكية، ولكن ومما يؤسف له، وبصرف النظر عن بعض المقالات المبعثرة باللغة العربية، فاننا لا نجد دراسة شاملة عن العلاقات الثقافية القائمة بين العرب وأمريكا. ما وُجد وببعض الوفرة من جانب آخر، هو العدد الكبير من رحلات العرب المصورة عن أمريكا، والتي وصفت بها أمريكا على امتداد ثلاثمئة عام 1668 - 1995، وتعرض مونتاجاً لرأي العرب عن أمريكا من منظور مجموعة متنوعة من الكتاب العرب - رجالاً ونساءً، وأدباء أمثال محمود تيمور، جاذبية صدقي، يوسف إدريس وسياسيين ومفكرين مجددين، مثل زكي نجيب محمود، هشام شرابي، وصحفيين تتفاوت درجة شهرتهم، أمثال مصطفى أمين، محمود عوض، عادل حموده. تكشف روايات السفر هذه الاختلافات في وجهات النظر، الأصل الإقليمي، الخلفيات، وجنس المسافرين ذكور - إناث.

إن صورة أمريكا التي تبرز من خلال هذه السرديات ليست متناغمة ومتناسقة. فالكتّاب يحملون وجهات نظر متنوعة ويمثلون مناطق مختلفة وخلفيات متنوعة لذا فإن صورهم لأمريكا تتعامل بشكل مختلف مع المفاهيم المتنوعة لأمريكا والغرب، وتبدو أمريكا وكأنها الآخر نقيض الذات العربية مرورا بأمريكا المرأة المغرية ووصولا لصورة أمريكا الآخر الذي هو جدير بالثناء وبالتوبيخ معاً. وهذه الأعمال الأدبية تشكل نافذة هامة على العلاقات العربية

الأمريكية نسعد بتقديمها للقراء ونأمل أن نقدم دراسة عنها في المستقبل القريب.

كمال عبد الملك ومنى الكحلة

دبي يناير 2011

قائمة الرحلات العربية الى أمريكا
من عام 1668 الى عام 1995

1668 الياس الموصلي. الذهب والعاصفة:

رحلة الياس الموصلي الى أمريكا: اول رحلة عربية الى العالم الجديد. تحقيق نوري الجراح. أبوظبي: دار السويدي: بيروت: المؤسسة العربية، 2001.

1895 ميخائيل أسعد رستم. الغريب في الغرب:

رحلة ميخائيل أسعد رستم إلى أمريكا، 1894 - 1885، الطبعة الثانية. بيروت، دار الحمراء 1992.

1924فيليب. ك. حتي:

أمريكا في نظر شرقي، أو ثماني سنوات في الولايات المتحدة. القاهرة، دار الهلال 1924.

1. 1926 أمير بقطر: الدنيا في أمريكا. القاهرة:
2. المكتبة العصرية .1926

1930 محمد لبيب البتنوني:

الرحلة إلى أمريكا. القاهرة: مكتب الخانجي، 1930

1946محمود تيمور. أبو الهول يطير. القاهرة: بيروت، المكتبة العصرية.

1951 سيد قطب

أمريكا التي رأيت، الرسالة، المجلد 2، رقم 957 - 5 نوفمبر 1951.

ص 1245 - 1247 - رقم 959 - 19 نوفمبر 1951. ص 1301 - 1306، رقم 961 – 3 ديسمبر 1951، ص 1357 - 1360.

1954 زكي خالد. أمريكا تحت الميكروسكوب. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1954.

1962 شفيق جبري، أرض السحر. دمشق: الفن الحديث الإعلامي، 1962.

1962 جاذبية صدقي. أمريكا وأنا. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

1972 محمود عوض. سياحة غرامية. القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، 1972.

1979 أحمد مصطفى. مهاجر إلى أمريكا، القاهرة: دار المعارف، 1979

1980 يوسف إدريس. نيويورك 80. القاهرة: مكتبة مصر، 1980؟.

1982 عدنان حسني تللو. حول العالم على دراجة نارية. دمشق: مطبعة الاتحاد، 1982.

1982 عادل حمودة. أمريكا الجنة والنار. القاهرة: روز اليوسف، 1982.

1983 كريمة كمال. بنت مصرية في أمريكا. القاهرة: مكتبة غريب، 1983.

1986 يوسف الحسن. من أوراق واشنطن. القاهرة: دار المستقبل العربي، 1986.

1987 رضوى عاشور. الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1987.

1987 أحمد هريدي. أمريكا: سري جداً. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1987.

1988 هشام شرابي. الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي. الطبعة الثانية، بيروت: دار الطليعة، 1988.

1989 محمد حسن الالفي. أمريكا: الجينز والسكين. القاهرة: محمود الجداوي، 1989.

1989 مصطفى أمين. أمريكا الضاحكة زمان: مذكرات طالب مفلس في الولايات المتحدة. القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، 1989.

1990 محمود السعدني. أمريكا ياويكا. القاهرة: دار الهلال، 1990.

1991 محمد عماره. أمريكا للبيع. القاهرة: مطابع الأهرام، 1991.

ليلى أبو زيد. أمريكا: الوجه الآخر. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1991.

1995 هالة سرحان.» أمريكا خبط لزق«. القاهرة: دار الشروق، 1995.

2000 كمال عبد الملك، محقق. أمريكا في مرآة عربية: صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي: مقتطفات أدبية مختارة، 1895 – 1995. نيويورك: مطبعة سانت مارتن، 2000.

- كمال عبد الملك، «السبيل في أمريكا» قصة قصيرة في الكتاب السابق ص 147 - 150.

أول رحلة عربية
إلى العالم الجديد

الذهب والعاصفة :
رحلة الياس الموصلي الى أمريكا
1683 - 1668

الياس الموصلي. الذهب والعاصفة: رحلة الياس الموصلي إلى أمريكا: أول رحلة عربية إلى العالم الجديد. تحقيق نوري الجراح. أبوظبي: دار السويدي: بيروت: المؤسسة العربية، 2001.

يعتبر القس الكلداني الياس الموصلي صاحب هذا الكتاب الفريد، أول رحالة عربي إلى العالم الجديد. فتاريخ رحلته الى الامريكيتين كان في عام 1668 أي قبل ظهور الولايات المتحدة الامريكية بحوالي قرن من الزمان. يصف في الكتاب مشاهداته للحياة في المستعمرات الاسبانية وللظلم الواقع على سكان البلاد الاصليين- مايطلق عليهم «الهنود الحمر» من قبل المستوطنين الاسبان والكنيسة ومحاكم التفتيش. كان الغرض من الرحلة هو جمع التبرعات من مستعمرات العالم الجديد لترميم الكنائس في العراق. تم العثور على مخطوطة الكتاب في سوريا عام 1905 على يد الاب أنطوان رباط الذي نشره في أجزاء في مجلة المشرق والتي كان يدير تحريرها انذاك.

...«وأيضاً في هذا الجبلِ رأيتُ أغصاناً ساوية معدلة من غَير

ورق، وفي كُلِّ غُصنٍ ثلاث جوزات مثل القطن، فإذا انفتحَ جانبُ الجوزةِ رأيتُ داخلها حمامةً بيضاء بجناحها ورجليها، ومنقارُها أحمرُ وعيونُها سودٌ فهذه يُسَمُّونها زهرة الرُّوحِ القُدُسِ. وكثيرٌ من حُكَّامِ السبنيولِية أرادوا أن يُحضروا منها ويزرعوها في إسبانية فما قدروا..».

من «الذَّهب والعاصفة»

... «وهناك حَكوا لي عن هنديٍّ له معدنٌ قويٌّ وما اكتشفَ عليه السبنيولية، فكانَ يروحُ هو وابنُه إلى المَعْدنِ سرّاً في اللَّيل، يقْطَعانِ حجارةَ الفضَّة، ويأتيان بها إلى داره، يصفِّيانها بالنّار، فلما حكوا لي أنَّه أعطى حسنةَ قداس أربعين ألف غرش أرسلت وراءه ودعوته عندي وقلت له: أخبرني لأي سببٍ لم تكشف هذا المعدن للملكِ، حتَّى ينعمُ عليكَ وعلى أولاد أولادكَ من فرايضِ ومراتبِ الحُكَم في هذه البلدة؟ فأجابني قائلاً: رأيتُ هنوداً أقْدَمَ منِّي كشفوا حالهم للسبنيوليَّة وماتوا، أخيراً، تحت العذاباتِ. هذا هو السبَّبُ. فأنا صدَّقْتُ كلامَهُ من جهةِ الظلمِ الَّذي نظرتُهُمْ يعملونه على الهنود! ».

من «الذَّهب والعاصفة»

مفاجأة!

وبعد أن بقيت هناك (في البرتغال) سبعة أشهر رجعت إلى بلد مدريد المذكورة، وسكنت في دار أمير يسمى الدوكة ده أوبرو. وصار لي من هذا الرجل ومن بقية الأصحاب إكرام زائد وإحدى السيدات تسمى ميركزا ده لوزوبلس التي ربت الملك عملت لي إكراماً عظيماً

وطلبت من الملك دستوراً أن أقدّس له فكان معي شمّاس رومي وكنت علمته يخدم قداسي. فدخلت كنيسة الملك وقدست أمامه وأمام والدته ثم بعد ذلك أمرت الملكة مربية الملك أن تسألني أي شيء أطلب حتى تهبني. فأخذت منها مهلة ورحت شاورت بعض الأصحاب فأشاروا عليّ أن أطلب إجازة وأمراً قاطعاً حتى أتوجه إلى بلاد هند الغرب فصعب عليّ هذا الأمر لكن جعلت الحملة على الله واتكلت عليه وطلبت الأمر. لأنه لا يقدر غريب أن يجوز إلى بلاد الهند إن لم يكن معه أمر من الملك. وكان في ذلك الزمان التونسيو الذي هو رسول البابا في مدريد يسمى الكردينال ماريسكوتي. وهذا المبارك ساعدني بنصائح.

بدء الرحلة:

ولما كان اليوم الثاني عشر من شهر شباط سنة ألف وستماية وخمس وسبعين من المسيح قدمت أمري مع المكاتيب إلى جنيرال الغلايين دون نيقلاس ده كوردووا. فحبني واستقبلني بكرامة عظيمة وأعطاني كأمره، أي أوضة في مركبه، فأدخلت حوائجي في الأوضة وقفلت الباب. وهذا الغليون هو الرئيس على سائر الغلايين. ما وجدت أحداً من ملّتي ومن أولاد بلادي. فصار عندي ندم عظيم بسبب أني كنت سرَّحت أبن أخي الشماس يونان إلى بلاد الشرق. ولكن ما عادت الندامة تفيد فنصحني البعض من الأصحاب قائلين لي إن هذا الرومي عند وصولك إلى بلاد الهند سوف يتمرَّد عليك ويخرج من عندك. فعند وصولي جرى لي كقولهم.

ثم إننا في ذلك اليوم المذكور قلعنا ونصبنا الإقلاع وسرحنا.

كان عدد الغلايين ستة عشر غليوناً. فتودعوا من الأسكلة بضرب المدافع ودقِّ الأبواق، ونصبوا الأعلام والرايات.

في مركب الملك

سافرنا وكان المسافرين قوم منهم في فرح وأناس في حزن على فرقة أهاليهم. وهذه رفقة المراكب تسافر كل ثلاث سنين مرة واحدة إلى بلاد النهد التي تسمى البيروه والتي تبعد ألف وخمسمائة فرسخ داخل بلاد ينكي دنيا (المكسيك) لكي يحضروا من هناك خزنة الملك. وأيضاً التجار يوسقون الغلايين من كل أجناس البضايع ويبيعونها في تلك البلاد، ولا يدعون إنساناً غريباً عن الجنس السبنيولي يرافقهم لا تاجراً ولا كاهناً إن لم يكن معه أمر من الملك، مثل ما ذكرنا سابقاً. وهذه هي إلى اليوم قوانين ونواميس موضوعة من أيام كارلس الخامس من ملوك إسبانية وبلاد المجر، حيث على عهده فتحوا بلاد الهند. وهذه الغلايين تعود بالغنايم الفضة والذهب بقيمة عشرين أو خمسة وعشرين مليوناً وكل مليون قدره عشر كرات. وبعد خروجنا من قادس بثلاثة أيام حدث اضطراب عظيم في البحر ودام ذلك علينا ثلاث ساعات، فكان برفقتنا رجل شريف يسمى دون نيقلاوس أنيفانته وكيل الملك، فمن كثرة الخوف الذي دخل عليه مات في تلك الليلة. فربطوا برجليه جراراً مملوءة ماء وحدفوه بالبحر لكي يغطس إلى أسفل ولا يعوم على وجه الماء وتأكله الحيتان. فلما حدفوه ضربوا له ثلاثة مدافع وهذا المذكور كان ذاهباً مقدم ديوان كيتو (Quito).

ومن بعد ثلاثة أيام أشرفنا على جزيرة أسمها كناریاس (C -

naries) من حكم إسبانية ولازلنا مسافرين والأرياح تلعب بنا، ونحن في نصف الدرب فصادفنا مركباً إنكليزياً موثوقاً من العبيد السود عددهم سبعمائة نفس، قد جاءوا بهم من بلاد برازيل (Bresil) من حكم البورتكال حتى يبيعوهم في بعض جزائر الهند.

عند شواطئ كاراكاس

وفي اليوم الرابع كشفنا على أراضي الهند ووصلنا إلى مكان، أي ناحية في البحر. فتأمل النواخذة في الماء، فلما نظروا لونها متغيراً علموا أنها ماء النهر وعرفوا في أي مكان وصلوا، لأنه ينحدر من تلك الأرض نهر كبير واسع مقداره أربعين فرسخاً، ولا نحداره وعزم قوته الشديدة يشق البحر ولا يوجد مثله نهر في الدنيا. ثم من هناك كشفنا على أرض تسمى كراكس (Caracas) ومن هناك جزنا في جزيرة تسمى مركاريتا (Marguerite) من حكم إسبانية. وذكروا لنا عن الجزيرة وكانوا يخرجون صفد (صدف) اللؤلؤ البليغ في الكبر والشريف باللّون. فذات يوم بينما كانوا يستخرجونه نذروا على أنفسهم أن أول شيء يخرجونه في ذلك النهار من اللؤلؤ فوجدوه أحسن وأبلغ من الأول. فطمعوا كذلك، وقالوا نهار غد نفي نذرنا إلى العذراء. ثم في اليوم الرابع انحدر الغطاسون كعادتهم ليخرجوا اللؤلؤ فما وجدوا شيئاً أبداً وإلى يومنا هذا ما بقوا يجدون لؤلؤاً في ذلك البحر.

جزيرة السلاحف

فترجع إلى قولنا، فمن هناك سافرنا ووصلنا إلى ميناء يسمى كومانا (CUMANA) من حكم إسبانية. فمن هذا الميناء يقدرون أن يمشوا في البر إلى كل بلاد البيروه. لكن المانع هو خوفهم من الجنود الجلالية ومن الجبال العالية والأنهر والأحراش والوحوش الضاربة، فلأجل ذلك يسافرون في البحر. فرسونا في ذلك الميناء واكتفينا من الفواكة والهدايا التي أهداها لنا حاكم البلد. ومن بعد يومين سافرنا من الأسكلة وجزنا على جزيرة تسمى كوراصون (CURCAO) وهي من حكم الأولنديز (الهولنديين) ثم إن حاكم هذه الجزيرة أيضاً أرسل لنا شختوراً (زورقاً) ملآن فواكه وبوزه (جعة) لأجل المشروب، وضرب لنا من القلعة سبعة مدافع ونحن أيضاً رددنا عليهم السلام بسبعة مدافع. ومن هناك سِرنا وجزنا على جزيرة تسمى ترتوكا (TORINGA) وهذه الجزيرة غير مسكونة لأن فيها زلاحف كبيرة أزيد من ذراعين طولاً وعرضاً. والمراكب تروح وتتصيد من هذه الزلاحف وتملحها لأجل زوادة. وفي هذه الجزيرة وجدنا مركباً صغيراً فرنساوياً، وكان في ذلك الزمان حرب بين إسبانيا وفرنسة، ونحن كنا سبعة عشر غليوناً. ولما رأى الفرنساوية أننا أحطنا بهم هربوا للبر في الجزيرة وتركوا المركب فارغاً، فأخذتْ مركبنا المركبَ فرأيناه موسوقاً زلاحف مملحة. وأما الناس الذين هربوا وخلّوا المركب، كان لهم مركب آخر في جانب آخر من الجزيرة نحو تسعة أميال، فراحوا واجتمعوا بذلك المركب. فمن بعد شهرين حصّنوا لهم مركباً بعدة من الرجال والآلات الحربية لينتقموا من أعدائهم.

صورة لأمريكا
من القرن التاسع عشر

كتاب الغريب في الغرب:
رحلة ميخائيل اسعد رستم في أمريكا
(1895)

ميخائيل أسعد رستم. الغريب في الغرب: رحلة ميخائيل أسعد رستم إلى أمريكا، 1885 - 1894، الطبعة الثانية. بيروت، دار الحمراء 1992.

وُلد ميخائيل أسعد رستم في لبنان في منتصف القرن التاسع عشر، وهاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1880 حيث استقر في فيلادلفيا. نشر كتابه الغريب في الغرب في نيويورك عام 1895.

أغاني الأميركان مع ترجمتها:

ذاير اذ افلاور وذان ماي هارت

دايزي دايزي

بلانتد باي ون اوف يور ستارتلن دارتس

بلانتد باي دايزي بل

اند هواذر شي لفز مي اور نط اي كانت تل

دايزي دايزي بل

دايزي دايزي كف مي يور انسر دو

آي ام هاف كرايزي أول فور ذي لف اوف يو

إت ونت بي استايليج مارج وي كانت افور اكارج

بات بو لوك سويت ابوت ذي سيت

اوف اي بايسكيل بلت فور تو.

There is a flower within my heart

Daisy، Daisy

Planted by one of your startling darts

Planted by Daisy Belle

And whether she loves me or not، I can't tell

Daisy، Daisy Belle

Daisy، Daisy، give me your answer though I am half crazy

all for the love of you

it won't be a styling marriage

We can't afford a carriage

But we look sweet about the seat

Of a bicycle built for two.

الترجمة

يا دايزي يا دايزي يوجد زهرة الحب في قلبي وقد أوجدتها لمحة من لمحاتك وإن كانت تحبني أو لا، لا أعرف بعض الأوقات.

دايزي دايزي جاوبيني، أنا نصف مجنون لأجلك، وأخاف أن العرس لا يكون لايق لأني لا أقدر استأجر كروسة، ولكن يمكنك تركبي ورائي على دراج مزدوج.

«الثانية»

تو لتل كارلس بلو درس تو لتل كارلس بلو

وي ور برذرس ستد اند لارن تو لف تو

ون لتل كارل ان بلو درس ون يور فاذرس هارت

بيكيم يور ماذر اي مارد ذي اذر

Two little girls blue dress

Two little girls blue

We were brothers. were sisters

and learn to love too

became your mother. I married the other

One little girl in blue dress

Won your father's heart

Became your mother. I married the other

and we have worked about

الترجمة

ابنتان صغيرتان في لباس أزرق، ابنتان صغيرتان في لباس أزرق، نحن كنا أخوين وهما كانا أختين وتعلمنا أن نحب بعضنا بعضاً، ابنة واحدة في لباس أزرق أسرت قلب والدك هي صارت والدتك وأنا

تزوجت الاخرى ونحن الان متفرقين عن بعضنا.

إن هذه النغمة تنسب لشخص حصل منها 15 ألف ريال وقيل إن الذي نظم هذه النغمة الأتية حصل على خمسين ألف ريال وهي:

سويت مري كم تو مي　　　كم تو مي سويت مري

نط بيكوز يور فايس　　　از فار لف تو سي

Sweet Mary come to me
come to me sweet Mary
Not because your face is for love to see
I have Cari in Baltimeore street
Car runs from her front door
She lives in the third floor
bum tarara bountry boo tarara bountry

الترجمة

يا ماري الحلوة تعالي إلي　تعالي إلي يا ماري الحلوة

ليس لكون وجهك محبوب للنظر

وتوجد نغمة اشبهت بانغام بلادنا وهي

اي هاف كارل ان بلتيمور ستريت كار رنز فرم هار فرنت دور

شي لفز ان ذي ثرد فلور بوم تارارا تونتري بو ترارا بونتري

وهذه النغمة توافق نغمة: يام الفصطان البيهلّ ودّعناك بدنا نفلّ. أما موال الافرنجي فتنسب إلى بلاد الافرنج وليس لاميركا.

فصلٌ في العوائد المستهجنة في هذه البلاد ومنها حرية الجنس اللطيف المطلقة

التي أودت ببعضهن إلى تجاوز حدود الاعتدال إذ برزن في الأزقة مترنحات كسكارى الرجال، الأمر الذي يندهش من مرآهُ السوري لأنُه ليس من مألوفات بلادنا والحمد لله.

حرية النساء فيها مطلقة وكم ترى فيهن من مطلقة
يعطين بالأسوة مع زيادة حقاً من الميراث والشهادة
فالمال والرجال مثل آلة في قبضتيهن بلا عدالة
كم غادةٍ هيفاء في الشوارع من صف ربات الجمال البارع

ترنو بقد الغنج والدلال وما عليها هيئة الكمال
وقد غدت أسيرة الترنح بخمرة من رأسها لم تبرح
عند فراق وتلاقٍ قد وجب تقبيلهنَّ عندهم باللعجب
يمشون أزواجاً بالانقياد لهنَّ مع شنكلة الأيادي
وكل هذا ليس بالأوهام لكن بمشهد من الآنام
وبعضهم ألقى سؤاله على بعض نسا الشرق فولى خجلاً
وحيث يندهش من ذاك الطلب أجابته بلغة القوم «شط اب» بادرتهُ
بالحذاء ضربا فلم يذق أمر منها حربا
منزلة الإناث بالإجمال تفوق ههنا على الرجال
لم يتبعن خطة التساوي بهم وهذه علة المساوي
فهل يصح في نظام العقل والدين والآداب غير العدل
والحكم في صواب ما يعول عليه مذ سنَّ النظام الأول،

فجدنا آدم أولاً خلق　　وبعدهُ حواءِ من ضلع مزق
ورأس كل إمراة هو الرجل　　وعندهم بعكس هذا الأمر قل
فخالفوا ما جاء في الكتاب　　عنهنَّ في محجة الصواب
وغادروا شريعة الزواج　　فلتخضع الزوجات للأزواج
إذ قد دعت سارة إبرهيما　　سيدها لشخصهِ تكريما
وقد أطاع الرجل النساءُ　　في الشرق وأحترمهُ الأبناءُ
وليس حانة وسكرى فيها　　بالكاد زق جعة يكفيها
تشبثاً بالفضل والعفاف　　وما أتى بشأنهنَّ كافي

على أني لا أنكر أن أكثر نساء هذه البلاد يختلفن عن من تقدم ذكرهن، إذ يوجد فيها كثير من السيدات الفاضلات ربات التقى والآداب عليهن مدار الجمعيات الخيرية ومن دأبهن إعالة البائسين وإغاثة الملهوفين، وقد تنزهن عما يشين، وكان لهن أعظم نصيب في رفع شأن الأمة وفيهن يصح قول القائل:

إذا كان النساء كمن ذكرنا　　لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب　　ولا التذكير فخرٌ للهلال

«المتنبي»

فصلٌ في عادة مضغ التبغ في الرجال وحلق شواربهم:

من أقبح العادات والخصال عادة مضغ التبغ في الرجال، يزيد منها فائض البصاق على بلاط الدور والأسواق، فقط ما دلت على اللطافة وليس يرجى بعدها نظافة، فصارت الأسواق كالمزالق يخشى بها وقوع كل طارق، وحق معها في شروط الدين ملءُ الثناء لعادة التدخين، إن كان أهل الشرق يشربونهُ نفخاً فأهل الغرب يأكلونهُ، فليس من قوت بهِ فيرغب وليس فيهِ قوة تستنسب، ودائماً تري بوقت العمل كل فتى يجتر مثل الجمل، فالكاتب التحرير و«الكند كتر» يمضغه حتى الطبيب «الدكتر»، وعادة أخرى بحلق الشارب من أقبح الأزياء والمشارب، أشنعها كراهة في الرؤية من جزَّ شارباً وأبقى اللحية، ومن قضى الأمرين منهم يغلط فوجهه كأخطبوط أحلط، لا فرق في الشيوخ والشبان لكل يوم أمرهم في شان، بالشعر زين الوجه بالاجمال لهيئة دلت على الكمال، وكل ما عن حد وضعهِ خرج يعد عاراً في بلادٍ ما درج، حدثت واحداً بهذا الشأن ولمتهُ كمذنب أو جاني، وقلت لو تقيم في لبنان لحل أن تذبح مثل الضان، أن تكون هزأةً للناظر إذ لم ترق رؤياك للنواظر، أجاب ضاحكاً بهذا الصدد أحسن أن أبقى هنا للأبد، والشكر للمولى بأني ههنا أعيش في أرغد عيش وهنا.

فصلٌ في خاتمة الأرجوزة وبعض نصائح لأبناء الوطن

تقدم الكلام باختصار في كل موضوع يهم القاري، وما بقي من ذاك إلاّ ما ندر ولم يرد بشأنهِ بعض الخبر، وربما معترض يقول عن حالة السوري ما تقول؟، هل كل بائع من الصواب يجول دائماً على الأبواب، أجبت أن ذاك لا يشين بهِ وغير الله لا يدين، والرزق مطلوب لخير طالب بالعدل لا لسارق أو ناهب، لكن أتى نظيرة ألوف وراجع بغيره مخلوف وبعضهم من رغبوا الإقامة دوماً هنا فاستوجبوا الملامة، خير لمن بيده استطاعة يجد في تعلم الصناعة، أولا من الصواب والسداد رجوعنا العاجل للبلاد، كفي بها من غربة طالت بنا وقد صرفناها بكد وعنا، والحمد لله حبانا الزمنُ والمال لا تشبع منهُ الأعينُ، فكل شيء زاد بالمعنى نقص وكثرة المأكول تجلب الغصص، وههنا المعاش لا يطيبُ وقلما استحسنهُ الغريبُ، هيوا بنا يا قوم للإياب إلى ربوع الأهل والأصحاب، تجمعنا بلادنا العدية بوحدة العلائق الودية، نسكن في بحبوحة الأمان تحت لواء متبوعنا العثماني، منظمومة بحالة اغترابي تمت بها أرجوزة الكتاب، جعلتها تذكرة للقاري ضمنتها حقائق اختباري.

أمريكا :
الآخر الذي لا يتغير
الغانية دائمة الشباب

سيد قطب
أمريكا التي رأيت (1951)

سيد قطب أمريكا التي رأيت، الرسالة، المجلد 2، رقم 957 - 5 نوفمبر 1951. ص 1245 - 1247

- رقم 959 - 19 نوفمبر 1951.
ص 1301 - 1306،
رقم 961 - 3 ديسمبر 1951، ص 1357 - 1360.

كان سيد قطب من أبرز الناشطين الإسلاميين وأشهر عضو في جماعة الإخوان المسلمين لغاية إعدامه من قبل نظام الرئيس جمال عبدالناصر عام 1966، وقد قارنه أحد المؤرخين بموقفه العام كمفكر ناشط إسلامي بآية الله خميني، وهو مؤلف للعديد من الأعمال حول الأيديولوجية الإسلامية بما في ذلك كتابه الراد يكالي علامات في الطريق (1964) والذي تم شنقه بسببه، وفي عام 1948 أرسلته وزارة المعارف المصرية للولايات المتحدة لدراسة طرق التدريس الأمريكية، ودرس في معهد إعداد المدرسين في ويسلون حالياً جامعة مقاطعة كولومبيا ومعهد إعداد المدرسين في جامعة شمال كولورادو

حيث تخرج وحصل على ماجستير في التربية، كما درس في جامعة ستانفورد، ولدى عودته لمصر عام 1950 نشر سرداً عن إقامته في الولايات المتحدة في المجلة المصرية الرسالة تحت عنوان «أمريكا التي رأيت»، وقد تم تضمين نفس المحتوى فيما بعد في كتاب حرره عبدالفتاح الخالدي تحت عنوان أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب واحتوت صفحة الغلاف على رسم للعلم الأمريكي مطويا جزئياً مع راية ملطخة بالدماء ومخططة باللون الأسود أسفل منها، فأمريكا في نظره قد تبدو شيئاً لكنها من الداخل مختلفة تماماً.

هذه المقالات المعنونة سيد قطب، «أمريكا التي رأيت» مأخوذة من كتاب أمريكا من الداخل بمنظار سيّد قطب، تحقيق الدكتور صلاح عَبد الفتاح الخالدي (المنصورة: دار الوفاء، جدّة: دار المنارة).

أمريكا التي رأيت: في ميزان القيم الإنسانية
سيد قطب (1951)

الحلقة الأولى

مجلة الرسالة: السنة التاسعة عشرة - المجلد الثاني - عدد 957 - تاريخ 5 نوفمبر 1951 صفحات: 1245 - 1247.

أمريكا موقع ومزايا:

أمريكا.. الدنيا الجديدة.. ذلك العالم المترامي الأطراف، الذي يشغل من أذهان الناس وتصوراتهم، أكثر مما تشغل من الأرض رقعتها الفسيحة، وترفّ عليه أخيلتهم وأحلامهم بالأوهام والأعاجيب، وتهوى إليك الأفئدة من كل فج، شتى الأجناس والألوان، شتى المسالك والغايات، وشتى المذاهب والأهواء.

أمريكا.. تلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطي والباسيفيكي تلك الموارد التي لا تنضب من المواد والخامات، ومن القوى والرجال. تلك المصانع الضخمة التي لم تعرف لها الحضارة نظيراً، ذلك النتاج الهائل الذي يعيا به العدّ والإحصاء تلك المعاهد

والمعامل والمتاحف المبثوثة في كل مكان عبقرية الإدارة والتنظيم التي تثير العجب والإعجاب ذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة. ذلك الجمال الساحر في الطبيعة والوجوه والأجسام. تلك اللذائذ الحرّة المطلقة من كل قيد أو عرف. تلك الأحلام المجسمة في حيّز من الزمان والمكان...

رصيد أمريكا من التقييم:

أمريكا هذه كلها... ما الذي تساويه في ميزان القيم الإنسانية؟ وما الذي أضافته إلى رصيد البشرية من هذه القيم؟ أو يبدو أنها ستضيفه في نهاية المطاف؟..

أخشى ألاّ يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية في أمريكا، وعظمة «الإنسان» الذي ينشئ هذه الحضارة، وأخشى أن تمضي عجلة الحياة، ويُطوى سجل الزمن وأمريكا لم تضف شيئاً - أو لم تضف إلا اليسير الزهيد - إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم التي تميز بين الإنسان والشيء، ثم بين الإنسان والحيوان..

مقياس التقويم الحضاري:

إن كل حضارة من الحضارات التي مرّت بها البشرية، لم تكن كل قيمتها فيما ابتدعه الإنسان من الآت، ولا فيما سخره من قوى، ولا فيما أخرجت يداه من نتاج. إنما كان معظم قيمتها فيما اهتدى إليه

الإنسان من حقائق عن الكون، ومن صور وقيم للحياة، وما تركه هذا الاهتداء في شعوره من ارتقاء، وفي ضميره من تهذيب، وفي تصوره لقيم الحياة من عمق، والحياة الإنسانية بوجه خاص، مما يزيد المسافة بعداً في حسابه وحساب الواقع، بينه وبين مدارج الحيوانية الأولى في الشعور والسلوك، وفي تقويم الحياة وتقويم الأشياء.

فأما ابتداع الآلات أو تسخير القوى، أو صنع الأشياء، فليس له في ذاته وزن في ميزان القيم الإنسانية، إنما هو مجرد رمز لقيمة أساسية أخرى: هي مدى ارتقاء العنصر الإنساني في الإنسان ومدى الخطوات التي يبعد بها عن عالم الأشياء، وعالم الحيوان. أي مدى ما أضاف إلى رصيده الإنساني من ثراء في فكرته عن الحياة، وفي شعوره بهذه الحياة.

هذه القيمة الأساسية هي موضع المفاضلة والموازنة بين حضارة وحضارة، وبين فلسفة وفلسفة، كما أنها هي الرصيد الباقي وراء كل حضارة، المؤثر في الحضارات التالية حين تتحطم الآلات وتفنى الأشياء، وحين تنسخها آلات أجدّ وأشياء أجود، مما يقع بين لحظة وأخرى، في مشارق الأرض ومغاربها...

ميدان الإبداع الأمريكي:

وإنه ليبدو أن العبقرية الأميركية كلها قد تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئاً في حقل القيم الإنسانية الأخرى، ولقد بلغت في ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة،

وجاءت فيه بالمعجزات التي أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى فوق التصوّر ووراء التصديق لمن لم يشهدها عياناً. ولكن «الإنسان» لم يحفظ توازنه أمام الآلة، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آلة، ولم يستطع أن يحمل عبء العمل المنهك ثم يمضي قدماً في طريق الإنسانية، عندئذ أطلق للحيوان الكامن العنان، ضعفاً عن أن يحمل عبء العمل، وعبء «الإنسان»!.

أمريكا: قمة التقدم وسفح البدائية:

إن الباحث في حياة الشعب الأمريكي ليقف في أول الأمر حائراً أمام ظاهرة عجيبة، قد لا يراها في شعب من شعوب الأرض جميعاً: شعب يبلغ في عالم العلم والعمل، قمة النمو والارتقاء بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي، لم يفارق مدارج البشرية الأولى، بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك!

ولكن هذه الحيرة تزول بعد النظرة الفاحصة في ماضي هذا الشعب وحاضره، وفي الأسباب التي جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية.

التكوين المتوازن للإنسان:

في العالم القديم آمن الإنسان بقوة الطبيعة المجهولة، صاغ حولها الخرافات والأساطير، وآمن بالدين، وغمرت روحه أضواؤه

ورؤاه، وآمن بالفن وتجسمت أشواقه ألواناً وألحاناً وأوزاناً.. ثم آمن بالعلم أخيراً، بعدما انقسمت نفسه لأنماط من الإيمان، وألوان من المشاعر، وأشكال من صور الحياة، وتهاويل الخيال، بعدما تهذبت روحه بالدين، وتهذب حسّه بالفن، وتهذب سلوكه بالاجتماع. وبعدما صيغت مُثُله ومبادئه من واقعية التاريخ، من أشواقه الطليقة وسواء تحققت هذه المبادئ والمُثُل أم لم تتحقق في الحياة اليومية، فقد لقيت على الأقل هواتف في الضمير، وحقائق في الشعور، مرجّوة التحقق في يوم من الأيام، قَرُب أم بعد، لأن وجودها حتى في عالم المثال وحده، خطوة واسعة من خطوات البشرية في مدارج الإنسانية، وشعاع مضيء من الرجاء في تحققها يوما من الأيام.

الولادة الشوهاء للإنسان الأمريكي:

أما في أمريكا فقد ولد الإنسان مع مولد العلم، فآمن به وحده، بل آمن بنوع منه خاص، هو العلم التطبيقي، لأنه وهو يواجه الحياة الجديدة في القارة الجديدة، وهويتسلم الطبيعة هنالك بكراً جامحة عنيدة، وهو يهمّ أن ينشئ ذلك الوطن الجديد الذي أنشأه بيده، ولم يكن له من قبل وجود، وهو يصارع ويناضل لبناء هذا الوطن الضخم.. كان العلم التطبيقي هو خير عون له في ذلك الجهاد العنيف، لأنه يسعفه بالأداة العملية الفعّالة في مجال البناء والخلق والتنظيم والإنتاج...

في أمريكا أرض بكر:

ولم يفرغ الأمريكي بعد من مرحلة البناء، فما زال هنالك

مساحات شاسعة لا تكاد تحدّ من الأراضي البكر، التي لم تمسها يد، ومن الغابات البكر التي لم تطأها قدم، ومن المناجم التي لم تفتح ولم تستغل، وما يزال ماضياً في عملية البناء الأولى، على الرغم من وصوله إلى القمة في التنظيم والإنتاج.

الحالة النفسية للأمريكيين الأوائل:

ويحسن أن لا ننسى الحالة النفسية التي وفد بها الأمريكي إلى هذه الأرض فوجاً بعد فوج، وجيلاً بعد جيل، فهي مزيج من السخط على الحياة في العالم القديم، والرغبة في التحرّر من قيوده وتقاليده، ومن هذه القيود والتقاليد الثقيل الفاسد والضروري السليم، ومن الرغبة الملحّة في الثراء بأي جهد وبأية وسيلة، والحصول على أكبر قسط من المتاع تعويضاً عمّا يبذله من الجهد في الثراء..

أصل الأمريكيين:

ويحسن أن لا ننسى كذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية الأفواج الأولى التي تألّفت منها نواة هذا الشعب الجديد، فهذه الأفواج هي مجموعات من المغامرين، ومجموعات من المجرمين، فالمغامرون جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات، والمجرمون جيء بهم من بلاد الامبراطورية الإنجليزية لتشغلهم في البناء والإنتاج.

العلم المادي والقيم الإنسانية:

ذلك المزيج من الملابسات، وهذا المزيج من الأفواج، من شأنه أن يستنهض وينمّي الصفات البدائية في ذلك الشعب الجديد، وينيِّم أو يقاوم الصفات الراقية في نفسه أفراد وجماعات، فتنشط الدوافع الحيوية الأولية كأنما يستعيد الإنسان خطواته الأولى، بفارق واحد أنه هنا مسلح بالعلم الذي ولد على مولده، وخطا على خطواته. والعلم في ذاته - وبخاصة العلم التطبيقي - لا عمل له في حقل القيم الإنسانية، وفي عالم النفس والشعور وبذلك ضاقت آفاقه، وضمرت نفسه، وتحددت مشاعره، وضؤل مكانه على المائدة العالمية الزاخرة بالأنماط والألوان.

صراع الأمريكي الأول مع الطبيعة:

وقد يدهش الإنسان وهو يقرأ قصص الجماعات الأولى التي هاجرت إلى أمريكا في أيامها الأولى، ويتصور كفاحها الطويل العجيب، مع الطبيعة الجامحة في تلك الأصقاع المترامية، من قبل مع أنواء المحيط الرعيبة وأمواجه الجبارة، في تلك القوارب الصغار الخفاف، حتى إذا رست على الصخور محطمة أو ناجية، لقيت النازحين مجاهل الغابات ومتاهات الجبال وحقول الجليد، وزعازع الأعاصير، ووحوش الغابات وأفاعيها وهوامها..لقد يدهش الإنسان كيف لم يترك هذا كله ظلاله على الروح الأمريكية، إيماناً بعظمة الطبيعة وما وراء الطبيعة، ليفتح لها منافذ أوسع من المادة وعالم المادة.

سرّ التشوّه في الشخصية الأمريكية:

ولكن هذه الدهشة تزول حين يتذكر ذلك المزيج من الملابسات، وذلك المزيج من الأفواج. لقد قابلوا الطبيعة بسلاح العلم، وقوة العضل، فلم تُثِرْ فيها إلا قوة الذهن الجاف، وقوة الحسّ العارم، ولم تفتح لهم نوافذ الروح والقلب والشعور، كما فتحها في روح البشرية الأولى، التي احتفظت بالكثير منها في عصر العلم، وأضافت به إلى رصيدها من القيم الإنسانية الباقية على الزمان.

وحتى تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين، والإيمان بالفن، والإيمان بالقيم الروحية جميعاً، لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل، وإلا في لذة الحس والمتاع. وهذا هو الذي انتهت إليه أمريكا به أربعمائة عام...

أمريكا التي رأيت:
في ميزان القيم الإنسانية

الحلقة الثانية

مجلة الرسالة: السنة التاسعة عشر - المجلد الثاني - عدد 959 - تاريخ 9 نوفمبر 1951 - صفحات: 1301-1306.

البداية الأمريكية:

يبدو الأمريكي - على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن - بدائيا في نظره إلى الحياة، ومقوّماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة ولعلّ لهذا التناقض الواضح أثره في ظهور الأمريكان بمظهر الشعب الغريب الأطوار في نظر الأجانب، الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد، ويعجزهم التوفيق بين هذه الحضارة الصناعية الفائقة وذلك النظام الدقيق في إدارة الأعمال، وإدارة الحياة... وبين هذه البدائية في الشعور والسلوك، تلك البدائية التي تذكّر بعهود الغابات والكهوف!.

البدائية في الألعاب الرياضية:

يبدو الأمريكي بدائياً في الإعجاب بالقوة العضلية والقوة المادية بوجه عام. يقدر ما يستهين بالمُثُل والمبادئ والأخلاق، في حياته الفردية، وفي حياته العائلية وفي حياته الاجتماعية - فيما عدا دائرة العمل بأنواعه، وعلاقات الاقتصاد والمال - ومنظر الجماهير وهي تتبع مباريات كرة القدم، على الطريقة الأمريكية الخشنة التي ليس لها من اسمها (كرة القدم) أي نصيب إذ أن «القدم» لا تشترك في اللعب، إنما يحاول كل لاعب أن يخطف الكرة بين يديه، ويجري بها ليقذف بها إلى الهدف، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة، بما في ذلك الضرب في البطن، وتهشيم الأذرع والسيقان، بكل عنف وكل شراسه.. منظر الجماهير وهي تتبع هذه اللعبة، أو تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوحشية الدامية.. منظرها في هياجها الحيواني المنبعث من إعجابها بالعنف القاسي، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله، بقدر ما هي مأخوذه بالدم السائل والأوصال المهشمة، وصراخها هاتفة: كلٌ يشجع فريقه: حطّم رأسه. هشّم أضلاعه. اعجنه عجناً.. هذا المنظر لا يدع مجالاً للشك في بدائية الشعور التي تفتن بالقوة العضلية وتهواها..

محبة أمريكا للسلام... خرافة:

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الأمريكي صراع الجماعات

والطوائف، وصراع الأمم والشعوب. ولست أدري كيف راجت في العالم - وبخاصة في الشرق - تلك الخرافة العجيبة. خرافة أن الشعب الأمريكي شعب محب للسلام!.

الأمريكي وشهوة الحرب:

إن الأمريكي بفطرته محارب محب للصراع، وفكرة الحرب والصراع قوية في دمه، بارزة في سلوكه، وهذا هو الذي يتفق مع تاريخه كذلك. فقد خرجت الأفواج الأولى من أوطانها قاصدة إلى أمريكا بفكرة الاستعمار والمنافسة والصراع. وهناك قاتل بعضهم بعضاً وهم جماعات وأفواج. ثم قاتلوا جميعاً سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) وما يزالون يحاربونهم حرب إفناء حتى اللحظة الحاضرة. ثم قاتل العنصر الأنجلو سكسوني العنصر اللاتيني هناك، وطرده إلى الجنوب في أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم حارب المتأمركون أمّهم الأولى إنجلترا في حرب التدمير بقيادة «جورج واشنطن» حتى نالوا استقلالهم عن التاج البريطاني.

الدوافع الحقيقة لتحرير العبيد في أمريكا:

ثم حارب الشمال الجنوب بقيادة «إبراهام لنكولن» تلك الحرب التي اتسمت بسمة «تحرير العبيد» وإن كانت دوافعها الحقيقة هي المنافسة الاقتصادية. ذلك أن العبيد المستجلبين من أواسط أفريقيا ليعملوا في الأرض رقيقاً، لم يستطيعوا مقاومة الطقس البارد في

الشمال فنزحوا إلى الجنوب. وكان معنى هذا أن يجد المستعمرون في الولايات الجنوبية الأيدي العاملة الرخيصة على حين لا يجدها الشماليون، فيتم لهم التفوق الاقتصادي، لذلك أعلن الشماليون الحرب لتحرير العبيد!...

أمريكا تخرج من عزلتها:

وانقضت فترة العزلة، وانتهت سياستها، عندما دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولي، ثم اضطلعت بالحرب العالمية الثانية. ثم ها هي ذي تنهض بالحرب في كوريا، والحرب العالمية الثالثة ليست بالبعيدة! ولست أدري إذن كيف راجت تلك الخرافة العجيبة، عن شعب هذا تاريخه في الحروب؟

نظرة الأمريكيين للموت:

إن الحيوية المادية عند الأمريكي مقدسة، الضعف أيّاً كانت أسبابه جريمة. جريمة لا يغتفرها شيء. ولا تستحق عطفاً ولا عوناً. وحكاية المبادئ والحقوق خرافة في ضمير الأمريكي، لا يتذوق لها طعماً. كن قوياً ولك كل شيء. أو كن ضعيفاً فلا يسعفك، مبدأ، لا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح. أما الذي يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت. ويفقد كل حق له في الاهتمام والاحترام! أليس أنه قد مات؟.

أمريكيون يتفكهون على مصاب:

كنت في مستشفى «جورج واشنطن» العاصمة، كان الوقت مساء حينما غمرته موجة من الاضطراب غير معهودة، وبدأت فيه حركة غير عادية، تستلفت النظر. وأخذ المرضى القادرون على الحركة يغادرون أسرَّتهم وحجراتهم إلى المماشي والأبهاء يستطلعون ثم جعلوا يتحلقون متسائلين عن سر تلك الظاهرة في حياة المستشفى الهادئة... وعرفنا بعد فترة أن أحد موظفي المستشفى قد أُصيب في حادث مصعد، وأنه في حالة خطيرة، بل دور الاحتضار. وذهب أحد المرضى الأمريكان ليرى بنفسه ثم عاد يقصّ على المتحلقين في الممشى ما رأى.. وحين يخيم شبح الموت على مكان لا تكون له رهبة، ولا يكون للموت خشوعه كما يكون ذلك في مستشفى... ولكن هذا الأمريكاني أخذ يضحك ويقهقه، وهو يمثل هيئة المصاب المحتضر، وقد دق المصعد عنقه، وهشم رأسه، وتدلى لسانه من فمه على جانب وجهه! وانتظرت أن أسمع أو أرى علائم الامتعاض والاستنكار من المستمعين، ولكن كثرتهم الغالبة جعلت تضحك متفكهة، بهذا التمثيل البغيض.

ضاحكون بجانب جثة عزيز:

لذلك لم أعجب وبعض أصدقائي يقصّ عليَّ ما رأى وما سمع، حول الموت ووقعه في نفوس الأمريكان.

قال لي زميل: إنه كان حاضراً مأتماً، حينما عرضت جثة رب البيت محنطة في صندوق زجاجي - على العادة الأمريكية - كيما يمر أصدقاء الفقيد بجثمانه، ليودعوه الوداع الأخير، ويلقوا عليه النظرة النهائية، واحداً بعد الآخر في صف طويل. حتى إذا انتهى المطاف وتجمعوا في حجرة الاستقبال، ما راعه إلا أن يأخذ القوم في دعابات وفكاهات، حول الفقيد العزيز وحول سواه، تشترك فيها زوجه وأهله، وتعقبها الضحكات المجلجلة في سكون الموت البارد، وحول الجسد المسجّى في الأكفان!..

أمريكية تلهو وجثة زوجها في البيت:

وكان الأستاذ مدير البعثات المصرية بواشنطن مدعواً هو والسيدة حَرَمه إلى إحدى الحفلات، وقبيل الموعد مرضت السيدة حَرَمه، فأمسك بالتليفون ليعتذر عن الحفلة بسبب هذا الطارئ. ولكن الدّاعين أجابوه بأنه لا ضرورة للاعتذار، فإنه يملك أن يحضر منفرداً، وستكون هذه فرصة طيبة، ذلك أن إحدى المدعّوات قد توفي زوجها فجأة قبيل الحفلة، وستكون وحيدة فيها، فمن حسن الحظ أن يكون لها رفيق!

أمريكية تتحدث عن زوجها الميت حديثاً:

ودخلت مرة بيت سيدة أمريكية كانت تساعدني في اللغة الإنجليزية في الفترة الأولى من وجودي في أمريكا، فوجدت عندها

إحدى صديقاتها، وكانتا يتحدثان في موضوع لحقت أواخره، وهذه الصديقة تقول: «لقد كنت حسنة الحظ، فقد كنت مؤمِّنة على حياته. حتى علاجه لم يكلفني إلا القليل لأنني كنت مؤمنة عليه في هيئة «الصليب الأزرق» وابتسمتْ ضاحكة».

ثم استأذَنَتْ وخرَجتْ، وبقيتُ مع ربة البيت، وأنا أحسب أن صديقتها كانت تحدّثها عن كلبها - وإن كنت قد دهشت لأنها لا تبدي أي تأثّر لموته! ولكن ما راعني إلا أن تقول لي -ولِمَ أسأل! - «كانت تحدّثني عن زوجها لقد مات منذ ثلاثة أيام»!.

ولما أبديت لها دهشتي أن تتحدث صديقتها عن زوجها المتوفى منذ ثلاثة أيام بمثل هذه البساطة، كان عذرها الذي لا يخالجها الشك في أنه مقنع ووجيه «إنه كان مريضاً! لقد مرض أكثر من ثلاثة أشهر قبل الوفاة!».

مأتم الطيور في مصر:

عادت بي الذاكرة إلى مشهد عميق الأثر في شعوري، وقد أثار في خاطري في حينه منذ سنوات.. خاطرة لم تكتب بعنوان: «مأتم الطيور» ذلك مشهد جماعة من الفراخ كنّا نربيها في دارنا، وقد وقفت متحلقة صامتة مبهور مأخوذة، حول فرخ منها ذبيح، لقد كانت مفاجأة شعورية لكل من كان في البيت، مفاجأة غير منتظرة من طير غير متقدم في سلّم الرقي كالدجاج، بل كانت صدمة لم نجرؤ بعدها منذ ذلك الحين على ذبح فرخ واحد على مرأى من جماعة الطيور!

حزن الغربان على ميتها:

ومنظر الغربان حين يموت لها مائت، منظر مألوف شاهده الكثيرون وهو منظر يصعب تفسيره بغير شعور «الحزن» أو «عاطفة القرابة»! فهذه الجموع من الغربان المحلّقة الصافّة، الناعقة بشتى الأصوات والأنغام، الطائرة هنا وهناك، حتى تحتمل جثمان الميت وتطير.. هذا كله يشي برجفة الموت في عالم الطيور!.

جفاف الحياة الأمريكية:

وقداسة الموت تكاد تكون شعوراً فطرياً. فليست البدائية الشعورية هي التي تطمسها في النفس الأمريكية، ولكنه جفاف الحياة من التعاطف الوجداني، وقيامها على معادلات حسابية مادية، وعلى علاقات الجسد ودوافعه، واستخفافها عمداً بكل ما يشتهر أنه من مقدسات الناس في العالم القديم، والرغبة في مخالفة ما تواضع عليه الناس هناك، وإلا فما مزية الدنيا الجديدة على ذلك العالم القديم؟.

شعور الأمريكيين بالدين بدائي:

وما يقال عن الشعور بالموت يقال عن الشعور بالدين.

كنائس بدون حياة:

ليس أكثر من الأمريكان تشييداً للكنائس، حتى لقد أحصيت في بلدة واحدة لا يزيد سكانها على عشرة آلاف أكثر من عشرين كنيسة! وليس أكثر منهم ذهاباً إلى كنائس في ليلات الأحد وأيامه، وفي الأعياد العامة وأعياد القديسين المحليين وهم أكثر من «الأولياء» عوّام المسلمين!... وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته، وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه.

كنائس للهو والتسلية:

وإذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة في العالم المسيحي كله، فإنها في أمريكا لكل شيء إلا العبادة. وإنه ليصعب عليك أن تفرّق بينها وبين أي مكان آخر، معدٌّ للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم الـ «Fun» ومعظم قصّادها إنما يعدّونها تقليداً اجتماعياً ضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس، ولتمضية وقت طيب، وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها...

أندية الكنائس ودعايتها:

ولمعظم الكنائس نادٍ يتألف من الجنسين، ويجتهد راعي كل

كنيسة أن يلتحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً بين الكنائس المختلفة المذاهب، ولهذا تتسابق جميعاً في الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة لجلب الجماهير بنفس الطريقة التي تتبعها المتاجر ودور العرض والتمثيل، وليس هناك من بأس في استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهنّ، وأبرعهنّ في الغناء والرقص والترويج.

برنامج حفلة كنيسة :

وهذه مثلاً محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كانت ملصقة في قاعة اجتماع الطلبة في إحدى الكليات.

«يوم الأحد أول أكتوبر - في الساعة السادسة مساء - عشاء خفيف ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية»...

وليس في هذا أية غرابة، لأن راعي الكنيسة لا يحسّ أن عمله يختلف في شيء عن عمل مدير المسرح، أو مدير المتجر. النجاح أولاً وقبل كل شيء - والوسيلة ليست بالمهمة - وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة المال والجاه. فكلما كثر عدد الملتحقين. بكنيسة عظُم دخله، وزاد كذلك احترامه ونفوذه في بلده، لأن الأمريكي بطبيعته يُوخذ بالفخامة في الحجم أن العدد. وهي مقياسه الأول في الشعور والتقدير.

ليلة حمراء كنسية :

كنت ليلة في إحدى الكنائس -ببلدة جريلي بولاية كولورادو- فقد كنت عضواً في ناديها كما كنت عضواً في عدة نوادٍ كنسية في كل جهة عشت فيها، إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحي المجتمع، تستحق الدراسة عن كثب ومن الداخل - وبعد أن انتهت الخدمة الدينية في الكنيسة، واشترك في التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة، دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة الصلاة يصل بينهما الباب، وصعد «الأب» إلى مكتبه، وأخذ كل فتى بيد فتاة، وبينهم وبينهنّ أولئك الذين واللواتي، كانوا وكنّ، يقومون بالترتيل ويقمن!.

وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والصفراء الزرقاء، وبقليل من المصابيح البيض...، هي الرقص على أنغام «الجراموفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة والتفّت الأذرع بالخصور، والتقت الشفاه والصدور... وكان الجو كله غراماً، حينما هبط «الأب» من مكتبه وألقى نظرة فاحصة على المكان ومَنْ في المكان، وشجع الجالسين والجالسات ممّن لم يشتركوا في الحلبة على أن ينهضوا فيشاركوا، وكأنما لحظ أن المصابيح البيض تفسد ذلك الجو «الرومانتيكي» الحالم، فراح في رشاقة الأمريكاني وخفته يطفئها واحداً واحداً، وهو يتحاشى أن يعطّل حركة الرقص، أو يصدم زوجاً من الراقصين في الساحة، وبدا المكان بالفعل أكثر «رومانتيكية» وغراماً.. ثم تقدم إلى «الجراموفون» ليختار أغنية تناسب ذلك الجو، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه.

واختار... اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها But baby its cold outside «ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج» وهي تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما، وقد احتجزها الفتى في داره، وهي تدعوه أن يطلق سراحها، لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت، وأمها تنتظر... وكلما تذرعت إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة، ولكنها يا صغيرتي باردة بالخارج!.

وانتظر الأب حتى رأى خطوات بنيه على موسيقى تلك الأغنية المثيرة، وبدا راضياً مغتبطاً، وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركاً لهم ولهنّ إتمام هذه السهرة اللذيذة... البريئة!...

القساوسة وصائدات الرجال:

وأب آخر يتحدث إلى صاحب لي عراقي، وقد توثقت بيني وبينه عُرى الصداقة، فيسأله عن «ماري» زميلته في الجامعة «لِمَ لا تحضر الآن إلى الكنيسة؟» ويبدي أنه لا يعنيه أن تغيب الفتيات جميعاً وتحضر «ماري» ! وحين يسأله الشاب عن هذه اللهفة: يجيب: «إنها جذابة، وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها!».

ويحدّثني شاب من شياطين الشبان العرب الذين يدرسون في أمريكا، وكنّا نطلق عليه اسم «أبو العتاهية» - وما أدري إنْ كان ذلك يُغضب الشاعر القديم أو يرضيه - فيقول لي عن فتاته - ولكلٌ فتى فتاة في أمريكا - إنها كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحياناً لأنها ذاهبة لترتيل في الكنيسة، وكانت إذا تأخرت لم تنجُ من إشارات

«الأب» وتلميحاته إلى جريرة «أبي العتاهية» في تأخيرها عن حضور الصلاة! هذا إذا حضرت وحدها من دونه، فأما إذا استطاعت أن تجرّه وراءها فلا لوم عليها ولا تثريب!.

الغاية عندهم تبرر الوسيلة:

ويقول لك هؤلاء الآباء: إننا لا نستطيع إن نجتذب هذا الشاب إلا بهذه الوسائل!.

ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه: وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة، وهم يخوضون إليها مثل هذا الطريق، ويقضون ساعاتهم فيه؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف في ذاته، أم آثاره التهذيبية في الشعور والسلوك؟ من وجهة نظر «الآباء» التي أوضحتُها فيما سلف، مجرد الذهاب هو الهدف. وهو وضع لمن يعيش في أمريكا مفهوم!.

ولكني أعود إلى مصر، فأجد من يتحدّث أو يكتب عن الكنيسة في أمريكا - وهو لم يرّ أمريكا لحظة - وعن دورها في الإصلاح الاجتماعي، ونشاطها في تطهير القلب وتهذيب الروح...

ولله في خلقه شؤون!...

البدائية الجنسية في أمريكا:

والأمريكي بدائي في حياته الجنسية، وفي علاقات الزواج والأسرة. ولقد مررت في أثناء دراساتي للكتاب المقدس بتلك الآية

الواردة في «العهد القديم» حكاية عن خلق الله للبشر أول مرة وهي تقول: (ذكراً وأنثى خلقهم)... مررت بهذه الآية كثيراً، فلم يتمثل لي معناها عارياً واضحاً جاهراً، كما تمثل لي في أثناء حياتي في أمريكا.

جنس وفساد:

إن كل ما تعبت الحياة البشرية الطويلة في خلقه وصيانته من آداب الجنس، وكل ما صاغته حول هذه العلاقات من عواطف ومشاعر، وكل ما جاهدت من غلاظة الحسّ وجهامة الغريزة، لتطلقه إشاعات مرفرفة، وهالات مجنحة، وأشواق طليقة وكل الروابط الوثيقة حول تلك العلاقات في شعور الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي محيط الجماعة...

إن هذا كله قد تجردت منه الحياة في أمريكا مرة واحدة، وتجلّت عارية عاطلة من كل تجمل: (ذكراً، وأنثي) كما خلقهم أول مرة. جسد لجسد، وأنثى لذكر، على أساس مطالب الجسد ودوافعه، تقوم العلاقات وتتحدد الصلات، ومنها تستمد قواعد السلوك، وآداب المجتمع، وروابط الاسر والأفراد.

بفتنة الجسد وحدها، عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء، تلقى الفتاة الفتى، ومن قوة الجسد وعضلاته يستمد الفتى إعجاب الفتاة. ويستمد الزوج حقوقه -هذه الحقوق التي تسقط جميعها في عُرْف الجميع، يوم يعجز الرجال عنها لسبب من الأسباب-.

مظاهر فتنة «الأمريكية»:

والفتاة الأمريكية تعرف جيداً مواضع فتنتها الجسدية، تعرفها في الوجه، في العين الهاتفة، والشفة الظامئة، وتعرفها في الجسد: في الصدر الناهد، الردف المليء، وفي الفخذ اللفاء والساق الملساء - وهي تبدي هذا كله ولا تخفيه - وتعرفها في اللباس: في اللون الزاهي توقظ به الحس البدائي، وفي التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد - وهو بذاته في الأمريكية فتنة حيّة صاعقة في بعض الأحيان! - ثم تضيف إلى هذا كله الضحكة المثيرة، والنظرة الجاهرة، والحركة الجريئة، ولا تغفل عن ذلك لحظة أو تتساه!.

فتى الأحلام «الأمريكي»:

والفتى الأمريكي يعرف جيداً أن الصدر العريض المفتول، هما الشفاعة التي لا تردّ عند كل فتاة، وأن أحلامها لا ترفّ على أحد كما ترفّ على «رعاة البقر» الـ Cowboys وبصريح العبارة تقول لي فتاة ممرضة في مستشفى «لست أطلب في فتى أحلامي إلا ذراعين قويتين يعصرني بهما عصراً.. وقامت مجلة «لوك» Look باستفتاء لعدد من الفتيات من مختلف الأعمار والثقافات من مختلف الأعمار والثقافات والأوساط، حول ما أسمته «عضل الثيران» فأبدت غالبية ساحقة إعجابها المطلق بالفتيان أصحاب عضل الثيران!..

الجنس ومادية الحياة في أمريكا:

وما من شك أن لهذه الظاهرة دلالتها على حيوية هذا الشعب وقوة حسّه، ولو هذبت هذه الطاقة وتسامت لا ستحالت فناً عجيباً يجعل جهامة الحياة، وأشواقاً تجعل لها في الحسّ الإنساني نكهة، وتربط بين الجنسين بروابط أعلى وأجمل من روابط الجسد الظامئ والحس الهائج، والجنس الصارخ في العيون، الهاتف في الجوارح، المتنزي في الحركات واللفتات، ولكن طبيعة الحياة في أمريكا، والملابسات التي سلفت في نشأة هذا الشعب، لا تساعد على شيء من هذا، بل تقاومه وتقصيه.

المسألة الجنسية بيولوجية في أمريكا:

وهكذا أصبحت كلمة حيي أو خجول «Bashful» من كلمات العيب والتحقير، وانطلقت العلاقات الجنسية من كل قيد على طريقة الغابة، وأصبح بعضهم يفلسفها فيقول كما قالت لي إحدى فتيات الجامعة مرة: «إن المسألة الجنسية ليست مسألة أخلاقية بحال. إنها مجرد مسألة بيولوجية: وحين ننظر إليها من هذه الزاوية نتبين أن استخدام كلمات الرذيلة والفضيلة. والخير والشر، إقحام لها في غير مواضعها، وهو يبدو لنا نحن الأمريكان غريباً، بل مضحكاً...» وبعضهم يبررها ويعتذر عنها كما قال لي طالب يشتغل للدكتوراة: «إننا هنا مشغولون بالعمل، ولا نريد أن يعوقنا عنه معوق، وليس لدينا وقت

تنفقه في العواطف. ثم إن الكبت يتعب أعصابنا، فنحن نريد أن ننتهي من هذه «الشغلة» لنفرغ إلى العمل بأعصاب مستريحة!».

أعصاب الأمريكيين:

ولم أرد أن أُعلّق على هذا الحديث في وقته، فقد كان همّي أن أعرف كيف يفكرون في هذه المسألة، وإلا فكل شيء في أمريكا لا يدلّ على أعصاب مستريحة، بالرغم من كل وسائل الحياة المريحة، وكل ضماناتها المطمئنة، وكل يسر وسهولة في إنفاق الطاقات الفائضة.

الأمريكيون تحرروا من الإنسانية:

وبعضهم يسمّي هذا تحرراً من الرياء ومواجهة للحقائق، ولكن هنالك فرقاً أساسياً بين التحرر من الرياء والتحرر من المقّومات الإنسانية التي تفرّق بين الإنسان والحيوان، والإنسانية في تاريخها الطويل لم تكن تجهل أن الميول الجنسية ميول طبيعية وحقيقية، ولكنها -عن وعي أو غير وعي- كانت تجاهد لتتحكم فيها، فراراً من العبودية لها وبُعداً عن مدارجها الأولى.

أمريكا التي رأيت:
في ميزان القيم الإنسانية

الحلقة الثالثة

مجلة الرسالة: السنة التاسعة عشرة - المجلد الثاني - عدد: 961 - تاريخ 3 ديسمبر 1951 - صفحات: 1357-1360

البدائية الفنية في أمريكا:

الأمريكي بدائي في ذوقه الفني، سواء في ذلك تذوقه للفن، وأعماله الفنية. موسيقى «الجاز» هي موسيقاه المختارة. وهي تلك الموسيقى التي ابتدعها الزنوج لإرضاء ميولهم البدائية، ورغبتهم في الضجيج من ناحية، ولاستثارة النوازع الحيوانية من جهة أخرى، ولا تتم نشوة الأمريكي تماماً بموسيقى «الجاز» حتى يصاحبها غناء مثلها صارخ غليظ. وكلما علا ضجيج الأصوات والآلات، وطنَّ في الآذان إلى درجة لا تطاق.. زاد هياج الجمهور، وعلت أصوات الاستحسان، وارتفعت الأكفّ بالتصفيق الحادّ المتواصل، الذي يكاد يصمّ الآذان.

الأمريكيون أمام الأوبرا:

ولكن الجمهور الأمريكي مع هذا يُقبِل على الأوبرا، ويصغي إلي السمفونيات، ويتزاحم على «الباليه» ويشاهد الروايات التمثيلية «الكلاسيك» حتى لا تكاد تجد مقعداً خالياً، ويقع في بعض الأحيان ألاّ تجد مكاناً إذا أنت لم تحجز معقدك قبلها بأيام، على غلاء الأسعار في هذه الحفلات.

«استخسار» أمريكا وإشفاق على البشرية منها:

ولقد خدعتني هذه الظاهرة في أول الأمر، بل لقد فرحت بها في داخل نفسي... فقد كنت دائم الشعور «باستخسار» هذا الشعب ألا يكون له رصيد من القيم الإنسانية الأخرى... وأنا شديد الإشقاق على الإنسانية أن تؤول قيادتها إلى هذا الشعب، وهو فقير من تلك القيم جميعاً...

حقيقة «تعالم» الأمريكيين.

فرحت إذن حين شاهدت هذه الظاهرة، لأن الجمهور الذي يقبل على الفن الراقي غير ميئوس منه مهما تكن عيوبه، ومتي فتحت هذه النافذة من شعوره فالأمل كبير أن تطل منها أشعة أخرى كثيرة.

وقد دفعني الاهتمام بهذه الظاهرة إلى أن أتقصى كل شيء عنها في أواسط مختلفة، وفي مدن متعددة، ولكن تتبّعي لسمات الوجوه، ومحادثاتي مع الكثيرين والكثيرات من روّاد هذه الأماكن -من أن أعرف ومن لا أعرف- قد كشفت لي - مع الأسف- عن أن الشقة ما تزال بعيدة بين روح هذا الفن الإنساني وروح الأمريكان. إن مشاعرهم عنها محجبة إلا في النادر، وإنهم إنما ينظرون إلى المسألة من زاوية اجتماعية بحتة. فالأمريكي المثقف لا بدّ أن يكون شهد هذه الألوان، وذهب إلى تلك الأماكن، حتى إذا دار الحديث عنها في مجتمع شارك في الحديث. فالعيب الأكبر في أمريكا ألاّ يشارك الإنسان في الحديث، وبخاصة بالنسبة إلى الفتيات، إذ المطلوب منهنّ أن يجدن دائما موضوعات للحديث، فاذا ارتدن هذه الاماكن فانهن يضفن موضوعات جديدة إلى الموضوعات الأمريكية الخالدة وهي: مسابقات الكرة، وأسماء الأفلام والممثلين والممثلات، وحوادث الطلاق والزواج، وماركات وأسعار السيارات...

وبهذه الروح ذاتها تفد الجموع على المتاحف الفنية عابرة عبوراً خاطفاً بالقاعات والمعروضات، بطريقة لا تدل على تذوّق أو إلفة لهذه الأعمال. كما يذهبون أفراداً وجماعات لمشاهدة مناظر الطبيعة خطفا، والمرور بأقصى سرعة السيارات بالأماكن والمناظر لجمع مادة للحديث، ولتلبية الميل الأمريكي الطبيعي إلى الجمع والإحصاء.

سياحة الأمريكيين:

ولقد كنت أسمع في مبدأ وجودي بأمريكا أن أحدهم زار كذا وكذا من المدن والبلاد والمناظر والمشاهد، وقطع كذا ميلاً في رحلاته السياحية، وهذا يعرف كذا عدداً من الأصدقاء، فأعجب بهذه المقدرة على صنع هذا كله وأود لو أستطيع منه شيئاً. ثم عرفت فيما بعد كيف تتم هذه المعجزات. يركب أحدهم سيارته وحده أو مع أسرته أو أصحابه في رحلة، فيعدو بها عدْواً على آخر سرعتها، مخترقاً بها المدن والمسافات عابراً بالمناظر والمشاهد، وهو يقيد في مذكرته الأسماء والأميال.. ثم يعود فإذا هو شهد هذا كله، وأصبح له الحق في الحديث عنه!.

أما الأصدقاء فيكفي أن يُدعى إلى حفلات التعارف، وهناك يلتقي بالوجوه أول مرة، والقائم بالدعوة يُعرفه بالحاضرين واحداً واحداً، وواحدة واحدة، وهو يستكتب من شاء منهم اسمه وعنوانه، وكذلك هم يفعلون معه وعلى الزمن تتضخم مذكرته بالأسماء والعناوين. فإذا هو صاحب أكبر رقم من الأصدقاء والصديقات، وقد يفوز في مسابقة تقام لهذا الغرض، وما أكثر وما أغرب المسابقات هناك!.

وهكذا يقاس علمك وثقافتك أحياناً بقدر ما قرأت وما شهدت وما سمعت، كما تحسب ثروتك المادية بعدد ومقدار ما تملك من مال وعقار سواء بسواء!.

فن بدون متذوقين:

وليست هذه عقلية الجماهير وحدها، ولكنها كثيراً ما تكون عقلية المفكرين والباحثين فلقد خطر للمفكرين في أمريكا أنه لا يصح أن تكون دولتهم أغنى دول العالم، وشعبهم أكثر شعوب العالم حضارة صناعية وحضارة علمية، ثم لا يكون لهم من الثروة الفنية مثل ما لبعض الشعوب الفقيرة كالطليان والألمان.

ولديهم المال - والمال يصنع المعجزات - وإن هي إلا سنوات حتى كان لهم من متاحف الرسم والنحت أفخمها وأضخمها وجمعت لها القطع الغنية من كل فج، وعمرت بالنادر والثمين من هذه القطع التي لم يبخلوا على شرائها بالمال.. وكلها قطع أجنبية! إلا القليل، لأن القطع الأمريكية بدائية وساذجة إلى حدٍّ مضحك، بجوار تلك الذخائر العالمية الرائعة.

وكذلك كان لهم من الفرق الموسيقية العازفة، وفرق الباليه «الراقصة»، أكثرها مهارة وإتقاناً، ومن مديري هذه الفرق أعظمهم عبقرية وإبداعاً.. وكلهم من الأجانب إلا القليل.

ثم خرجتْ الإحصاءات الدقيقة تعلن عمّا تملك أمريكا من الثروات الفنية الضخمة، المشتراة بالمال، ولكن بقي أمر واحد بسيط: أن يكون للنفس الأمريكية نصيب في هذه الثروات؟ بل يكون لها مجرد التذوق الفني لهذا التراث الإنساني الثمين!.

سيد قطب باحث اجتماعي في أمريكا:

وخطر لي أن أمتحن هذه الأرقام في متاحف الفن، كما امتحنتُها في دُور الأوبرا وما إليها.

وذهبت للمرة العاشرة إلى متحف الفن في «سان فرنسيسكو» وجعلت مادة امتحاني إحدى قاعات الصور من الفن الفرنسي، ووزّعت اهتمامي على ما فيها من الصور، ولكنني ركّزته على واحدة بارعة اسمها: «ثعلب في بيت الدجاج» ولا تملك الألفاظ أن تنقل إلى القارئ روعة هذه الصورة العبقرية، التي صوّر فيها الرسام جملة مشاعر عميقة، مركبة في لوحة ليس فيها وجه إنسان، يسهل على الرسام أن يصوِّر هذه المشاعر فيه... ثعلب في بيت الدجاج والجو داكن خانق وقد هجم الثعلب أول ما هجم على دجاجة مفرّخة، بدت مكروبة مجهدة في مخالب الوحش المكشر، وقد فزع صغارها، وتناثر البيض الباقي تحتها، على حين تناثرت زميلاتها في فراغ اللوحة، ووقف الديك -رجل البيت- وقفة المغلوب على أمرِه الحائر الذي لا يجد مخلِّصاً لزوجه المكروبة وهو حاميها! أما الأُخريات فواحدة جازعة مأخوذة، وأخرى قانطة مشمئزة أن يكون في الحياة كل هذه البشاعة، وثالثة حائرة متسائلة: كيف وقع هذا؟ والجو كله والألوان في اللوحة العبقرية تصور ما لا تدركه الألفاظ.

واسترحت إلى مقعد من المقاعد التي جهزت بها القاعات تجهيزاً جميلاً بديعاً ليستريح عليها الزائرون عند التعب من المشاهدة والطواف، ورحت استعرض الملامح والسمات، وأنصت إلى الملاحظات والتعليقات.

وانقضت عليّ في جلستي أربع ساعات كاملة، مرَّ بي في خلالها مائة وتسعة، فرادى وأزواجاً وجماعات، معظمهم من الفتيات والفتيان الذين يتواعدون على قضاء بعض الوقت في حديقة المتحف ثم في المتحف ذاته، لأنه ينبغي للفتاة الاجتماعية أن تشارك في الحديث، وأن تجد موضوعات للحديث.

كم من هؤلاء التسعة والمائة بدا عليه أن يحسّ شيئاً مما يري؟ واحد فقط تلبث أمام الصورة المنتقاة نحو دقيقتين، وتلبث في القاعة كلها نحو خمس دقائق، ثم طار.

وكررت التجربة في قاعات المتحف الأخرى، ثم كررته في متاحف أخرى في عدة مدن، ثم انتهيت إلى أن قلة نادرة من هذه الكثرة الكثيرة التي تتضمنها إحصاءات الزائرين تدرك شيئاً من هذه الثروة الفنية الهائلة، التي جمعها الدولار من كل بقاع الأرض، وبقي أن يخلق الحاسّة الفنية، التي يبدو أنها لا تستجيب لسحر الدولار.

سمات السينما الأمريكية:

الفن الوحيد الذي يتقنه الأمريكان - وإن يكن سواهم لا يزال يفوقهم في الناحية الفنية فيه - هو فن السينما. وهذا طبيعي ومنطقي مع تلك الظاهرة التي ينفرد بها الأمريكي: ذروة الاتقان الصناعي، وبدائية الشعور الفني. وفي السينما تبدو هذه الظاهرة واضحة إلى حد كبير.

لا يرتفع الفن السينمائي بطبيعته إلى آفاق الفنون العليا:

الموسيقى والرسم والنحت والشعر، ولا إلى فن المسرح كذلك، وإن كانت إمكانيات الصناعة الفنية وإمكانيات الإخراج في السينما أوسع بكثير. واقصى ما يبلغه فن التصوير الشمسي. ثم تظل المسافة بينه وبين المسرح مثلاً، كالمسافة بين التصوير الفوتوغرافي والتصوير بالريشة. هذا تتجلى فيه عبقرية الشعور، وذلك تتجلى فيه مهارة الصناعة...

أفلام وأفلام:

والسينما فن الجماهير الشعبي، فهو فن المهارة والاتقان والتجسيم والتقريب، وهو بطبيعته اعتماده على المهارة أكثر من اعتماده على الروح الفنية.. يمكن أن تبدع فيه العبقرية الأمريكية.. ومع هذا فما يزال الفيلم الإنجليزي والفرنسي والروسي والإيطالي أرقى من الفيلم الأمريكي، وإنْ كان أقل صناعة ومهارة.

والكثرة الغالبة من الأقلام الأمريكية تتجلى فيها بدائية الموضوع، وبدائية الانفعالات، وهي في الغالب أفلام الجريمة البوليسية، وأفلام رعاة البقر، أما الأفلام العالية البارعة من أمثال «ذهب مع الريح» و «مرتفعات وذرنج» و «ترتيل برنادوت» وما إليها، فهي قليلة بالقياس إلى النتاج الأمريكي، وما يرد من الفيلم الأمريكي إلى مصر أو البلاد العربية لا يمثّل هذه النسبة، لأن الكثير منه من أرقى الأفلام الأمريكية النادرة. والذين يزورون دُور العرض في أمريكا هم الذين يدركون تلك النسبة الضئيلة من الأفلام القيّمة.

مناظر الطبيعة في الفن الأمريكي:

هنالك فن آخر برع فيه الأمريكان، لأن ما فيه من المهارة في الصناعة والإنتاج أكثر مما فيه من الفن العالي الأصيل... ذلك هو فن تمثيل المناظر الطبيعية بالألوان، كأنها فوتوغرافية صادقة دقيقة، ويبدو هذا في متاحف الأحياء المائية والبرية، إذ تُعرض هده الأحياء أو أجسادها المحنطة في مثل مواطنها الطبيعية كأنها حقيقة، وتبدع ريشة الرسام، في تصوير هذه المواطن، مشتركة مع التصميم الفني للمنظر، وتبلغ حدّ الإبداع.

البدائية في الذوق والمزاج:

ثم ندع تلك الآفاق العليا في الفن والشعور، لنهبط إلي ألوان الملابس وإلى مذاق الأطعمة..

ملابس الأمريكيين:

إن بدائية الذوق لا تتجلى في شيء كما تتجلى في تلك الألوان الصارخة الزاهية، وفي تلك التقاسيم المبرقشة الكبيرة وبخاصة ملابس الرجال... ذلك السبع أو النمر الواثب على الصدرية.. وذلك الفيل أو الثور الوحشي الجاثم على ظهرها. تلك الفتاة العارية الممددة على رباط العنق من أعلى إلى أسفل، أو تلك النخلة الصاعدة فيه من أسفل إلى أعلى...

لطالما تحدّث المتحدّثون عندنا عن «فستان العيد» في الريف أو عن ثوب العروس في القرية، بألوانه الزاعقة البدائية التي لا تربط بينها رابطة، إذ أنها كلها فاقعة الألوان... ليت هؤلاء يرون معي أقمصة الشبّان في أمريكا أو ملابس الفتيات!... ولطالما تحدّث المتحدثون عن «الوشم» عن الغجر، أو في أواسط أفريقية، ليتهم يرون أذرع الشبان الأمريكان وصدورهم وظهورهم موشحة بالختم الأخضر، ثعابين وحيات، وفتيات عاريات، وأشجار وغابات في أمريكا المتحضرة، في الدنيا الجديدة، في العالم الجديد...

طعام الأمريكيين:

أما الطعام فشأنه هو الآخر عجيب.

إنك تلفت النظر، وتثير الدهشة، حيت تطلب قطعة أخرى من السكر لكوب الشاي أو القهوة تشربه في أمريكا. ذلك أن السكر محتفظ به للمخلّل «والسلاطة»! كما أن الملح يا سيدي محتفظ به للتفاح والبطيخ.

وفي صحفة طعامك تجتمع قطعة اللحم المملّحة إلى كمية من الذرة المسلوقة، وكمية من البازيلا المسلوقة، وبعض المربيات الحلوة... وفوق ذلك كله الـ (Grafy) المؤلف أحياناً من السمن والخل والدقيق ومرقة العجل والتفاح، والملح والفلفل والسكر... والماء...

سيد قطب يتفكه على الأمريكيين:

كنّا على المائدة في مطعم ملحق بالجامعة، حينما رأيت بعض الأمريكان يضعون الملح على البطيخ، وكنت قد اعتدت رؤية هذه «التقاليع» واعتدت كذلك أن أتفكه عليهم في بعض الأحيان. وقلت متجاهلاً: أراكم ترشّون الملح على البطيخ؟ قال أحدهم: أجل! ألا تصنعون ذلك في مصر؟ قلت: كلا! إنما نرشّ نحن الفلفل! قالت واحدة في دهشة واستفسار: أو يكون ذلك مستساغاً؟ قلت: يمكنك أن تجربي! وجربتْ، وذاقتْ. وقالت في استحسان: كم هو لذيذ. وكذلك فعل الآخرون.

وفي يوم آخر جاء فيه البطيخ، ومعظم من يأكلون على المائدة هم هم، قلت: وبعضنا في مصر يستخدم السكر أحياناً لا الفلفل. وبدأ أحدهم ففعل وقال: كم هو لذيذ! وكذلك الآخرون.

حلاقة الأمريكيين:

وباختصار، فكل ما يحتاج إلى قسط من الذوق فالأمريكاني ليس له فيه حتى الحلاقة! وما من مرة حلقت شعري هناك إلا وعدت إلى البيت لأسوّي بيدي ما شعّث الحلّاق، وأصلح ما أفسده بذوقه الغليظ!...

دور أمريكا في العالم:

إن لأمريكا دورها الرئيسي في هذا العالم، في مجال العالم التطبيقي، وفي مجال البحوث العلمية، وفي مجال التنظيم والتحسين، والإنتاج والإدارة... كلّ ما يحتاج إلى ذهن وعضل فهنا تبرز العبقرية الأمريكية، وكل ما يحتاج إلى روح وشعور فهنا تبدو البدائية الساذجة...

وإن البشرية لتملك أن تنتفع بالعبقرية الأمريكية في مجالها فتضيف قوة ضخمة إلى قواها. ولكن هذه البشرية تخطئ أشنع الخطأ، وتعرض رصيدها من القيم الإنسانية للضياع، إذا هي جعلت المَثَل الأمريكي مثلها في الشعور والسلوك...

من فضائل أمريكا:

إن ذلك لا يعني أن الأمريكان شعب بلا فضائل، وإلا لما أمكنه أن يعيش، ولكنه يعني أن فضائله هي فضائل الإنتاج والنظام، لا فضائل القيادة الإنسانية والاجتماعية، فضائل الذهن واليد لا فضائل الذوق والشعور...

سياحة غرامية
محمود عوض (1972)

محمود عوض. سياحة غرامية. القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، 1972.

محمود عوض صحفي مصري عمل لعدة سنوات لدى صحيفة الأخبار اليومية، ويسرد في كتابه «سياحة غرامية» أخبار رحلتة في عدد من الدول حول العالم، وتحوي صفحة العنوان على رسم لرجل يحمل حقيبة في يده ويمشي فوق جسم امرأة ويفترض أن يكون الرجل هو الكاتب والشكل المنحني يمثل النساء اللواتي صادفهن وأقام معهن علاقات عاطفية.

انت أنا.. وأنا انت..
أنت الاغنية.. وأنا الايقاع..
تعالي، دعينا نتزوج!
دولة... داخل ساندويتش!
الزواج...
في اليابان: واجب.

في السعودية: فريضة.

في المانيا: ضرورة.

في بريطانيا: عادة.

في فرنسا: كوميديا.

في ايطاليا: أغنية.

في السويد: متعة.

في أمريكا: تجربة.

في لبنان: صفقة.

في مصر: مشكلة.

هكذا عدت سيرا على الاقدام

؟؟؟

مهاجر إلى أمريكا
أحمد مصطفى
(1987)

أحمد مصطفى. مهاجر إلى أمريكا، القاهرة: دار المعارف، 1987

أحمد مصطفى رجل أعمال أمريكي مصري الأصل أنتقل لأمريكا عام 1967 وعاش بشكل غير شرعي في نيويورك لبضع سنين، وسرد في كتبه مهاجر لأمريكا عام 1979 في تفاصيل ساحرة تجاربه في الحياة من الفقر حتى الغنى، وتظهر صفحة غلاف الكتاب رجل يتسلق الخطوط الموجودة على العلم الأمريكي والذي يبدو كدرج يوحي بأنه لكي تعيش وتنجح فعليك أن تعمل بجد لتصعد السلم الأمريكي.

مقدمة بقلم الأستاذ أحمد أبو الفتح:

لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تمثل بالنسبة لملايين الناس الأمل في أن يصبح الإنسان مليونيراً، هذا الحلم الذي راود المغامرين منذ قرون هو الذي دفع المغامرين إلى الهجرة إليها...

ظهر الذهب في كاليفورنيا.. واشتدت الهجرة إلى هذه الولاية في غرب أمريكا..

حلم الذهاب إلى الولايات المتحدة راود الملايين ولا يزال يراود الملايين من انحاء كثيرة من العالم للبحث عن الثراء..

هنالك من يطلب الهجرة وينتظر موافقة الحكومة الأمريكية عليها.. وهناك من دخل على تأشيرة سياحية أو لزيارة الأهل هناك.. وهناك من يغامر بالتسلل إلى أرض الذهب والمليونيرات..

لم يكن الأستاذ أحمد مصطفى يحلم بالذهب.. ولم يكن يطمع في أن يصبح مليونيراً.. كل ما سيطر عليه هو أن يبتعد عن مصر حيث يدمى قلبه حزناً على ما حل بوطنه..

إنه لم يكره مصر.. ولكنه يريد الفرار منها لأنه كان يشعر بالغربة على أرض وطنه...

استطاع بعد متاعب وصعاب أن يخرج من مصر.. سافر إلى إيطاليا.. ومنها إلى نيويورك ومنذ وطئت قدمه أرض الولايات المتحدة بدأت مغامراته.. البحث عن عمل...

استحالة الحصول على إقامة...

استحالة العمل دون إذن إقامة.. ثم إذن عمل... كل شيء صعب في بلد الثراء...

الحصول على الدولار مهمة شاقة.. ولكن كان لابد أن يعمل.. وأن يقيم.. وأن يعيش دون إقامة ودون إذن.. والبوليس الأمريكي لا يرحم مهما تكن العقبات.

الجوع.. والهرب من البوليس الأمريكي... والحبس في غرفة تبريد.. ومهاجمة اللصوص له ليلا... كل هذا يهون..

كتاب «مهاجر إلى أمريكا» سجل الأستاذ أحمد مصطفى على صفحاته مغامراته في أمريكا... سجلها بكل أمانة وبكل دقة وهي مميزاته منذ أن عمل بالصحافة في فجر شبابه...

الكتاب ليس مجرد تسلية مع أنه مسلٍ جداً... ولكنه أيضاً دروس لمن يتطلع إلى أرض الذهب والمليونيرات...

الأستاذ أحمد مصطفى زميل وصديق عزيز.. وكل إشادة بما حواه هذا الكتاب من جانبي قد يفسرها البعض بأنها من وحي الزمالة والصداقة..

ولما كنت واثقاً من أن كل قارئ سيجد في قراءة هذا الكتاب متعة كبرى فإني أترك للقراء الحكم على الكتاب..

(مقتطفات من مهاجر إلى أمريكا لاحمد مصطفى).

قبل أن تقرأ هذه الصفحات

الحياة في أمريكا غريبة ومروعة.. إن كل ما سمعته أو تسمعه عن الحياة هناك لابد أن تصدقه.. لقد عشت هناك أعواماً طويلة رأيت فيها العجب.. وشاهدت فيها ألوانا كثيرة من تصرفات الناس التي تؤكد أنك تعيش في عالم كله خليط غريب يجمع بين العقلاء والحكماء والفلاسفة.. والمجانين والعتّهاء والمجرمين واللصوص..

الناس تمشي على أرصفة الطرقات بسرعة وكأنها ثعابين أو ديدان تزحف على الأرض.

لا يوجد عند واحد من الناس الذين تقابلهم أو تصادفهم في الطريق دقيقة من الوقت ليرد على التحية أو يجيب على سؤال أو يعتذر لك عن خطأ... أو حتى يشتمك إذا دست على قدمه أو ضربته بالكتف!!.

المحامون ورجال الأعمال يستقبلونك في مكاتبهم وكل منهم ينظر في ساعته طوال جلوسك يستعجل الوقت ويهز رأسه باستمرار وأنت تتحدث إليه وكأنه يطردك من مكتبه أو ليحثك على مغادرة المكتب!!.

التجار وأصحاب المحال يستغلون بعض الناس للعمل في محالهم دون علم الحكومة حتى لا يدفعوا عنهم تأمينات للدولة.. ثم في النهاية يطردونهم من العمل..!!.

أصحاب الأندية والملاهي الليلية يرحبون بتشغيل اللاجئين من أبناء الدول المختلفة في مجالهم.. وفي النهاية يهددونهم باستدعاء

رجال الشرطة لهم لطردهم خارج الولايات المتحدة..!.

عساكر البوليس يدخلون المحال التجارية بحجة الشراء.. في حين أنهم الواقع يأخذون كل ما يلزمهم مجاناً دون دفع أي سنت...!.

اللصوص يهاجمون البنوك والمتاجر في الليل وفي وضح النهار ويسرقون الأموال من الخزائن دون أن يستطيع أي فرد التعرض لهم..!!

عصابات «المافيا» تهدد أصحاب الملايين وتسلب أموالهم وتجبر بعض المسؤولين على عدم التحرك ضدهم وإلا كان مصيرهم القتل.. والاغتيال.. والفناء..

من السهل أن تسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية - بقصد الزيارة وتعيش في أي ولاية تريدها عدة أعوام وتشتغل في أي محل يقبل أن تعمل فيه سمع وبصر رجال البوليس.. ولكن بعيداً عن قبضة أيديهم. غير أن الثمن سيكون غالباً في النهاية...!.

تستطيع وأنت تعيش في أمريكا أن تكسب ملايين الدولارات وتضعها في البنوك على شرط أن تقدم أي شهادة ولو مزوّرة بأنك قد ورثت هذا المبلغ اواكتسبه عن طريق التجارة لتقديمها إلى الضرائب..!.

ومن السهل جداً أن تتزوج لتضمن لك زوجتك الإقامة الدائمة في أمريكا.. ولكن من الصعب جداً أن تفترق عنها لأن الثمن سيكون فادحاً..!.

كل هذا يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية، والمهاجرون المصريون يقفون أمام العمارات الضخمة.. والبنوك.. والمؤسسات.. والشركات لحراسة المباني..!.

إن اللصوص في أمريكا لا يصعب عليهم شيء.. من الممكن أن يدخل عليك «اللصوص» ويسرقوا أموالك ثم يضعوك بعد ذلك في «ثلاجة» ويغلقوا بابها عليك حتى يأمنوا الهرب بسهولة..

وهذا ما فعله اللصوص معي..!

وبعد: هذه هي الحياة في أمريكا إذا أردت أن تعيش هناك!.

إنني أقدم إليك في هذا الكتاب تجاربي ومشاهداتي التي عشتها في الولايات المتحدة الأمريكية خلال السنوات التي أقمتها هناك بعد هربي من مصر بعد هزيمة حرب عام 1967 ودخولي مدينة نيويورك بتأشيرة لمدة شهرين فقط.. امتدت إلى سنوات دون علم رجال المباحث الفيدرالية «المباحث الجنائية»... ودون علم مباحث إدارة الجوازات والجنسية في نيويورك...

عظمة على عظمة.. !

عندما تهبط بك الطائرة أرض «كنيدي» في مدينة نيويورك سوف تأخذك الدهشة وتقف مذهولاً وتشعر أنك قد هبطت في بلد الخيال والجمال والعظمة... أو في مدينة العجائب والغرائب والخرافات.. !

إن مطار كنيدي يقع على أرض مساحتها تعادل تقريباً مساحة مدينة مصر الجديدة.. !

نعم: إن المطار شيء مذهل إذا عرفت أن كل شركة طيران في العالم لها مطار خاص ومستقل لطائراتها تهبط فيه.. ولكل مطار من

هذه المطارات دائرة جمركية وفي كل المرافق والإدارات والأجهزة الموجودة في أي مطار دولي وعالمي في أي بلد من بلاد العالم.. !.

إن كل هذه المطارات متلاصقة وتتجمع كلها في مكان واحد يطلقون عليه اسم «مطار كنيدي الدولي».

إنك عندما تخرج من أرض المطار إلى الفناء الخارجي سوف تندهش مرة أخرى وتقف مبهوراً.. هناك شيء عجيب سوف يلفت نظرك ويشد انتباهك ويجعلك مذهولاً..

هذا الشيء هو: شبكة طرق المواصلات الرهيبة التي تحيط بالمطار.. والمؤدية إليه والمتفرعة منه..!.

آلاف من السيارات تمشي في هذه الطرق وهي تكاد تشق الأرض من السرعة في طريقها إلى المطار.. أو خارجة منه إلى المدينة..

إن الشيء الذي سوف يدهشك أيضاً هو الآلاف من اللافتات الضخمة التي ترتفع في عرض الطرقات كل عدة أمتار ترشد كل سائق سيارة إلى الطريق الذي يريد أن يتجه إليه.. أو إلى مطار الشركة التي سوف يسافر على طائرتها..!.

وعندما تخرج بعيداً عن دائرة المطار سوف يلفت نظرك طوال الطريق وجود آلاف من السيارات المختلفة الأشكال والأحجام تقف كلها على جانب من هذه الطرقات بجوار العمارات السكنية بالمدينة..

إذا كنت مهاجراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية - وهذه بالطبع أول مرة تشاهد فيها إحدى المدن الأمريكية - فسوف تحلم وأنت في الطريق بأنك ستعيش حياة الرفاهية والنعيم مثل هؤلاء الناس الذين تراهم يقودون سياراتهم الفاخرة في الطريق..

وسوف يسرح بك الخيال أيضاً إلى أنك ستكون مليونيراً تمتلك ملايين الدولارات.. أو المباني والعقارات.. أو على الأقل سوف تعيش منذ أول يوم في أمريكا سعيداً مرفهاً لا يعرف الشقاء أو التعب طريقه إليك..

هذه الأحلام وغيرها سوف تراودك قطعا وأنت في الطريق إلى «الفندق الصغير» أو المنزل الذي ستعيش فيه مع أحد أقاربك.. أو بيت من بيوت الشباب..

ولكن: كل هذه الأحلام والآمال.. والتمنيات سوف تتبخر وتذهب أدراج الرياح عندما تفيق على الواقع.. وتصحو على الحقيقة الصعبة أو المرة بعد أيام قليلة جداً من وصولك إلى المدينة التي نزلت فيها..

سوف تكتشف بعد يومين أو أكثر أن الدولارات التي كنت تحملها معك قد تبخرت أو قاربت على الانتهاء.. وأنت أيضاً اقتربت من الإفلاس وليس أمامك إلا أن تعيش على الواقع الذي حضرت من أجله وهو:

قبل أن أدخل معك في كيفية البحث عن عمل أو ما في الوسيلة التي عن طريقها تجد الطريق إلى عمل أحب أن أقول لك شيئاً يجب أن تعرفه جيداً.. أو من الواجب أن أصارحك به.. ولا أبالغ إذا قلت لك إنه الواقع الذي سوف يحدث ولا بد أن تتوقعه وهو:

إن أخاك.. أو قريبك العزيز الذي سوف تنزل في ضيافته لن يتحملك «ضيفاً عليه» أكثر من أيام معدودة وبعدها عليك أن ترحل - أو تبحث لك عن سكن آخر.. وإلا فإنه سوف يصارحك بذلك.. أو يقول لك: إنه من الواجب أن تدفع له نصف الإيجار.. وغيره من المصروفات الأخرى.

وإذا كان كريماً.. أو خجولاً.. أو لديه بقية من صداقة أو قرابة فإنك سوف تراه على غير طبيعته الأولى التي استقبلك بها يوم وصولك.. يعني مثلاً: يكشر في وجهك.. أو يكون عصبياً في تصرفاته.. أو يجلس صامتاً لا يتكلم.. أو لا يرد على أسئلتك أو حديثك.. أو يقول لك عند سؤالك عن شيء: (مش عارف)..! أو يقول لك أيضاً: إنه متعب من كثرة العمل ويريد أن يستريح أو ينام.. وكل هذا من أجل أن يشعرك أنك أصبحت «ضيفاً ثقيلاً» وغير مرغوب في بقائك عنده أكثر من ذلك..

إن الواجب يقتضي أن أقول لك أيضاً إنه معذور.. لأن الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية تختلف تماماً عن الحياة في مصر.. فالوقت هناك ثمين.. وكل دقيقة تمر لها ثمنها ولها قيمتها والعمل هناك له قدسيته.. ومن لا يعمل.. لا يعيش..!.

البحث عن عمل..

العمل في أي مدينة بأي ولاية أمريكية متوفر.. ولا تصدق من يقول لك إن فرص العمل هناك قليلة أو معدومة.. أو غير متوفرة.. إن العمل يتوقف عليك أنت. وعلى مدى استعدادك لتقبل نوعية العمل الذي تجده. أو يعرض عليك.. وفي مقدمة كل ذلك يتوقف أيضاً على مدى استعدادك وإجادتك للغة الإنجليزية.

وتسألني ما هي الأعمال التي يمكن لأي «مهاجر» أن يشغلها.. أو يلتحق بها.. وهل هي تستلزم مواصفات خاصة يجب توافرها في أي شخص..

وأجيبك فأقول: إن الأعمال هناك متوفرة جداً.. وهي ترجع إلى مدى استعدادك أنت للإقبال عليها.. أو تقبلها..

وأجيبك: إن نسبة كبيرة جداً من المهاجرين الذين يذهبون إلى الولايات المتحدة الأمريكية –قد تبلغ مثلاً حوالي 90 في المائة منهم– لا بد لهم أن يعملوا في بداية حياتهم هناك في أعمال كثيرة ومختلفة لا تحتاج إلى خبرة كبيرة.. أو إلى خبرة أمريكية.. وهذا هو الأهم أو المهم.

عندما تذهب إلى أي مكتب عمل في أي ولاية أو مدينة أمريكية للبحث عن عمل فإن أو سؤال سوف يقابلك هو: هل لديك خبرة أمريكية في هذا العمل...؟

وقد يكون العمل الذي تتقدم إليه هو وظيفة «جرسون «مثلاً... أو Guard أي خفير حراسة... وتتعجب وتستغرب للسؤال وتسأل نفسك:

هل مثل هذه الأعمال الصغيرة أو التافهة تحتاج إلى «خبرة»... وخبرة أمريكية بالذات...؟

والجواب هو: نعم.... أن أي عمل في الولايات المتحدة الأمريكية مهما صغر شأنه يحتاج إلى خبرة.... فصاحب أي عمل ليس لديه الوقت.. بل ليس مستعداً أبداً لتقبل أي إنسان وتعيينه في أي عمل لديه ما لم يكون متمرساً ومتفهماً تماماً لهذا العمل.. ولهذا فإن كل المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية.. من جميع جنسيات العالم – يقبلون على الأعمال الصغيرة التي لا تحتاج إلى خبرة كبيرة...

ومن جهة أخرى فإن مثل هذه الأعمال الصغيرة لا تحتاج أيضاً إلى لغة..بمعنى أنها لا تحتاج من شاغلها إلى معرفة أو إجادة اللغة الإنجليزية.

وهذه الأعمال كما سبق أن ذكرت لك هي:

خفير حراسة في أحد البنوك.. أو الشركات.. أو المؤسسات... أو الأماكن الخالية مثلاً:

ثم وظيفة الأطباق في المطاعم...

أو تنظيف أرضية المكاتب في البنوك والمؤسسات.. وهذا العمل بالذات لا يقبل عليه إلا فئة أو طبقة معينة من المهاجرين وهم غالباً من أبناء «بورتوريكو» وهي مستعمرة إسبانية في إحدى بلاد أمريكا اللاتينية...

خفير حراسة... أولاً

والآن أقول لك كيف تبحث عن عمل؟ أو ما هي الوسيلة أو الطريقة التي تتبعها ليكون لك عمل.

إذا كنت تعرف اللغة الإنجليزية جيداً..أو قليلاً فعليك أن تشتري إحدى الصحف الأمريكية الصباحية.. وخاصة يومي «السبت والأحد» اللذين ينتشر فيها الإعلانات من الوظائف الخالية.. ومكاتب العمل المتخصصة التي عليك أن تذهب إليها و على العنوان المذكور في الإعلان..

وعندما تذهب إلى مكتب العمل – وهو تابع لإحدى الشركات وليس حكومياً فإن الموظف المختص في هذا المكتب سوف يسألك وهو يقدم إليك «إستمارة» التعيين لملأ الخانات الموجودة بها والتي تتعلق بكل شيء في حياتك... هل لديك خبرة سابقة في هذا العمل..؟

وسوف تجيبه كما قال لك أصدقاؤك.. أو يجب أن تجيبه بكلمة نعم...

بعد أن تملأ «الإستمارة» التي سلمها لك سوف يطلب منك دخول غرفة من الغرف الموجودة بالمكتب ويعهد بك إلى مووظف موجود بداخلها وهو الذي سيتولى تسليمك «البدلة» المناسبة لجسمك.. وهذه البدلة تشبه إلى حد كبير بدلة عسكري البوليس الأمريكي مع اختلاف بسيط، وهو أن هذه البدلة موجود على صدرها، وعلى الذراعين قطعة قماش مكتوب عليها كلمة Guard يعني خفير...!

ومع البدلة سوف تتسلم أيضاً «كاب» لتضعه على رأسك.. وعصا غليظة تمسكها في يدك. أو لتضعها في مكانها المخصص لها في جانب من البنطلون..!

بعد أن تنتهي من عملية «مقاس البدلة» سوف يسلمك موظف المكتب ورقة وعليها عنوان العمل أو الشركة.. أو المؤسسة.. أو البنك.. الذي سوف تقوم بالحراسة فيه..

وبالمناسبة أقول لك: إن مكاتب العمل أو تشغيل الموظفين في الولايات المتحدة الأمريكية «متخصصة» بمعنى أن هناك مكاتب خاصة بالبنوك..وأخرى للملاهي.. وثالثة لمحطات الكهرباء.. ورابعة للمساكن.. وخاصة لمحطات البنزين..وهكذا....

المهم: أنه بعد خروجك من مكتب العمل – حاملاً في يدك شنطة ورق فيها البدلة والعصا الزي الرسمي لوظيفتك الجديدة – سوف تذهب إلى بيتك لتسترح وقد هدأت نفسك لأنك عثرت على عمل.. وفي اليوم التالي عليك أن تذهب إلى عملك الجديد قبل الموعد

بساعة أو أكثرلتسلم نفسك إلى الموظف المسئول هناك حيث يقوم بكتابة اسمك في دفتر الحضور ثم يرشدك بعد ذلك إلى طريقة العمل الجديد وكيف تمارسه...ثم يطوف معك في بعض الأماكن التابعة لمقر عملك داخل المبنى الذي ستقوم بحراسته ليشير إليك إلى «ساعات الوقت» الذي يجب أن تمر عليها «كل ساعة» لتضع في كل منها مفتاحاً سوف تحمله معك.. تديره لتسجل الوقت والغرض من ذلك هو إثبات وجودك ويقظتك وإستمرار حركتك ودوراتك داخل المبنى... يعني أنك رجل يقظ.. وإذا حدث ولم تسجل الوقت في أي ساعة من هذه الساعات فإنك أولاً سوف تحاسب وتسأل عن أسباب ذلك... ثم إذا بقيت في العمل فإن الوقت الذي لم تسجل فيه وجودك في الساعة سوف يخصم من أجرك.. أما إذا تبين أنك إنسان مهمل و مقصر في العمل فإنك سوف تفصل.

المرتب كل أسبوع

بقي أن تعرف ما هو الأجر الذي يتقاضاه «خفير الحراسة»..؟ المرتبات في الولايات المتحدة الأمريكية تصرف كل أسبوع... أو أسبوعين وليس كل شهر كما هو الحال في مصر وغيرها من الدول الأخرى.

إن أقل مرتب يتقاضاه أي عامل في أمريكا هو 60 ستون دولاراً في الأسبوع... أما مرتب أو أجر الحارس فهو لا يقل عن(80) ثمانين دولاراً في الأسبوع.. وهناك «حراس» يتقاضون أكثر من هذا، وذلك يرجع إلى طبيعة أو إختلاف وظيفة الحارس أو المؤسسة أو الشركة أو البنك الذي سيتولى الحراسة فيه.

المهم: لا يغرك مبلغ الثمانين دولاراً التي سوف تتقاضاه في الأسبوع، يعني 320 دولاراً كل شهر.. إن هذا المبلغ «لن» يكفيك أبداً. ولن يغطي نفقاتك أو مصروفاتك.. فالحياة في الولايات المتحدة الأمريكية مرتفعة جداً سواء من ناحية السكن.. أو الطعام.. أو الملبس وغير ذلك من المصروفات الأخرى.. ويكفي أن أقول لك إن أجر المسكن «فقط» سوف يبتلع جزءاً كبيراً من مرتبك كل شهر.

وسوف أتحدث في مكان آخر من هذا الكتاب عن مستوى الحياة والمعيشة في الولايات المتحدة...

إذن كيف تواجه حياتك المعيشية وتصرف أمورك بالمبلغ الذي سوف تقبضه من وظيفة الحارس...

الواقع يقول لك: لابد أن تشتغل «وقتاً إضافياً» إلى جانب وظيفتك الحالية التي تستمر فيها ثماني ساعات بالضبط.ولا أريد أن أقول لك أكثر من ذلك.إذا أدخلنا في الاعتبار الوقت الذي سوف تستغرقه في المواصلات: أو في خلع ملابسك العادية وارتداء ملابس الحارس.

وتسألني: هل يمكن أن تشتغل وقتاً أضافياً.. وكيف.. ؟!.

والجواب على هذا السؤال هو: أن كل مهاجر جديد في الولايات المتحدة الأمريكية لابد له أن يعمل بين 12 و 16 ساعة كل يوم!!

نعم هذا هو الواقع ولابد أن تعرف هذه الحقيقة..

أن أجر العمل عن «8» ثماني ساعات في اليوم لن يكفيك أبداً أمام نفقاتك الكثيرة ومتطلبات الحياة اليومية. إذن لابد أن تشتغل وقتاً إضافياً آخر لكي تحصل من خلاله على بعض الأموال الأخرى التي تساعدك على سد هذه النفقات أولاً.. ثم لتوفير جزء منها تدخره

لنفسك حتى يكون لك مع الأيام رأس مال أو ثورة.. أو أموال متوفرة.. ولا تنسى أنك هاجرت الى أمريكا وهدفك الأول هو الأرتفاع بمستوى معيشتك والحصول على جزء كبير من المال لاستثماره فيما بعد في إقامة مشروع تجاري.. أو تعود به الى بلدك...

وتسألني ما هو العمل الاضافي؟ فأقول لك: هو أيضاً وظيفة حارس.. أن وظيفة الحارس كما سبق أن قلت لك في بداية الكتاب هي الوظيفة التي لابد أن يشغلها كل مهاجر في بداية لأسباب التي ذكرتها من قبل.. ثم إن في بداية كل شيء الوظيفة السهلة التي لا تحتاج الى كلام أو حديث، أو بمعنى آخر هي الوظيفة تكسر حدة الخوف.. وعقدة اللسان في اللغة الإنجليزية.. ثم هي الوظيفة التي لا تحتاج الى خبرة كبيرة —وهي أي الخبرة— لابد من تقديم شهادات أمريكية من جهات عملت أو أشتغلت أو مارست أعمالاً فيها داخل الولايات المتحدة.

عندما تريد عملا إضافياً فما عليك إلا أن تذهب مرة أخرى إلى أي مكتب عمل وتطلب منه «عملاً إضافياً» ولا بد أن تكون صريحاً في طلبك فلا تخدعه أو تغشه. أو تلف وتدور في الأسئلة.لأن كل شيء هناك يتعلق بتصرفاتك في العمل المحسوب عليك.. والصراحة هناك هي أهم شيء...

إن مكتب العمل سوف يقول لك أو يبلغك عن الشركات أو المؤسسات أو البنوك أو غيرها والتي تحتاج إلى «حراس» للعمل لوقت إضافي ثماني ساعات..أو أربع ساعات..أو ساعتين مثلاً حسب الاحتياجات.. وسوف تجد نفسك تخرج من عمل إلى عمل آخر تلتزم بدقة المواعيد في كل من العملين.. أو الوظيفتين.. وتعود إلى البيت

في نهاية العمل وأنت مهدود.. أو تعبان لتأكل ثم تنام بضع ساعات قليلة لتصحو بعد ذلك لتذهب إلى عملك من جديد...!!

نعم سوف تجد نفسك متعباً في نهاية الأسبوع عندما تجد أنك مضطر إلى العمل يومي «السبت والأحد» من كل أسبوع وهما يوما العطلة أو الراحة الأسبوعية في جميع الأعمال في الولايات المتحدة الأمريكية...

ولكن:أعتقد أن هذا التعب و الإرهاق والقرف سوف يزول أو يتلاشى عندما تتسلم في نهاية الأسبوع وقبل أن تغادر عملك في طريقك إلى المنزل «شيكا» بمرتبك عن ساعات العمل التي أستغلتها طوال الأسبوع. سواء كان عن العمل الأساسي.. أو العمل الإضافي...

إن المبلغ الذي سوف تراه «مدوناً» في الشيك سيجعلك سعيداً جداً. وسيفتح شهيتك إلى العمل.. أو إلى المزيد من العمل على أمل أن يكون لديك كل أسبوع مثل هذا المبلغ الذي لم تكن تحلم به لأنه سيكون مجموعه تقريباً حوالي 150 أو 200 دولار في الأسبوع يعني تحصل على مبلغ كبير كل شهر تصرف منه جزءاً.. وتدخر منه الباقي- كما قلت لك- للزمن...!

بواب عمارة..!

و الآن نترك وظيفة «الحارس» ونذهب إلى عمل آخر وإن كان هذا العمل. أو هذه الوظيفة لا يشغلها إلا عدد قليل من المصريين أو العرب في أمريكا.. ليس لأنها كما قد يخيل إليك وظيفة ممتازة جداً

ولا يمكن لأي إنسان أن يحصل عليها إلا بعد تعب.. ومشقة.. ومرمطة وتولى وظائف أقل منها لفترة طويلة حتى تكون مؤهلاً تماماً للوظيفة الرئيسية التي تحتاج بعد كل ذلك إلى دفع رشاوى كبيرة لبعض الموظفين في مكاتب العمل حتى يوافقوا لك على تولى هذه الوظيفة والتي هي...»بواب عمارة«...!!»

نعم.. بواب عمارة. أو أي منزل في أي مدينة بالولايات المتحدة الأمريكية يعتبر «ملك زمان»... أو سلطان عصره...أو رجلا محظوظاً... أو إنساناً أهله راضون عنه كما يقول المثل..

هل تعرف لماذا..؟إن مرتب بواب العمارة في أي مدينة أمريكية لا يقل عن (200) مائتي دولار في الأسبوع... بالاضافة إلى شقة مجانية في نفس العمارة..

شأنه في ذلك شأن أي ساكنٍ.. وهذه الشقة تكون دائماً في الدور الأرضي المجاور للباب الرئيسي.. ولا تعتقد أنها شقة «أي كلام» كما قد يخيل إليك... أبداً... وهذه الشقة مزودة طبعاً بتلفون مجاناً..!!

وبالإضافة إلى كل ذلك فإن هذا البواب تحت يده عدد من المساعدين الذين يتولون مهمة جمع «مخلفات الشقق» من العمارة كل يوم... وتجميعها كلها في مكان بأسفل العمارة ليتحكم فيها «البواب»يأخذ منها ما يشاء ويعطي منها للمساعدين... أو يبيعها... أو يلقي بها أمام باب العمارة كل يوم في مكان مخصص للمخلفات في إنتظار أن تحملها سيارات البلدية...

هل تعرف ما هي هذه المخلفات...؟ لاتسخر... أو تضحك... أو تعتقد أنني أمزح أو أبالغ أو أغالي في الوصف.. لا.. إن هذه المخلفات

هي مثلاً: غرفة نوم... مراتب... غرفة صالون... بدل... قمصان... معاطف... رجالي أو حريمي... راديوهات... تليفزيونات... ساعة حائط...!!

وأرجو ألا تعتقد أن كل هذه المخلفات أشياء قديمة أو مكسرة... أو أصبحت لا تصلح في شيء... أبداً: إنك سوف تذهل عندما تقترب منها وتلمسها. أو تتفحصها وتجد أنها سليمة تماماً... أو ربما تفاجأ بها أو ببعضها جديدة...

إن الأمريكان -كما يقول بعض الناس- مجانين يحبون دائماً تغيير ما لديهم من أشياء... أو إذا شئت فقل إنه «الثراء» وحب التظاهرأمام شعوب العالم من الجنسيات الأخرى المقمين في الولايات المتحدة الأمريكية بأنهم أغنياء. وأن ما دونهم من أبناء الشعوب الأخرى فقراء... تماماً كما يفعل بعض أبناء الدول العربية عندما يحضرون إلى القاهرة ويذهبون إلى ملاهي شارع الهرم ويبعثرون أموالهم في عملية «النقوط» على المطربات أو الراقصات.

نيويورك 80
يوسف ادريس (1980)

يوسف إدريس. نيويورك 80. القاهرة: مكتبة مصر، 1980؟.

يوسف أدريس 1927 - 1991 أشهر كاتب مسرحي في مصر، وتصور مجموعاته العديدة من القصص القصيرة والمسرحيات محنة الفقراء والضغوط الاجتماعية و الصراع بين الفرد والمجتمع.

ومن بين أفضل أعماله أرخص ليالي 1954 و قاع المدينة 1957 والفرافير 1964، والتي تمت ترجمتها للعديد من اللغات الأجنبية بما فيها الإنجليزية والفرنسية والروسية و نيويورك 80 هي عبارة عن لقاء خيالي مع «عاهرة» أمريكية، والقصة مبنية على رحلة فعلية قام بها للولايات المتحدة في أوائل الثمانينات و نيويورك 80 وصف مهم للمواقف العربية من أمريكا سطره أحد أشهر الكتاب العرب.

هو: من فضلك يا مدام... بالمناسبة... أهذه هي الطريقة الصحيحة في الحديث إلى السيدات. أم يجب أن أقول يا «مام»؟

(نظرة مفاجئة منها، ثم دهشة، ثم امتعاض قليل).

هي: ولماذا لا؟.. فليكن.. قلها سيدتي إن شئت أو «مام» إن شئت.. لم لا؟. هذه طريقة شائعة جداً هنا.

وهو: سيدتي... من الواضح أنك... أنك...

هي: أجل.. أجل.. لأختصر وقتي ووقتك، أنا (call girl) أتعرف معنى هذا؟!.. لأختصر وقتي أكثر.. أنا ممن يسمونهم «المومسات».

رغم أن الإجابة لم تكن مفاجأة له... إلا أن الطريقة كانت منقضة سريعة.. وعقله يعمل بسرعة البرق.. يردد السؤال أو الإجابة عدة مرات لا ليتأكد بل ليستوعب.. بعد ما استوعب وأنب نفسه على أنه هو الذي خجل.. رفع رأسه وواجهها.. كان وجهها يصنع زاوية 45 أفقياً ورأسياً... أما عيناه فقد كانتا في محجريهما هذا صحيح ولكن زاويتهما كانت في وضع المسقط الرأسي حيث الحدقة إلى أعلى، ولكنه كان كمن أصبح يرى ببياض عينيه.

هو: (مونولوج داخلي) مومس؟!.. لماذا يسمى كل شيء هنا باسمه تماماً وعلى حقيقته؟ ألا يخجلون؟.. على أية حال نحن أكثر أدباً، سموه نفاقاً أو ادعاء ولكنه أرحم من الحقيقة الصارخة، والأسماء التي بالضبط على مسماها. مومس! الكلمة بشعة بأية لغة تقال حتى لو كانت الفرنسية ومومس سارتر الفاضلة، مومس. وابل من (التابوهات) والتابلوهات والمناظر يتساقط متوحشاً كمطر نيويورك.

ولكن هناك حق.

والحق يجب أن يقال.

سيدته تلك التي خاطبها لا تمت إلى البغي شكلاً أو موضوعاً بأية صلة، ترتدي منظاراً غير شمسي (نظارة نظر) على آخر صيحة، وهو يعبد مرتديات النظارات. عيون مرتدياتها في العادة تتضح وتدق وتفصح عن مكنونها من أخمص القدم إلى أدق شعيرات النوازع التي غالباً ما تتعلق بنيتها نحو الرجل.

مومس!.

جديد في الكار حتماً، يبدو وكأنها لم تبدأ احترافها إلا منذ الأمس فقط.. ولكن المحدد والمؤكد أن هذه فتاة داخلها مغناطيس قوي غير محترف يشدها إلى جنس الرجل، حتى قبل أن يشد الرجل إليها.

هو: (مونولوج خارجي) سيدتي.. أو ما تنطقونه بالأمريكية «مام»؟ أريد أن أقول لك شيئاً واضحاً قوياً ومنذ الآن. أنا جالس هنا قبلك. وقد لاحظت أنك حين جئت فتشت المكان بناظريك ورغم خلو معظم المقاعد اخترت الكنبة التي أجلس على طرف منها لتجلسي على الطرف الآخر.. ثم لاحظت ثلاثة رجال على التوالي تركوا جلساتهم الانفرادية على البار وحاولوا التودد إليك. عن عمد كنت ألاحظك، بل بلغ من ملاحظتي أني رثيت لك وحمدت الله أنه لم يخلقني أنثى، ولم أختر من أنوثتي أن أكون نديمة رجال فقد كان الرجل الأخير سميناً، مجعلصاً، لا يصلح إلا للضرب على القفا، وقد لاحظت أيضاً أنه يغريك ويذكر اسم الشركة ذات السمعة العالمية الرهيبة التي يعمل بها.

هي: (مقاطعة) وكانت له رائحة...

هو: شيء مؤسف ومقزز. ولكنك حرة، وأنت اخترت أن يختارك الرجال أو يفرضوا عليك اختيارهم. وأنت أيضاً حرة، ولكن حريتك لا بد أن تتوقف هنا حيث أقول لك. إني أيضاً لاحظت أنك رفضت الرجال وكان أغلبهم منتفخي المحافظ والأوداج لأنك وضعت عينك عليّ. بل اختلست أكثير من نظرة لي أو ناحيتي. وأنا أحب أن أكون صريحاً معك إلى آخر حدود الصراحة. أنا أحتقر تماماً نوعك.. ولا أستطيع أن أتصور أن إنسانة تبيع جسدها مهما بلغت حاجتها إلى النقود، وأنت

لا يبدو أنك تتضورين جوعاً، بالعكس في أصبعك خاتم من البلاتين لا يقل ثمنه عن الألف دولار. نوعك أشمئز منه، أحتقره، أتقيؤه وأنا أنظر إليه. وبصراحة أكثر أنا لا أنتظر أحداً، لا صديقاً ولا صديقة، ولكني متعب تماماً وجلستي على طرف الكنبة مريحة وغير مستعد أبداً لتغييرها.

(عجيب أمرها.. تسمع.. تستوعب.. لا تغضب، وكأن الكلام تماماً غير موجه إليها.. خذي إذن).

هو: (مواصلاً) أحتقر نوعك إلى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره عقل كعقلك لا ينفعل حتى بالشتائم. وبلا لف أو دوران، لقد رفضت المتقدمين السابقين لك لأنك - لا أعرف لماذا؟ - واضعة عينك علي. وبكل وضوح أقول لك إني مستعد أن أصحب غوريللا ولا أصحبك أو حتى أكلمك فالمسألة عندي مسألة مبدأ، وأنت وأمثالك أعتبرهن أعداء. لو كنت مجرماً بالسليقة لقتلتهن. لست زبونك إذن ولن أكون، فإما أن تغادري المكان، وإما ابحثي لك عن زبون، فأنا يضايقني أن أكون السبب في خديعة حتى ولو كانت لمخلوقة مثلك.

استدارت ناحيته تماماً.. بشدة.. المحترفات عنده كائنات ملطخات الوجوه بالماكياج المبالغ فيه، والشعر لا بد باروكة أو مصفف بطريقة تلفت النظر، هكذا كان يراهن ومن على بعد كيلومتر يتعرف على سحناتهن في القاهرة أو في أي عاصمة دنيوية أخرى. هذه الجالسة بجواره لا تضع إلا القليل جداً من الماكياج. وجهها طبيعي تماماً أو يكاد. منظارها في استدارة أنثوية صارخة ولكنها غير مقصودة. لو صادفتها في مكان آخر لحسبتها نائبة رئيس العلاقات العامة في هيئة

الأمم المتحدة (نائبة وليست رئيسة. فهي أبداً لا يمكن أن تكون إلا بين الخامسة والعشرين والثلاثين). لا ابتسامة دعوة صريحة لزبون. لا اهتمام صارخ بما يفعل أو يقول أنفة وكبرياء دون افتعال. محترمة وكأنها تقدس عملها المحترم.

بشبح ابتسامة أرجوانية تتواءم تواؤماً أنيقاً مع (روجها) غير اللامع. تقول:

- هي: أفهم من هذا أنك تريدني أن أغادر مكاني؟
- هو: أبداً أنا لم أقل هذا.
- هي: إذن لماذا لا تغادر أنت كنبتي؟
- هو: هذه ليست لك وليست لي، إنها ملك الكافتيريا البار، وليس في نيتي أن أغير أبداً مقعدي.
- هي: المسألة إذن أنك لا تحب البغايا.
- هو: لا هن ولا أشباههن ولا حتى التي تقبل الحب لقاء عشاء أو هدية. إنه لشيء بغيض وحتى لا يمت إلى الحيوانية نفسها.

أدرك أنها تستعمل طرف لسانها الناعم. لا. لا يمكن أن تكون قد بدأت الاحتراف من أمس. إنها أستاذة احتراف. الجملة التالية ستسحب الإجابة من لسانه مهما قاوم وعصلج. ماذا يفعل؟ هذه أول مرة في حياته يجلس فيها كتفاً في كتف إلى محترفة، بله يبادلها الحديث. في إقامته في عاصمته وأسفاره تعرض للكثيرات، للهاويات بهدايا وللمحترفات بنقود ولكنهن كن دائماً خجولات، حساسات، ما أن يشيح بوجهه، أو تبدو عليه سيماء الامتعاض حتى ينصرفن عنه، إما بالنظر إلى الجهة الأخرى، أو البحث بقرون الاستشعار الخفية عن

زبون آخر، أو في أحيان بمغادرة الجلسة أو المكان، هذه نوع جديد. إما أنها واثقة من نفسها ولا ثقة «نيرون»، وإما أنه النوع الذي لا يخجل ولكنه يخفف وطء التحايل. أو ربما لديها وقت تريد إزجاءه.. أو.. وهذا هو الاحتمال الذي يرضى الغرور حقيقة، فضلته أو تريد تفضيله. لا تداعب غرورك (أنت ولست هي) يا ولد.

- هي: حقيقة لماذا لا تحب المحترفات؟!
- هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي. لا يشترى بمقابل.

ضحكة طويلة.. فورية جداً.. لا تشبه أبداً حتى ضحكات نساء نادي الجزيرة.. أكثر تحفظاً بكثير.. على الأقل نابعة من القلب. يعقبها مباشرة، نفس جملته السابقة:

- هو: لأني أومن أن الحب.. حتى الجسدي.. لا يشترى بمقابل.

ضحكة أخرى.. كمية السخرية فيها أوضح، وموضوع تحتها خط من رموش عينيها وكأنها تضحك على عبيط.. أو على الأقل كلام عبيط.

- هو: أفندم. (بالعربي)؟
- هي: نعم.. ماذا تقول؟
- هو: أفندم؟
- هي: أية لغة هذه؟
- هو: لغة.
- هي: جريكي؟
- هو: لا.
- هي: بولندي؟

- هو: لا.

- هي: من أي بلد أنت؟

(لا أريد أن أنساق.. طرف لسانها يتندى وكأنما بسائل معطر منزلق.. خشونة لسانه بدأ ريقها يزداد تمهيداً لما هو أخطر وأفدح.. أن يجف تماماً. لا يمكن أن يحدث هذا.. تلك امرأة تبيع أعز ما تملك المرأة بنقود.. تعامل جسدها على أنه كومة بطاطس. أو حزمة فجل. الاحتقار يتصاعد من جوفه ليملأ حلقه.. حتى رائحتها «برفانها» ورائحته استحالتا إلى رائحة كرائحة سوق الخضار واللحمة في باريس «معدة باريس»، بل تهدد بأن تتحول إلى رائحة كرائحة رصيف الجلود على امتداد الطريق الخلفي لميناء الإسكندرية).

- هو: أفندم؟

- هي: من أي بلد أنت؟

(جاوبها يا خجول بغلظة لكي تجلو).

- هو: من مكان ما من العالم.

- هي: وماذا تعمل؟

- هو: أي عمل.

- هي: ماذا تعني أي عمل؟ كل إنسان لا بد له من عمل. ما عملك أنت؟

- هو: عمل من الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الأنيقون الحليقون المكومون أمامك على مناضد الكافتيريا البار.

- هي: بزنس مان؟

- هو: مان من غير بزنس.

- هي: تحاول أن تبدو غامضاً لماذا؟!

- هو: لأني لا أأتمنك.

- هي: حتى على نوع عملك؟

- هو: حتى على نوع عملي.

واجهته تماماً.. يا ألطاف الله! أجمل أنثى. ليس في الكافتيريا البار فقط ولكن منذ وقت طويل لم يلمح (بله أن يتحدث ويجاور ويحاور ويترازل على فتاة بهذا الجمال)، لا ليست عيوناً خضراء وشعراً ذهبياً وفما كفم برجيت باردو.. لونها قمحي فاتح أحمر.. ملامحها.. صاغها عقل حسَاس قاذف لاقط. ذلك الجمال الذي صاغه الله بحلاوة، وصاغته صاحبته وشكلت ملامحه بأحد ما يكون الذكاء بحيث مغنطته. تراه فتنجذب عيناك ولا تريم. فتاة كان تماماً لا بد يحبها، بل من أجلها يترك أدق مهامه، فمن أجلها وأجل أمثالها يستضاع العمل ويضيع الرجل.

ولكنها تبيع جسدها. هذه التحفة معروضة للبيع.

فجأة ينبثق من داخله حب استطلاع ذئبي تاجر، كالسيدات المصريات المتجولات في أكسفورد استريت يحببن في التو أن يعرفن كم الثمن، وآخر ما يفكرن فيه الشراء.

- هو: كم ثمنك؟!

- هي: لمرة أو لساعة أو لليلة أو لشهر؟

- هو: يا نهار أبوك أسود!

- هي: أنت تتكلم الإنجليزية بطلاقة، فلماذا هذه اللغة الغريبة؟ أأنت خائف أن تواجهني أيها.. الـ.. رجل الذي لا يحتمل فكرة أن تعرض

عليه سيدة نفسها بمنتهى الصراحة والمواجهة والوضوح.

- هو: كنت أسبك.

(بمنتهى بذل الجهد قالها).

- هي: (بمنتهى البساطة والتفتح): أي نوعن من السباب. لدينا في نيويورك أشهر أنواع السباب. (بول شيت) - أي - تبويلة الثور، إلى كافة أنواع الإفرازات والفتحات والنتوءات.

- هو: (مكملاً): وأجساد الأمهات والآباء والأخوات.

- هي: لا أفهمك.

- هو: (مهاجماً): وهل تبويلة الثور مفهومة.. كل الشتائم أصلها غير مفهوم.. وحبذاً لو لم تكن مفهومة لأنها حينئذٍ تصبح أقذع أنواع الشتائم.

- هي: وهل كنت تشتمني؟

- هو: كنت أندهش شاتماً.

وقرر أن يصمت، مهما حاولت لن يتكلم، استدار إلى الكافتيريا البار. معظم النساء الحاضرات لا تعرف إن كن محترفات أو غير محترفات. (لم يعد ثمة فارق على الأقل في هذا المكان الغاص).

احتقر النساء الحاضرات والغائبات والجميلات والقبيحات.

كل منهن استعار منها (أو أعارها هو) قناعاً منها، فقد كان من الواضح أنها تملك سبعين قناعاً.

(نظرت ناحيته. أطالت النظر. الابتسامة تحولت إلى ابتسامة (شغل) أو (شبه شغل).

- هي: كنت تسأل عن ثمني؟

احتار. يجيب ويفتح باب حديث واربه تمهيداً لإغلاقه؟! شيطان داخلي صغير جداً من حب الاستطلاع ينقر كتكوتياً قشرة إرادته التي لا تزال رقيقة كقشرة بيضة نيئة).

(صمت).

(أجابت بابتسامة أدركت بذكائها أنها حملتها أكثر مما ينبغي الموقف من (بيزنس). رغم النور الخافت والمخفت والمصوب لمح في عينيها شيئاً دقيقاً جداً. واهناً جداً ولكنه قطعاً وبالتأكيد يمت إليه).

رئيس الجرسونات.. بدلة سوداء أنيقة خليقة بسير مايلز لامبسون آخر مندوب سام لبريطانيا في مصر، ولكنه أكثر منه وسامة ونحافة واستقامة. وجهه صخرى وكأنه كبير القضاة في محكمة نقض. جاد. أقبل عليها. ظنه على طريقة زملائه في عواصمنا جاء يطردها أو يستدعيها، فقد لمح أجمل شعر فضى ـ أجمل من شعر عمر الشريف ـ يهمس له من مقعده العالي في زاوية البار البعيدة. كان قفاه وشعره الخلفي المفضض المفلفل هو الذي يواجهه إذ بعد همسته (للميتر دي بلاس) استدار مواجهاً رجلاً سميناً بيضاوياً أسمر يضع فوق رأسه غطاء أسيوياً.

جاء الكونت جرسون، بوجهه الحاد الدؤوب. انحنى على أذنها. بضع كلمات. استمعت. ابتسمت. هزت رأسها رافضة، ببطء، ونظرات موجهة إلى مقعد الداعي البعيد ومؤدبة ومبتسمة رفضت.

(من الواضح أن اختيارها تم، وأنها استقرت عليه ـ نقبك على شونه ـ يا سيدتي المومس المحترمة).

نظرت ناحيته.. بلا ابتسام.

- هي: كنت تسأل عن ثمني؟

(كسر الكتكوت المستطلع قشر البيضة وأطل برأسه إطلالة مرعوبة، إطلالة أول مرة تتفتح عليها عين كتكوت ما رأى العالم ولا رأى شيئاً أبداً وفجأة عليه أن يسأل ويعرف ثمن البغي الجالسة في بار الكافتيريا النيويوركية أكثر احتراماً واحتشاماً من -على الأقل- جاكلين أوناسيس، بل وأكثر جاذبية وجمالاً. من ذلك النوع الذي يتحول فيه كتكوته المدهوش إلى ذئب كازانوفي جيجولي مستعد لكسر القشرة الأرضية كلها، والدخول في الحال إلى منطقة فقدان الوزن والجاذبية الأرضية والشمسية والمجرية حتى).

- هو: نعم.. كم ثمنك؟

- هي: للمرة مائة دولار.. لليلة ثلاثمائة.

- هو: (مواصلاً وكأنه عادل إمام أو فؤاد المهندس، فالريحاني رحمه الله كانت ستفر من عينه دموع المسكنة). وثمنك لشهر بأكمله؟

- هي: إذا أعجبتك ثلاثة آلاف (السعر هنا مخفض لأنه كما ترى بمعدل مائة دولار في الليلة الكاملة الواحدة).

- هو: وإذا لم تعجبني؟

- هي: أعتقد أني أتحدث إلى رجل ذكي.. كيف لا أعجبك لليلة وتريد السؤال عن ثمن شهر؟

(نبتت نقطة عرق باردة واحدة في أخدود رقبته من الخلف وكأن شعر قفاه أمطرها، رذة صيف).

(إنه أمام امرأة ذكية جداً.. هذا ليس حوار بغايا. أول مرة

رآهن كان طالباً في الجامعة، وكان زميله في الشقة يغواهن مثل أبيه، بل أحياناً كان الأب والابن يشتركان معاً. واشتهر هو بحجرته واشتهرت كذلك شقتهم بين بغايا شارع قصر العينى والمنيرة وحتى المدبح، وكان فتيات آخر الليل، على الأقل أولئك اللاتي لم يظفرن بزبائن. قصيرات نحيفات متواضعات الملابس والهيئة معظمهن فيما كان يعتقد يعانين من أمراض سرية، بل إنه عالج واحدة منهن من الجرب، وظلت الشقة تحفل برائحة الكبريت زمناً. كن يأتين.. ثلاثاً.. أربعاً وربما خمساً ينمن في الصالة.. على البلاط.. بلا غطاء.. على الأقل هذا مأوى أحسن من الشَارع وعمود النور.. ما أن يضعن رؤوسهن على البلاط حتى يذهبن في نوم عميق.. واحدة منهن كانت تستيقظ وتوقظهن فزعة تصرخ من كابوس مزعج.. فسرته لهن في لحظة رعب أنه عمها الذي رباها واعتاد أن يضربها وينالها.. ولماذا الصراخ؟ لأني اعتدت على أن أنام مضروبة معتدى عليها، ولماذا الفزع؟ لأن النوم العادي يسبب لي الكوابيس. العادي يسبب الكوابيس؟ أجل. كابوس أن أموت، فالضرب يشعرني أني حية، والاعتداء يجعلني أهفو وأحلم وأعيش على أمل ليلة أخرى).

لك الله يا عوض، دفعه حب الاستطلاع ذات مرة لتفتيش كيس نقود واحدة منهن (فلم يكن لأيهن سوى واحدة ـ اسمها تحية ـ حقيبة يد) في الكيس خمسة قروش وتعويذة زرقاء.. وبضعة (بنسات شعر) وخطاب قديم جداً من أخيها ليس فيه سوى إهداء السلام، أما المحير فهو زجاجة صغيرة مملوءة لآخرها بصيغة يود مركزة، حسبها تستعملها للتطهير بعد مزاولة الشغل، ولكن، في الصباح كان

حب الاستطلاع أقوى، فصبغة اليود كاوية لاهبة، اعترف لها بتفتيش الكيس، وسألها عن زجاجة صبغة اليود. بلا دراما مستقاة من الأفلام، وبلا انفعال قالت:

- هذه لأشربها إذا أمسكوني.

- من؟!

- بوليس الآداب.

- ولماذا تشربينها؟ إن هي إلا بضعة أيام حبس ولا تستدعي الانتحار.

قالت:

-معظمنا لدينا زجاجات مثلها، ومن علمتني الكار علمتني احتياطياً حمل الزجاجة.

- لتنتحري؟

- وإيه يعني؟

- تموتين؟!

- إني أعيش كالكلبة، ولا يجري ورائي سوى كلاب الصادين (تقصد أفقر صائدين، أفقر من الكلاب الضالة).

- إذن لماذا لا تزالين تعيشين، ولماذا لم تشربيها إلى الآن؟

- الروح حلوة، وهذه آخر ملجأ.

- هل استعملتها؟

- لا... واحدة زميلتي عملتها.

- وأفاقت؟!

- لا تزال بالمستشفى. وعلى العموم ماذا يحدث؟ سيحدث

واحد من اثنين إذا انزنقت.. وإما أن أشربها وأموت وأستريح من لف الشوارع ونوم البلاط والكي بأعقاب السجائر جلباً للمتع الجنسية الشاذة، وإما ألا أموت ويأخذوني إلى المستشفى. آداب القسم غصب عنه يأخذني إلى المستشفى. ورغم ما يصورونه من دخول أنبوبة غسيل المعدة فهو كله أنابيب وكله سوائل وإدخال وغسيل، إنما المهم أني سأضمن أن أقضي عدة أيام بالمستشفى، أكل وشرب ونوم، ولا توجد رائحة رجال.

- ولكنك ستخرجين مرة أخرى للكلاب الصائدين.

- أي نعم ولكني أنتهز فرصة وجودي بالمستشفى وأعبىء زجاجة أخرى من صبغة اليود المركزة.

- من يعبئها لك؟

- التومرجي.

- ببلاش؟

- لا شيء ببلاش خمس دقائق مع التومرجي في مرحاض من مراحيض قصر العيني الكثيرة.

***

- هي: إنك تبدو ذكياً جداً. فراستك لم أرها في إنسان. ولكنك أحياناً تقول أشياء.. آه.. أشياء لا تتفق مع ذكائك.. آه فهمت، أنت عالم، أستاذ جامعة أنت. لا. أنت أصغر من أستاذ. مخرج مسرح.. كنت سأقول أنك ممثل. ولكني لم ألحظ أنك أديت معي لحظة واحدة

من التمثيل. من أنت بالضبط؟ ومن أي بلد؟ وماذا تعمل؟
(مصرة هي أن ينزلق).

- هو: وماذا يهمك يا سيدتي من أكون أو ماذا أعمل؟ لم أصبح بعد، ولن أصبح زبوناً ينزلق فماذا يفيدك أن تعرفي من أكون؟

- هي: لأننا نتحدث.. إننا تحدثنا الآن نصف ساعة بأكملها، ولقد عرفت أنت من أنا.. وللآن أنا لم أعرف من أنت.. وهذا.. وهذا..

- هو: قلة ذوق.

- هي: لا. اسمح لي هناك كلمة أليق.. الخوف.. أنت خائف مني إلى غضاريف مفاصلك. أشعر بمشدات ركبك الداخلية ترتجف.. ماذا يرعبك؟

- هو: صبغة اليود المركزة.

- هي: صبغة اليود المركزة؟

- هو: نعم. في حقيبة مومس مثلك.

- هي: حقيبتي ليس فيها من سوائل غير رائحة (الاستيلويدر) أحدث وأروع بارفان في العالم اليوم. شم.

(فتحت الحقيبة.. أخرجت زجاجة البارفان.. فتحتها. أمسكت يده فجأة صبت على ظهر يده نقطة. اشتعلت النار في الجلد. كاد يطلق صرخة تعبر الأطلنطي على متن كونكورد.. بدا الألم المروع واضحاً على معالمه).

- هي: شمها، إنها أعظم بارفان اكتشفته سونيا ماجدلينا.. شم.

شم رائحة تحت الإبط لسيدة لم تعتد النظافة، ورغم هذا

فالجو يحفل خارج ـ نقطة جلده ـ ببارفان تسكر رائحته وتعم جو الكافتيريا البار، وتحيل رائحة المشروبات (وفواكه البحر) والدخان المتصاعد من السجائر والسيجار إلى بخور في معبد هندي لا يدخله إلا الرهبان، ليستعينوا بما تشيعه الرائحة من قدم ضارب في أعماق الكهنوت والأسرار، القدم جنباً إلى جنب مع حداثة حملت الإنسان إلى القمر وأطلقته أثيراً في أثير، ولكن بقعة جلده يعيد شمها (مصدر هذا كله) فلا يجد سوى رائحة تحت الإبط الحامض بالعرق، وينتقل البواخ المتصاعد منه يجعد ملامح وجهه ويغلق طاقتي أنفه ويحس بالمعدة وصلت للهاة اللسان.

تنظر هي إلى ملامحه مرة، تتحسس بفمها شما رائحة المكان تضعه على ظهر يدها وتستسلم للرائحة تدغدغ وتخدر خياشيمها الفراشية، يستحيل وجهها هو الآخر إلى أثير، ثم ينذك فجأة إلى سابع أرض أثر لمحة إلى ملامحه.

– هي: إنه أغلى عطر في العالم. ألا تعرف هذا؟

– هو: أعرف.

– هي: أتعرف كم ثمنه؟

– هو: أجَل.

– هي: كم؟

خمس دقائق في مرحاض من مراحيض قصر العيني.

– هي: أنت «معقد» يا عزيزي عقدة خطيرة، أتعرف لماذا تكره تماماً أن تزاول الحب مع امرأة محترفة؟

(أن تتحدث مع شخص، حتى لو كنت تكرهه، وتمضي في الحديث فإنه يحدث رغماً عنك وعنه نوع من المعرفة، والمعرفة تقلل رغماً عنكما العداوة، أو بالأصح تدفع بها إلى مناطق عدم الانفعال المباشر. يعرف لماذا يكره المحترفات، ولا حاجة به أن يعرف المزيد).

- هو: لأني أقدس الجسم البشري وبالتالي روح الإنسان.

- هي: ماذا تعني بتقديس الجسم البشري؟ أم تقصد الجنس البشري.

- هو: (لنفسه) يا بنت الحرام وربيبة الحرام. كفى عن تدقيق المعاني فلا أنت برتراند رسل، ولا رئيس المجمع اللغوي للتعبيرات السكس جسدية. نعم لأني أقدس الجنس البشري، وبالتالي أقدس الجنس نفسه والعقل نفسه والإحساس البشري نفسه فأنا لست ثوراً، والمرأة ليست معزة أو بقرة، ولأني لست كلباً ضالاً والمرأة ليست كلبة مصابة بسعار.

- هو: (لها) أفهمت ما لم أنطقه؟

- هي: أنت نصف مثقف. رغم أني أعرف الآن عنك على الأقل ثلاثة أشياء!

أولاً: أنت كاتب.

ثانياً: أنت لا زلت طفلاً عاطفياً ونفسياً.

ثالثاً: ويبدو أن السبب الحقيقي أنك استكثرت ثمني.

- هو: تريدين أن تزاولي طريقتكم المحببة: الهجوم والاتهام لأقف أنا موقف المدافع قليل الحيلة.

- هي: لا أريد أن أثبت لك أني أنا المرأة المحترفة أفهم في الطبيعة البشرية أضعاف ما فهمت أنت بكل خبرتك ودراستك وموهبتك.

- هو: أنت المرأة المحترفة بيع جسدها.

(قالها باشمئزاز من تخيل أنها تعرض لحمها الحي في فترينة (ديب فريزر) في سوبر ماركت حديث، ولحمها ملفوف في ورق نايلون ومقطع قطعاً، الساعة بمائة دولار والليلة بثلاثمائة وهكذا).

حول العالم على دراجة نارية
عدنان حسني تللو (1982)

عدنان حسني تللو. حول العالم على دراجة نارية. دمشق: مطبعة الاتحاد، 1982.

عدنان حسني تللو رحالة سوري.

الولايات المتحدة الأمريكية
بيوت نيويورك تشبه علب السردين
حاكم مدينة توليدو ورئيس شرطتها من أصل عربي

عاملوا السياح بالحسنى فهم خير دعاية لبلادنا - مجتمع الصم والبكم في باتون روج. في 12 شباط غادرت (وندسور) في كندا متجهاً إلى (دترويت) في أمريكا قاطعاً النهر العظيم الذي يفصل بين الدولتين عن طريق النفق الذي يخترق النهر تحت المياه. لقد وصلت أمريكا وكان إلى جانبي إخواني من أبناء العروبة الذين واكبوني في سياراتهم ليطمئنوا على راحتي.. والواصل دترويت يعجب بادىء الأمر لشوارعها العريضة والتنظيم الظاهر عليها وبتلك الأبنية الضخمة التي أقيمت في

ساحة كبرى ومنها ما يبلغ السبعين طابقاً، وهذه المدينة مساحتها 250 ك.م. يقطنها ما ينوف على ثلاثة ملايين نسمة من أجناس مختلفة وهي أولى مدن العالم بإنتاج السيارات، يعمل في مصانعها مئات الألوف من العمال بأجور كبيرة أما المدارس والمكتبات والمتاحف ودور العلم المختلفة لشتى اللغات فكثيرة ومنتشرة في كل مكان وفي مقدمتها ثلاث جامعات كبرى تضم عدة آلاف من الطلبة عدا الكليات الصغيرة المتخصصة بتدريس مختلف العلوم والفنون.

البوليس:

البوليس في الولايات المتحدة أنيق الملبس حسن الهندام لطيف في معاملته، يعتبر نفسه خادماً لأبناء الشعب، ولا يعتد بالملابس الرسمية التي يرتديها ليصاب بالصلف والكبرياء بل على العكس يشعر أن مسؤوليته نحو وطنه قد تجسمت وأن عليه أن ينفذ القانون بطريقة ودية لا تدعو المواطنين إلى التذمر من المعاملات القاسية.

وللبوليس الأميركي مكانة خاصة في نفوس مواطنيه يتمتع بمحبة الجميع كما أنه يحظى بتأييد الدولة ودعمها له في تأمين رفاهيته والحرص على حياته. والبوليس مصدق في جميع ما يقوله ومؤتمن، وهو بنظر القانون لا يروي سوى الحقيقة لا يتحزب ولا يتحامل ولا يتواطأ في عمله مع أي إنسان آخر. والدولة تجزل العطاء

لرجل الأمن وإذا تعرض للخطر فحياة أولاده وعائلته مصونة تغدق عليها المكافآت وتعمل الدولة على مساعدته بشتى الطرق. ويمتطي البوليس دائماً السيارات السريعة المجهزة باللاسلكي والدراجات النارية التي تسابق الريح وأحياناً الخيول، وهو مزود بالأسلحة والقيود الحديدية بعكس البوليس الإنكليزي الذي لا يحمل سوى عصا صغيرة.

إنتاج السيارات:

إن عدد السيارات المنتجة خارج الولايات المتحدة، قد زاد لأول مرة في التاريخ عما تنتجه أمريكا لوحدها. وقد رأيت في دوترويت طرقات ـ الهاي واي ـ تسير عليها السيارات وكأنها صفت عليها صفاً لا تكاد ترى موضعاً خالياً، والسيارة داء وبيل فعندما تستحكم بالإنسان ويتعود على ركوبها لا يستطيع بعدئذ التخلي عنها، ولقد رأيت بعض العائلات تمتلك أكثر من سيارة وهي ضرورية جداً للتنقل عبر المسافات الطويلة داخل المدينة وخارجها، أما أصحاب المؤسسات التجارية الذين يشرفون على بيع السيارات فهؤلاء يملكون من وسائل الدعاية والإغراء، ما يشجع الناس على الشراء، وأكثر الصفقات تتم بالتقسيط، وإذا أردت أن تستبدل عربتك البالية بغيرها جديدة ومن الموديلات الحديثة، استطعت ذلك وبسرعة وبفرق بسيط من المال.

إحصاء مفيد:

تبين من الإحصاءات التي وضعتها الدوائر المختصة أن نسبة اقتناء السيارات لعدد السكان كما يلي: الولايات المتحدة الأمريكية سيارة لكل مواطن، كندا سيارة لكل 3 مواطنين، فرنسا سيارة لكل 5 مواطنين، إنلكترا سيارة لكل 6 مواطنين، ألمانية الغربية سيارة لكل سبع مواطنين، روسية سيارة لكل 47 مواطناً.

أما الدول العربية فالإحصاء كما يلي: لبنان سيارة لكل 19 مواطناً، ليبيا سيارة لكل 28 مواطناً، الجزائر سيارة لكل 37 مواطناً، تونس سيارة لكل 51 مواطناً، العراق سيارة لكل 92 مواطناً، الأردن سيارة لكل 111 مواطناً، سورية سيارة لكل 172 مواطناً، السودان سيارة لكل 362 مواطناً، العربية المتحدة سيارة لكل 650 مواطناً، وقد بلغ عدد السيارات المتداولة في العالم سنة 1964 حوالي 158 مليون سيارة.

الجالية العربية:

في دترويت عدة جاليات أجنبية، والجالية العربية أكبر جالية موجودة فيها إذ يبلغ عدد أفرادها تقريباً 50 ألف نسمة بينهم الأطباء والمحامون، والقضاة والتجار لهم معابد خاصة ومنتديات كبيرة مختلفة وجمعيات خيرية وصحف وطنية تنطق بلسان أبناء العروبة وفي مقدمتها صحيفتا ـ نهضة العرب، والرسالة.. الأولى شعارها، لا

نؤمن بغير الحق، ولا ننشد غير العدل، ولا نهوي غير العروبة، جريئة في مقالاتها، عظيمة في أفعالها. والثانية أسبوعية جامعة تكتب وتدافع عن قضايا العرب في كل مكان، وهناك الحرية ولسان العدل وبعض المجلات العربية التي تنشر بصدر صفحاتها أنباء العالم العربي.

بلاد العرب أوطاني:

مضى علي أيام وأنا أتنقل بين منازل إخواني العرب وكانت صورة الزعيم الوطني المرحوم فخري البارودي تطالعني في أكثر الدول التي زرتها حتى نشيده بلاد العرب أوطاني. هو النشيد الوطني للجالية العربية يتغنون به في مجالسهم ومجتمعاتهم العامة، وما من إنسان إلا وسألني عن صحة هذا الزعيم الكبير وعن أحواله ومعيشته.

وفخري البارودي. حينما زار بلاد المهجر داعياً للأوطان كسب نصراً كبيراً فوق انتصاراته بأن غرس في نفوس أبناء الجاليات حب التعلق بالوطن وأوصاهم بالاتحاد والتضامن، لقد ترك أثراً كبيراً يحمد عليه وحبذاً لو تختار حكومتنا بعثات من شباب الوطن المثقف لزيارة الجاليات وإلقاء المحاضرات التي تكشف للعرب في المهاجر عن تراث آبائهم وأجدادهم وتبين لهم حقيقة الوطن وما وصل إليه من عز وازدهار وتشجيعهم على دراسة اللغة العربية والحفاظ على التقاليد وما تعارفنا عليه من أخلاق فاضلة في مجتمعنا العربي.

اليهود في دترويت:

لقد أصبح لي في دترويت عدة أصدقاء من الأمريكيين وأصحاب النفوس الطيبة ممن يحبون أن يطلعوا على قضايا الشعوب، وعلى حقيقة أوضاعها وخاصة الشعب العربي، لأن الصحف في أمريكا معظمها مسخر لخدمة الأغراض الصهيونية ومع كل ذلك فالشعب الأمريكي متيقظ يحاول دائماً أن يعرف الحقيقة من أهلها ويحب أن يستمع لكلا الطرفين، لقد سئم هذا الشعب الجانب الصهيوني الذي يتكلم بغير انقطاع دون أن يترك مجالاً للعرب لإبداء رأيهم لهذا ما أن يسمع المواطن الأمريكي أن هناك مناقشة على التلفزيون بين العرب واليهود حتى يسارع للاستماع إلى هذه المناقشة ليستطيع إعطاء حكمه عليها أو لها.

واليهود في دترويت ينعمون بالحرية المطلقة في بث دعاياتهم المسمومة وأكاذيبهم المفضوحة ضد العرب وقد استطاع هؤلاء أن يجدوا شخصاً يدعي أنه عربي ومن سكان المنطقة المحتلة. جاؤوا به إلى هذه المدينة ليحاضر ويناقش ويجتمع بالناس على اختلاف طبقاتهم، جاؤوا به ليقول كذباً وبهتاناً أن العرب راضون عن حكم العدوان لأنهم ينعمون بالحرية والحياة الرغيدة، وأنهم لا يلقون أية معارضة في أعمالهم أو إقامة شعائرهم الدينية، وقد استطاع اليهود بمكرهم أن يصلوا بهذا الشخص إلى الجامعة ليحاضر فيها، وحين بدأ بالكلام وأخذ ينشر أكاذيبه المفضوحة تعرض له الطلاب العرب وأخذوا يقاطعونه ويمطرونه بسيل من الأسئلة المحرجة ويصرخون

في وجهه اسكت يا خائن يا كذاب يا منافق وقد تعكر جو المحاضرة وتدخل البوليس لفض النزاع وألغيّ الاجتماع، والمضحك أن الصحف اليهودية وحتى المحلية لم تذكر شيئاً عن الحادث لأنه جاء مهيناً لليهود مما يدل على سيطرة العناصر اليهودية على وسائل النشر والدعاية، وقد علمت أن بعض رجال الدين أيضاً قد باعوا ضمائرهم وكرسوا أنفسهم للدعاية الصهيونية وإسرائيل في الكنائس ودعوة الناس للتبرع بالمال من أجل نصرة الشعب اليهودي وخدمة السلام.

هذه هي وسائل اليهود في كسب عطف العالم أنهم يشترون ضمائر الحثالات بالمال ليحملوا الشعب الأمريكي على الاعتقاد بأن الحالة في فلسطين هادئة والحياة سائرة في مجراها الطبيعي والأمن مستتب وليس من ينغص على اليهود حياتهم سوى هؤلاء الأعراب المحيطين بهم.

إنهم يعرضون في التلفزيون الأمريكي أفلاماً تصور المدن اليهودية وما آلت إليه من جمال في البناء وتقدم في الصناعة وبهاء في الشوارع والحدائق وأناقة في السيارات ووسائل العيش، وفي نفس الوقت يعرضون صوراً للعرب وهم يمتطون ظهور الجمال والحمير بشكل مزر ويقولون إن العرب ما زالوا على الفطرة. إنهم يرفضون التطور ويبغون البقاء متأخرين هذه دعاية خسيسة ونحن لا نملك وسائلهم لمجابهتها ولكن ما نقوم به في بلادنا من أعمال جبارة ومشاريع كبرى لهي أعظم دعاية لنا وفيها نحطم الدعاية الصهيونية الرخيصة التي أصبحت موضع السخرية والهزؤ والإهمال.

أسئلة عن البلاد العربية:

وجدت بين سكان دوتروب من يسألني عن البلاد العربية وحالتها السياسية ونظرتنا إلى الولايات المتحدة والبلاد الأجنبية، أسئلة كثيرة أجبت عنها بصراحة، وكان إخواني العرب يترجمون أقوالي إلى الإنكليزية والذي أتمناه أن ينطلق شبان بلادي إلى الولايات المتحدة يجوبون أنحناءها ويقومون بالدعاية لبلادهم وتنوير الرأي العام الأمريكي وكل من يحاول القيام بمثل هذه الجولة سيجد العون والتأييد من جميع المنظمات التي تؤمن بحرية الفكر وحرية الشعوب، والدراجة النارية ليس لها متاعب كما يتصور البعض بل على العكس فإنها تسهل الانتقال عبر المسافات الشاسعة بأقل كلفة وأبسط طريقة كما أنها تلفت النظر وتجعل الناس يلتفون حول صاحبها مستطلعين متسائلين وهنا يجد الفرصة المناسبة لتوزيع النشرات وشرح بعض القضايا الغامضة على أفكار الشعب الأمريكي وعرض الصور والأفلام عن نهضة البلاد.

أمريكا : الجينز والسكين
محمد حسن الالفي (1989)

محمد حسن الالفي. أمريكا: الجينز والسكين. القاهرة: محمود الجداوي، 1989.

محمد حسن الالفي مراسل مصري عاش في الولايات المتحدة لمدة سنة ونصف. وزار العديد من الولايات وصادق أمريكيين من كل المهن. وتعالج بعض فصول كتابه احتفالات الهالوين والأطباق الطائرة والغرباء وزيارة لسجن والجرائم العنيفة في أمريكا وعقوبة الأعدام في أمريكا والاستنساخ والعلاقات ما بين القاهرة و واشنطن. وعلى غلاف كتابه صورة لشاب من البانك بشعر موهوكي يبرز لسانه.

يذهب الواقع ويبقى الأدب
(تقديم الكتاب بقلم الصحفي عادل حمودة):

داخل محمد حسن الألفي أديب كامن، وديع أحياناً، لا يتردد ثواني في أن يثور ويغضب ويتحول إلى بركان.

ومحمد حسن الألفي يعرف ذلك جيداً.. ويعرف كيف يروض هذا الأديب.. وكيف يهدىء من روعه أحياناً، ولكنه ـ غالباً ـ لا يقدر عليه، فيتركه يتصرف كما يشاء، ويعبر عن نفسه كما يشاء.

حاول محمد حسن الألفي أن يهرب من هذا الأديب، بالتفوق في الدراسة، ونجح في أن يصبح معيداً في كلية الإعلام، وتصور أنه قضى على هذا الدراسات الأكاديمية. لكنه فوجىء به يظهر وينمو ويضغط عليه ويطلب إليه الخروج إلى النور وبدلاً من أن تقضي الجامعة عليه قضى هو عليها.

فكان أن استسلم «الألفي» واختار منطقة تفاوض وسط بين الجامعة والأدب وهي الصحافة، وتصور أنها قادرة على تهدئة الأديب الذي في أعماقه وإقناعه بالسكوت... وبالفعل راح يكتب ويترجم ويحقق الكثير مما يعاني منه المجتمع، ونشر ذلك كله على صفحات مجلات عربية كثيرة كان أقدمها وأعرقها مجملة روز اليوسف ونجح كثيراً.. لكن الذين فتشوا وراء سر نجاحه أكدوا أن صياغته الأدبية للمادة الصحفية كانت سر تميزه كصحفي.

وهكذا.. انتصر أديبه الكامن، وضحك ضحكة شماتة عندما فرض على صاحبه إرادته حتى وهو في بلاط صاحبة الجلالة.. لكن الألفي لم يستسلم فقرر أن يرحل ويسافر ليرى ويتعلم.. ينغمس وينفعل في عوالم البشر وتضاريس الدنيا كي ينسى ذلك الأديب.. فكانت رحلته الكبرى إلى أمريكا.. عاش هناك ونجح ونسي وانغمس، لكنه لم يحتمل أكثر من عام ونصف العام بعدها أصبح غير قادر على تذوق المزيد من الدهشة، ولم يعد قادراً على الاستمرار، وأحس برغبة عارمة في أن ينقذ نفسه بأن يعبر عما في داخله من دوامات وتيارات، دفعته أحياناً إلى صخور الغضب والاكتئاب.. ولم يجد مفراً من أن يلجأ إلى قرينه الأديب كي ينقذه ويطلب إليه الخلاص، ولم تكن

صدفة أن وجده متيقظاً متحفزاً وجاهزاً.. وكان أن راح يكتب بسهولة صفحات هذا الكتاب.

إن الألفي لم يستطع أن يهرب من قدره كأديب.. واعترف أنه جاهد في هذا كثيراً بوسائل قاهرة... فقد كان يريد أن يريح نفسه من عذاب المعاناة واحتراق الأعصاب وسحق الانفعالات، وقد فشل في ذلك تماماً ويوماً بعد الآخر كان يسجل اعترافه بهذا الفشل وراح يحول الواقع إلى أدب والأدب إلى واعق، وهذا المزج هو ما يوصف غالباً بأدب الرحلات وهو أدب يمد جسوراً قوية ومتينة بين المتعة والبيانات.. بين الدهشة والأرقام.. بين حركة البشر في الشارع وعلاقاتهم الخاصة وراء الجدران.

إذن نحن أمام أديب رغم أنفه.. أديب درس وحقق وسافر وعبر عن نفسه وعما حوله بعبارات رشيقة خاطفة هي طلقة رصاص أحياناً وعطر زهر أحياناً أخرى، وهذا في رأيي سر حيوية هذا الكتاب الذي أتصور أنه سيحسم داخل كاتبه تردده بين الأدب والصحافة، وسيكون هذا الحسم في اتجاه الأدب طبعاً.

إنني لا أقدم هذا الكتاب، فأنا لا أجرؤ على ذلك، وإنما أقدم اكتشافاً.. اكتشاف يبدأ من داخل محمد حسن الألفي وينتهي إلى داخل المجتمع الأمريكي.

لقد اكتشف الشاعر الفرنسي المتشرد أرنولد رامبو نفسه في أحراش أفريقيا، أما محمد حسن الألفي فقد اكتشف نفسه في أحراش أمريكا.

عادل حمودة

ليلة زفاف الأشباح
ليلة لا يعلم بها إلا الله!

جرت أحداثها أمام عيني في أحد شوارع سكرامنتو عاصمة كاليفورنيا، في أقصى الغرب الأمريكي.

مرت «على خير» صحيح، لكن ما رأيته طوالها، جعلني أصدق أن أشرار الموتى ـ أبشعهم على وجه الخصوص ـ قد خرجوا من قبورهم، وانطلقوا في الطرقات فاحتلوا مداخل العمارات وزوايا الحدائق وعربات المترو وصالات المطاعم والمراقص والحانات، لا ليقيموا فيها إقامة هادئة أو حتى يمارسوا فيها حياتهم الجديدة بعد سنوات الدفن الطويلة، بل ليشعلوا النيران في كل شيء ويروعوا الأحياء الآمنين، وليعقدوا الجلسات الغريبة الغامضة، تنعقد فوقهم أبخرة زرقاء، يتقرر تحتها مصائر العابرين ممن تصادف أن وقعوا في الأسر.

ومن شدة الرعب والفزع، حسبتني ألقيّ بي في عالمهم البعيد المثير، وتأكد لدي شعور بأني دخلت النار رغم كل نواياي الطيبة حين كنت حياً.

وهكذا رأيت الكونت دراكيولا مصاص الدماء، ورأيت موسوليني وهتلر وشياطين النينجا اليابانية، وأرواح أسوأ من أنجبت البشرية.

إنها أمريكا تحتفل بعيد الأشباح أو ـ على وجه الدقة ـ عيد جميع القديسين!

والاحتمال لا تكتمل له متعة. ولا يصبح له طعم إلا بإثارة

الرعب والخوف في كل بيت وعلى كل ناصية وداخل كل سيارة، بل أن برامج المحطات التليفزيونية، وصفحات الجرائد الكبرى والمحلية، والمجلات المتخصصة، لا تكف قبلها بأسبوع ـ 31 أكتوبر ـ عن الإعلان عن مفاجآت عيد الرعب، وما استحدثته شركات الإنتاج من أبشع الأقنعة، وأغرب الملابس، وأعقد وأعنف الألوان ومواد الماكياج، أما هوليوود فتواصل إنتاج وعرض أفلام الرعب الشهيرة. وأما شاشات التليفزيون فتحاصرك بأشد الأفلام إثارة من نوعية: «الفزع الرهيب» و«البيت المسكون» و«عودة الأموات» و«طارد الأرواح الشريرة» و«هالوين 3» ـ وهذا هو الاسم الأمريكي لهذا العيد، ومن ثم صنعوا أفلاماً تحمل العنوان ـ وغيرها مقرونة بالصور والأقيشات والرسومات التي تطير النوم من عين الجن!

31 أكتوبر. بعد منتصف ليل كاليفورنيا الصيفي بعشر دقائق. سيارات البوليس الأمريكي، تمضي في الشواع، متسللة، مترقبة كثعبان. إن البوليس يعرف بالضبط ما سيحدث هذه الليلة، ونشرات الأخبار حذرت مما سيجري، وأشارت إلى أحداث العام الماضي، وسلطات الولاية اتخذت كافة الاستعدادات لمواجهة العبث الشيطاني السنوي.

جماعات من الشبان والفتيات السود والبيض، في ملابس ملونة صارخة، ممزقة أو ممزوقة، عارية أو كاسية، تقف أو تجري، تمضي أو تهرول، تغني أو تصرخ، ترقص أو تكون كتماثيل رأيتها في متحف الفن الحديث في ولاية منيسوتا، تطارد بعضها البعض، أو تطارد أحداً يرونه أو لا يرونه، الجميع في حالة جرى وصراخ وإثارة وجنون وخلع ولذة ولهاث، سرعان ما يتوقف كل شيء ويسكن المشهد وتتجمد

تفاصيله البشرية ثم يتفجر صاخباً مصحوباً بشهقة جماعية هائلة تتردد أصداؤها في الشوارع القريبة مضاعفة.

قوات من البوليس فوق جياد مغسولة لامعة السواد أو البياض أو ما اختلط منهما، تقرقع حوافرها، مترفقة، متفرجة، إذ لا جريمة ولا حريق بعد.

ولد وبنت، قناعان صاخبان مروعان يخفيان الملامح البشرية الجميلة. للولد وجه مصاص دماء، وللبنت وجه أميرة الظلام المسحورة، يسيل دم مرسوم من زاويتي شفتيها الزرقاوين.

على محطة «الترماي» القَريبة من مبنى كونجرس كليفورنيا في عاصمتها سكرامنتو، غاب مصاص الدماء في قبلة مع أميرة الشر، التي تسربلت في عباءة ثقيلة سوداء، كشفت وسط الكتفين تحت العنق عن نور ناصع لصدر ضجت أطرافه بالتوتر.

طابور طويل من الأطفال، صبيان وبنات، خرجوا بوجوه ممسوخة، مشوهة، ربما بلاعين، ربما بلا فم، أو بفم تهشمت فيه الأسنان الصغيرة، البشرة النضرة صارت لوحة سيريالية تفنن راسموها - وهم عادة الأهل والأقارب والأصحاب - في جعلها من أبشع ما تكون.

في أيدي الصغار فوانيس مضيئة، مصنوعة من القرع العسلي.

كميات هائلة تنقلها عربات ديناصورية من المزارع إلى محلات البقالة الضخمة.

تؤخذ القرعة، وتحفر على هيئة وجه آدمي، وتفرغ من الداخل كلية وتغرس فيها شمعة.

إذا أطفأت النور، واحتفظت بشمعة القرعة مضاءة فأنت أمام منظر يقف له شعر رأسك!

أحد الأطفال كريج سنوات - أخذ قرعته وانتحى جانباً من الطريق ثم جلس وهو يترقب حواليه على سلم الجيران ووضع القرعة أمامه ومضى يتأملها، لم تمض لحظات حتى نطقت القرعة بصوت أبيه المتوفى قبل عام يوصيه بأمه وبألا يقع ضحية شياطين تلك الليلة «حين سمعته، ظننت أن أبي يعابثني، فقد نسيت تقريباً أنه مات قبل سنة. نظرت حولي فلم أجد أحداً. لقد نادتني القرعة باسمي. قل لأمك أنني ما زلت أحبها وأن ميلاني تكن لها حباً عميقاً» لم تكن القرعة تحرك شفتيها، لكن الصوت منبعث منها.

والد الطفل اسمه ديل وهو مهندس كندي. وصفت الأم الحالة بقولها: «اعتقدت أن أحداً يعرف زوجي ديل وأراد أن يمازحنا بهذه الطريقة السخيفة.. لكن ابني كريج أخبرني بشيء لا يعرفه سوى زوجي الراحل وهو اسم أمي ميلاني والتي ماتت قبل مولد ابني كريج الذي لا علم له باسم جدته على الإطلاق»!!

وكل طفل يمشي حاملاً قرعته، تضيء له في الظلام، وتتجه جماعات الأطفال في صفوف، أو في حلقات، أو متناثرين يطرقون الأبواب، فإذا فتحت لهم - وغالباً ما تفتح - رددوا العبارة التقليدية «أعطني قطعة من الحلوى وإلا... أوقعتك في مطب» وهي جملة سريعة، مختصرة جداً، تشبه ما يردده أطفالنا عادة عند طلب العيدية، والذي يحدث غالباً أن جميع الأسر الأمريكية تكون مستعدة بأكياس الحلوى وقطع الشيكولاتة وحبات التفاح وفطائر القرع العسلي و... تفتح

الأبواب ومن خلفها وجوه مرحبة، ضاحكة، وراء أقنعة مخيفة وأحياناً بشعة، لا تقل بشاعة عن وجوه الأطفال طالبي المكرمة، والحق أنه كلما أوغل الوجه قبحاً ازدادت متعة الطرفين.

يمد الأطفال أياديهم الصغيرة، المغموسة سلفاً في حوض من الألوان المجنونة فخرجت لوحة لاهبة، يخطفون الحلوى والشيكولاتة والفطائر صائحين شاكرين.

ويا ويله الذي لا يعطيهم.

ربما لطخوا باب بيته بأقذر الأشياء، أو وضعوا كلباً ميتاً تحت نافذة حجرة نومه، أو دفعوا إليهِ بإطار سيارة محترق، أو انهالوا عليه بالحصى، أو روعوا أفراد أسرته بوجوه مضغوطة على سطوح النوافذ الزجاجية فيراها الأطفال النائمون عند الفجر أشباحاً حقيقية أو مخلوقات شائهة.

لا يخلو عيد الأشباح أبداً من جريمة ومن نهاية دامية، يحدث أحياناً أن يكون أحد الكبار مريضاً أو معقداً، فيقدم للأطفال تفاحة محشوة ربما بالسم أو بكسرات الأمواس المهروسة في لحم التفاحة، يمضغها الصغير، فرحان، فتمزق لسانه ولثته وأسنانه، ولا تكف محطات الإذاعة والتليفزيون عن أسداء النصح للأهالي بمنع صغارهم من تناول أية أطعمة إلا بعد العودة إلى المنزل أو الذهاب بها إلى أقرب عيادة خارجية!

والحق أنه لا يكاد قسم الطوارىء والعيادات الخارجية بالمستشفى يكف عن استقبال ضحايا الليلة الشاذة وغالبيتهم من الأطفال.. والنساء المغتصبات!

من أجل هذا، تحفل الصحف الأمريكية بقوائم تفصيلية طويلة، تحدد أنسب أمكان الفزع والإثارة والخوف وأكثرها أمناً وسلامة، وأسعار الدخول إلى كل منها، إن كانت ثمة أسعار!

ذلك أن بعض الهواة فتحوا قبور أشباحهم مجاناً للزائرين!

هذه الأماكن - عادة - عبارة عن مسارح مجهزة بأحدث الوسائل وأقصى الإمكانات، وتقدم عروضاً حية لمخلوقات تذهب في ترويع الصغار والكبار إلى مدى لا يخطر على بال الشياطين، وهي أحياناً صالات مغلقة، تجري فيها قراءات مصورة، ومجسمة، لأكثر الروايات فظاعة حتى لتجد نفسك جالساً على أطراف مقعدك ممسكاً مسنديه بيدين يغيض منهما عرق بارد غزير!

فما بالك بصرخات الصغير بجوارك!

والكاتب الأمريكي الشهير ستيفن كينج، نجم روايات الفزع هو أفضل من يقرأه الأمريكيون تلك الليلة، وهو مؤلف لا تتوقف قريحته عن أغرب الروايات، ولقد شاهدنا له في القاهرة فيلماً مروعاً قبل أربعة أعوام مأخوذاً عن روايته «الإشراق». عرض تحت عنوان «النداء الغامض».

ومن أشهر البيوت المخصصة لعروض الرعب الحية، البيت الذي أنشأه رجل يدعى ريتشارد هانف وزوجته، وينفقان عليه خمسة آلاف دولار سنوياً لتجهيزه وتحديثه بكل غريب وجديد في تكنولوجيا «الخوف».

البيت - القصر واسع مهيب، له رائحة مميزة، تبث إحساساً بالقلق، وتنقلك إلى زمن آخر أو مستوى آخر، زماني أو مكاني، المهم

أن هذه الرحلة تصيبك بانفصال فوري عن العالم الذي جئت منه مع أول خطوة انفسح أمامها باب القصر الغامض من تلقاء نفسه!

القصر له حديقة كبيرة مغطاة بنسيج عنكبوت صناعي، تناثرت فيها قبور وأكفان مفتوحة، تنهض منها جثث الموتى، بعضها واقف في كفنه والبعض الآخر، نصف قومة، والبعض الثالث يسري في جو ضبابي كثيف ـ صناعي أيضاً ـ مطلقاً صيحات خائفة مخيفة، ثم دماء تنزف من صدور الموتى والهياكل العظمية!

وتسأل عن السر في كل هذا الرعب وما جدواه وفلسفته فيأتيك الرد أغرب مما ترى في القصر.

إن ريتشارد قد ولد في نفس تلك الليلة ـ ليلة عيد القديسين. وهو يذكر الاحتفالات الضخمة الرائعة ويذكر الخوف الذي دب في قلبه ويريد أن يستعيده هو وزواره ومجاناً.

وفلسفته واضحة.. إنه يفزعهم فيسعدهم، يجعلهم يصرخون، ومع الصراخ تخرج الهموم والعقد المكبوتة بفعل العقل والكياسة والإرادة القوية!

أما العرض الذي قدمه ريتشارد هذا العام. فأبطاله دراكيولا والرجل الذئب، والمومياء الجميلة، والوحش المسخ فرانكشاتين، وعما جرى لزواره وضيوفه «إنهم يأتونني كل عام بالآلاف، يصرخون عندي ويخرجون، مخلفين فضلاتهم النفسية في بيتي، تمضغهم الوحدة والوحشة طوال العام حتى يعودوا في العام التالي بمخاوف جديدة وهكذا».

والواقع أن طريقته في الإفراج عن الهموم والمخاوف البعيدة.

الكامنة فينا تجعل الواحد يموت بالسكتة القلبية أو يشيب شعر رأسه وجسده. فأنت تدخل بيت الرعب هذا لتجد نفسك في سرداب عميق الظلمة. تلمس يديك ووجهك عناكب أو خيوط لزجة، ثم خفافيش وصوات خفافيش يخرق الأذنين، ثم يتركك تسترد أنفاسك فما تكاد تفعل حتى تجد قبضة ثقيلة على أحد كتفيك. وتستدير لترى من الأخ فتجده: الأخ دراكيولا يغرز أسنانه - لا مؤاخذة - في رقبتك!

أو يتركك صاحب بيت الرعب شجاعاً متماسكاً وربما هازئاً، فإذا بك فجأة في حضن مومياء متصابية، مزوقة، تعانقك، وتعابثك، ويداخلك شعور بأنك مقدم على فضيحة مع مومياء. حتى إذا بلغت نقطة تجمد الكوليسترول وانذر الموقف بأزمة قلبية، أطلقتك بضحكة مجلجلة «من شريط تسجيل على كاسيت قوة صوته 400 وات!».

وتسأل ريتشارد: وتاعب نفسك في ده كله ليه ويقول لك ولغيرك: مزاج...

وأردد في نفسي يا مزاجك يا أخي!

لكنه - بالتأكيد - ليس أغرب ولا أرعب مما فعلته امرأة بابنتها ليلة الأشباح هذه.. ولا مما جرى في شوارع 3 مدن رئيسية في كاليفورنيا.

قتلت أم ابنتها لاعتقادها أنها من سلالة مصاصي الدماء.. وكما نرى في أفلام دراكيولا فإن الطريقة الوحيدة لقتل مصاصي الدماء هي «دك» وتد خشبي مسنون في صدر المصاص!

وهذا ما فعلته الأم بالضبط، وبعدها خرجت تصيح في الشارع «مات الشر.. قتلت الشيطان» وأمام سلطات البوليس روت الأم القصة وأسباب فعلتها «كان من واجبي كأم أن أخلص ابنتي من الروح الشريرة

بعد أن استولى مصاصو الدماء على جسدها ثم سعوا إلى دمي وابنتي الأخرى زورا. لم يكن أمامي إذن خيار. وإلا صرنا كلنا من جماعة الموتى الأحياء.. نجوب الشوارع والمقابر بحثاً عن دم فريسة».

وقد أوصت الأم بأن يدقوا مسامير تثبت جسدها وجسد ابنتها في النعش - بعد تنفيذ حكم الإعدام فيها - لأنها على يقين أنها ستنهض إن لم يفعلوا لتطارد الأبرياء!

أما ما جرى في شوارع كاليفورنيا.. في لوس أنجلوس وسان دييجو ولونج بيتش - المدن الثلاث الرئيسية بالولاية فكان خلاصته: حرائق بالجملة.. مباريات إطلاق الرصاص، حفلات صاخبة لـ 100 ألف رجل وامرأة وطفل في شارع هوليوود الشهير الذي يضم صوراً وأسماء لمشاهير نجوم السينما الأمريكية. وقد جن جنون المحتفلين فدمروا النوافذ ونهبوا المحال واستولوا على صناديق البيرة والخمور.. واغتصبت فتاة أثناء الفوضى. ونقل 3 من رجال الشرطة إلى المستشفى...

عالم مجنون مجنون.. بحق.. وامرأة دنت مني - على محطة الترماي في سكرامنتو تعرض عليّ وجهاً هادئاً في الخمسين. سألتها ماذا تريد فسألتني بدورها تحت ابتسامة آلية:

– هل لك في بعض المتعة بـ 20 دولاراً؟

فلما رأت الدهشة على وجهي استأنفت:

– لست أنا.. هناك فتيات أجمل..

– ألا ترين أن هذه ليلة للرعب لا للمتعة؟

– نوفر لك الاثنين.. من أي البلاد أنت؟

قلت ساخراً وأنا أستدير عائداً إلى الفندق.

- من الشارع المجاور!

لكني ـ للحق ـ فقدت الطريق إلى الفندق.

امريكا للبيع
محمود عمارة (1991)

محمد عماره. أمريكا للبيع. القاهرة: مطابع الأهرام، 1991.

محمد عماره هو أمريكي مصري ولد عام 1952 وهاجر بداية إلى فرنسا عام 1974 ومن ثم للولايات المتحدة عام 1987 حيث استقر في فلوريدا. ودرس الحقوق في جامعة القاهرة والاقتصاد في السوربون ويحوي كتابه على غلافه صورة نمطية لراعي بقر أمريكي ذي قبعة ورباط عنق وجزمه بوت عالية وسيجار متدلي من فمه. وتشمل بعض المواضيع المغطاة في الكتاب نيويورك مدينة الحرية والمتشردين والتلفزيون الأمريكي وعائلة كنيدي والمزارع الأمريكية ومرارة المنفي وعالم ديزني.

«ما بال الزمان يضن علينا برجال ينبهون الناس ويرفعون الالتباس، يفكرون بحزم ويعملون يعزم ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون!».

الكواكبي

منذ وُلِدْت وأنا أحاول أن تكون حركتي فوق الأرض محسوسة..
لا يمكن أن أعيش، وأموت، ولا يدري بي أحد...

ولكني اكتشفت أخيراً أن ملايين مثلي يتحركون فوق الأرض، والأرض لا تبالي!!

أول رحلة خارج الوطن منذ خمسة عشر عاماً تبدو لي وكأنها بالأمس.. وأنا أُجُرُّ خلفي حقيبة انتهى عمرها الافتراضي.. مليئة بعلب الفول.. والقراقيش! والستة عشر جنيها استرلينيا المسموح بالخروج بها من مصر في ذلك الوقت.. مخبأة في جيوب سرية بالملابس الداخلية خوفاً عليها!!

وجواز سفر الطلبة الذي يحوي ست صفحات فقط.. والعبارة الشهيرة تقول: «على صاحبه العودة قبل 31 أكتوبر».

والرعشة على أطراف أصابعي وأنا أتحمس حزام المقعد بالطائرة التي أستقلها لأول مرة!!

والوجوه الشاحبة لزملائي بعد أن أعيانا البحث في عاصمة الضباب عن أطباق للغسيل! لقد سجَّلت صورة لهذه الرحلة في أول تجربة لي مع الكلمة.. في «أوراق مهاجر»... وكان قصدي أن أنقل صورة للتجربة.. صورة حقيقية.. واقعية.. دون تزييف أو مغالاة.. لكل شباب مصر الذي يرغب في الخروج.. أو في البقاء.. صورة لمسؤولينا الأكابر. الذين تخلوا عنا وقت الشدة.. تجاهلونا نحن جيل الثورة.. شباب النكسة.. مفقودي الهزيمة.. هزيمة 67.

ولما كانت النتيجة مشجعة لما أثاره الكتاب الأول من مناقشات.. وجدلاً.. واستحساناً لم أكن أتوقعه.. وبما أن المكتبة العربية تفتقر تماماً إلى أدب الرحلات. ومثله أدب الاعتراف.. فهناك متسع للهواة أمثالي!

15 سنة مرَّت وأنا غريب.. مؤبد قضيته في سجن الغربة.. بعيداً عن وطني وأهلي.. حتى لو كان السجن اسمه باريس!

ناس وُلِدَتْ، وناس ماتت.. الأطفال أصبحوا شباباً.. والشباب كهولاً لا أعرفهم في قريتي.. وحتى في عائلتي! أصبحت غريباً...

والغربة في كثير من الأحيان أشق على النفس من السجن أو الإعدام، ولا سيما عندما يمد الغريب يده صاغراً، وتكفهر في وجهه الدنيا...

إن الإنسان قد يكتسب في الغربة تجارب، ويكوِّن له صلات وثيقة، وقد تنفتح فيها آفاقه، ولكنه في بلاده عزيز مهما تقَلَّبت به الأحوال...

وآثار الغربة لا يعرفها إلاَّ من اغترب وفارق الأهل والأصدقاء وبيئته الطبيعية، ثم عاد فاكتشف صنع الزمان في غيابه.. فالبيئة تغيرت، والصغار كبروا، وقطفت يد المنون ما قطفت من زهور يانعة، وزهور ذابلة.. ثم إنه هو قد تغير في أعماق نفسه، وتأثر بعوامل حضارية وثقافية أجنبية...

وإذا كان له أبناء فإنهم يكونون قد تأقلموا بغير أجواء بلادهم الأصلية، وفقدوا لغاتها، أو على الأقل طلاقة اللسان، وبطول سنوات الغربة تتراكم المشاكل وتتعقد...

وكما يقولون: من الممكن أن تنتزع مواطناً من وطنه، ومن المستحيل أن تنتزع الوطن منه!!

وكما يقول الشاعر اليوناني:

ويوم فكرت في الرحيل إلى بلاد أخرى.. إلى بحار أخرى.. إلى

مدينة أجمل من مدينتي، من كل جمال عرفته في الماضي.. أخطأت.. فلا أرض جديدة، يا صديقي هناك.. ولا بحر جديداً: فالمدينة ستتبعك.

وفي الشوارع نفسها سوف تهيم إلى الأبد.. ويضيع شبابك.. وفي البيت نفسه تشيخ وتموت..

آه، ألا ترى أنك يوم دمرت حياتك في المكان الأول فلقد دمرت قيمة حياتك في كل مكان آخر على وجه الأرض؟!

وكمال نقول الكاتبة اللبنانية غادة السمان:

العودة إلى مسقط الرأس والقلب غريزة كالجوع والعطش والجنس والرغبة في الحياة.. ولكنها غريزة نائمة، يوقظها رعد الغربة وتنميها أمطاره، وتبدو جلية في مرآة السنين الطويلة للبعد.

في الغربة تصير العين انتقائية، وتتأجج مشاعر الحس الوطني، والغيرة القومية، وتلتهب غريزة المقارنة..

كل حاضر يذكرك بغائب، وكل رفاهية هنا تذكرك بفقر هناك.. تغار من الشوارع النظيفة، والفاترينات المرهفة، والقطط والكلاب والأطفال السعداء!

تغار من الروح الديمقراطية ومناخ الحرية الذي يحيط بك في كل مكان واتجاه.. تغار من النزعة الانتخابية المتجلية في كل ما حولك.

وأنت المصري المشرد المحروم من حق الانتخابات الديمقراطية..

...

كل شئ في أمريكا يباع بالدولار!

بالدولار تشتري كل شئ! تشتري سكة حديد! تشتري مطار! تشتري كنيسة! تشتري مقابر بمن فيها! كل شئ في أمريكا للبيع! عدا الزوجة والاطفال! لكن الزوجة غالبا تبيع زوجها!

في أمريكا ستجد اعلانات للبيع معلقة في الشوارع، على النواصي

أمريكا نموذجاً للتقدم

أميركا في نظر شرقي
أو ثماني سنوات في الولايات المتحدة
فيليب حتي (1924)

فيليب. ك. حتي. أمريكا في نظر شرقي، أو ثماني سنوات في الولايات المتحدة. القاهرة، دار الهلال 1924.

كان فيليب. ك. حتي أكاديمياً أمريكياً معروفاً، وهو من أصول سورية لبنانية. درس لسنوات عديدة في جامعة Princeton، حيث أسس واحداً من أولى البرامج الأمريكية في الدراسات الشرق-الأوسطية. كان مؤرخاً شهيراً للتاريخ العربي والإسلامي، ونشر كتباً عديدة في هذا المجال، والذي يتضمن تاريخ العرب، الذي ظهر في عدة طبعات. نشر أولاً سردا عن حياته في أمريكا بشكل متسلسل في مجلة الهلال الأدبية، ثم في كتاب عام 1924، تحت عنوان أمريكا في نظر شرقي، أو ثماني سنوات في الولايات المتحدة، مع تقديم أميل زيدان، رئيس تحرير الهلال. بعض موضوعات الكتاب هي: حيوية الأمريكيين، الحياة الأمريكية وروح التعاون، القدرة على الإبداع والدهاء، والروح الأمريكيه الديمقراطية.

***

الأمريكي تلتقي به على جسر الأمم - جسر غلطة - في الأستانة، وتقابله في بهو شبرد هوتل في القاهرة، وتخالطه في الجامعة

الأمريكية في بيروت، ولكنَّ الأمريكي لا تفهمه كما هو، وتدرك حقيقة كنهه، وتحيط علماً بروحه وأخلاقه إلا في وطنه، في أمريكا ـ كما أنه لا يمكنك درس طبائع الدب الأبيض في حديقة الحيوانات، ولا عادات القرد الأفريقي في قفص «الفرجة».

للأمريكي ميزات وصفات تجعله «أمريكياً» وتميزهُ عن الإنكليزي وعن الألماني وعن الافرنسي. في الأمريكي ذاتية وطنية، وروح خاصة، ونفسية معينة تقطن الوطن الأمريكي وتقيم في بلاده.

شغلت منذ وطئت قدماي الديار الأمريكية بالتنقيب عن تلك النفس الأمريكية، بالتفتيش عن المفتاح الذي يفتح مغلقها ويكشف أسرارها، بالبحث عن إمكان سبر غورها والوصول إلى أعماقها والإحاطة بها من كل أطرافها. عنيت سنيناً طوالاً بمحاولة فهم العقلية الأمريكية وتشريحها وحل رموزها والتمكن من أسرارها ـ على ما في ذلك من التعقيد والصعوبة. طالعت في هذا السبيل زبدة أبحاث الكتبة الأجانب الذين زاروا الولايات المتحدة ودرسوا أخلاق قومها، وما قاله الأمريكيون عن أنفسهم، وعلَّقت مذكرات في مفكرتي اليومية تتضمن خلاصة اختباراتي الشخصية وتأثراتي النفسية، وجمعتُ قصاصات من جرائد ومجالات أمريكية متعددة. كل ذلك على أمل نشرها يوماً ما وتقديمها لخدمة الجمهور من متكلمي العربية، لعلَّ العالم العربي يهمه الاطلاع على شيء من ذلك لما يربطه بالعالم الجديد من رُبط تهذيبية واقتصادية ولما بين العالمين من صلة المهاجرة.

ولا حاجة بي لتفصيل ما لقيتُ دون ذلك من العناء. فالمرء ليس رقماً محدوداً معيناً بل كمية جبرية ـ ك أو ي ـ تختلف قيمتها باختلاف المعادلة التي هي فيها. فربَّ رجل محجم في يومه، مقدام ناهض في

غده، وكم صديق تحسبه خيالياً كمالياً فإذا به مادي نفعي، أو مادياً نفعياً فإذا به خيالي كمالي.

فالنفسية الأمريكية تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتتغير بدواعي التأثرات المتباينة، ولكن هنالك مظاهر تظهر بالإجمال فيها، وهي ما نريد أن نبينه في هذا المقال.

حيوية الشعب

أول ما يتأثر به الزائر لدى احتكاكه بالشعب الأمريكي هو حيوية ذلك الشعب المتناهية أي قوة الحياة التي فيه. حالما يشرف الغريب من ظهر الباخرة على مدينة نيويورك - باب الولايات المتحدة - يحيي نظرهُ في الأفق البعيد سلسلة مترامية من البنايات الناطحة السحاب (skyscrapers) ذات الطبقات الخمسين والستين، فيتبادر إلى ذهنه للحال أنه قادم إلى بلاد إنسانها جبار في فصيلة الإنسان، وبطل بين أقزام بني البشر. ولا تلبث قدماه أن تطأ الأرض حتى يسترعي انتباهه اندفاع القوم في العمل، وخفتهم في الحركة وتسابقهم وازدحامهم ونشاطهم، فتتمكن الفكرة في رأسه بمرور الأيام أنه في بقعة لا كالبقاع وبين شعب فائق كل الشعوب، ممتاز بحيويته وفاعليته، منفرد بغزارة قوته العصبية. وما البنايات الشاهقة العديمة المثال، والخطوات النشيطة السريعة، والمقدرة على الانصباب والانغماس في الأعمال سوى مظهر فيه حيوية شعب ناهض فتي، ينبض في عروقه دم الشباب صافياً نقياً.

الخفة في الحركة

الخلفة في الحركة هي أول مظهر خارجي سطحي تظهر فيه حيوية الشعب الأمريكي، وأول شيءٍ يجتذب انتباه الغريب بينهم. أنظرهم على الشارع وفي السوق، كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً، يتزاحمون ويتسابقون، هذا ليركب القطار السائر على سطح الأرض، وذاك ليلحق بالقطار المرتفع فوق سطح الأرض (القطار الهوائي القائم على أعمدة elevated، وآخر لينزل في القطار الغائص تحت سطح الأرض (قطار النفق subway وغيره ليمسك عربة الترامواي أو السيارة. سيلٌ من البشرية متدفق - بالمعنى الحرفي لا المجازي - في الأسواق، زاحف في الشوارع، أبداً متغير، وأبداً هو هو. لا صوت إلا ما كان ضرورياً تستلزمه طبيعة الحال، ولا إتلاف في القوى لغير داع.

أول مرة رأيت القوم يتراكضون - فعلاً - للحاق بعربة الترامواي حسبت تلك العربة الأخيرة من نوعها. وإذا بالثانية وراءها، والثالثة تلو الثانية، والرابعة خلف الثالثة وهلم جراً إلى اخر ما تصل إليه العين، ليس بين الواحدة والأخرى أكثر من مئة يرد أو مئتين. على أن نصيب كل واحدة من العربات كان نصيب الأولى من حيث الإقبال والازدحام.

وقفتُ على رصيف الشارع لأحني رأسي إلى الوراء فتكتحل عيناي بمرأى أبراج البنايات الشاهقة التي كنتُ أسير في ظلها، ولكن على غير جدوى. إلى الإمام يسير القوم، وإلى الأمام لا بد لي أن أسير. شعرتُ للمرة الأولى أني لستُ فرداً مستقلاً في دائرة، بل جزءٌ من كل، نقطة في موجة، والموجة متحركة تدفعك أجزاؤها بقوة استمرارها

إلى الأمام فلا سبيل لك إلى الوقوف حتى تصل إلى منعطف الطريق أو آخر الشارع حيث تتكسر قوة الموجة وتتبعثر عناصرها.

إذا وقف قطار النفق أمامك وفُتحت أبوابه في وجهك فلا تجهد نفسك بتحريك العضلات ومحاولة الدخول. سيل البشرية المندفع في وجهة الباب يتكفل بإزاحتك ونقلك إلى الداخل على ما هو مطلوب، بدون اهتمام أو عناء. سلم جسدك لمن وراءك، ومن وراءك يتدبر أمر دفعه للأمام حالما يفسح المجال من هو قدامك.

الوصية الأولى التي تقرع طبلة أذنيك حالما تحرك خطاك على الجسر الخشبي الواصل بين الباخرة والبر، والفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد، هي lively Step «أسرع خُطاك». وهي الوصية التي يعيدها ويكررها في آذانك حرس القطرات والحافلات والناقلات في كل البلاد. فكأنما إسراع الخطى شعار الحياة الجديدة وآيتها الذهبية.

والوصية الأولى التي يسمعها الزائر لبلادنا هي: «على مهلك» «دير بالك» «إياك والوقوع». وفي الوصيتين دليلان على فلسفة الحياة كما يفهمها الغربيون وفلسفة الحياة عند الشرقيين. «العجلة من الشيطان» آية لم يوح الله بها للأمة الأمريكية.

«الأمريكي يأكل بعجلة، ويمشي بعجلة، ويعمل بعجلة، ويعيش بعجلة، ويموت بعجلة، ويدفن بعجلة - عجلة السيارة».

هذا ما لاحظه كل من درس الشعب الأمريكي ناقداً، وردَّده الكثيرون من الكتبة الأوروبيين من أفرنسيس وإنكليز وألمان وإيطاليان وإسبان.

الخياط يكتب على بابه أنه يكوي ثيابك ويرتقها وأنت واقف بانتظارها (while you wait) صانع الأحذية يعلن أنه يصلح حذاءك بما فيه من نصف نعل وكعب مطاط (كاوتشوك) وأنت جالس على كرسي في محله. وكثيرة هي المطاعم الموسومة Lunch Quick أي مطاعم الغداء السريع.

تقعد على كرسي الحلاقة فيباشر الواحد قص شعرك، والثاني تقليم أظافرك، والثالث مسح حذائك - عمليات ثلاث تجري في وقت واحد على شخص واحد.

ومن النكات اللطيفة التي يوردها الأمريكان ومنها تتجلى هذه الميزة من ميزاتهم القومية نكتة بشأن ممثل لإحدى شركات التأمين جاء ليقنع تاجراً من كوبا مقيماً في الولايات المتحدة بضرورة التأمين على حياته. ومما قالهُ له «حتى إذا وقعت من هذا الشباك العالي فقبل أن تلمس الأرض تكون الدراهم قد أرسلت إلى زوجتك». فأجاب الكوبي منذهلاً «ولكن لنفرض أني لم أصب بضرر. فماذا تفعلون؟» قال «نكون قد أرسلنا تلغرافاً ثانياً بتوقيف الدفع»...

الأتومات: جاء معنا أن الأمريكي يأكل بسرعة، وهو يريد أن يقتصد ما استطاع في الوقت المبذول في سبيل إعداد أكله وتقديمه على المائدة. ولا شيء يدل على ذلك مثل نشوءِ نوعين من المطاعم لا وجود لهما في غير الولايات. وهما الأتومات والكافاتيريا.

الأتومات (automat) مطعم لا خدم فيه ولا حشم. تدخله فتجد حيطانهُ الأربعة من واجهات زجاجية مقطعة بيوتاً صغيرة كلٌ منها بحجم القدم المربعة، ولكل منها باب زجاجي مقفل. تقترب إلى

هذه البيوت الزجاجية فتجد على كل منها اسم الطعام الذي ضمنه مكتوباً بأحرف صغيرة مع ثمن الطبق. أسقط الثمن المطلوب من الثقب في البيت فينفتح الباب للحال من تلقاء نفسه، فتأخذ طعامك بيدك، ولك أن تنتقي مهما شئت وطلبت قابليتك من خبز ولحم وأرز وخضر وفاكهة، ثم تجلس إلى مائدتك فتأكل وتسير في سبيلك. هل تطلب نفسك القهوة أم الحليب، أم الشاي، أم الماء الصرف؟ هنالك في الزاوية حنفيات كتبت عليها أسماء. أسقط القيمة المطلوبة، ضع الفنجان تحت الحنفية، ولا حاجة لشيء خلاف ذلك. ينسكب السائل إلى أن يمتلىء الفنجان فتنسَد الحنفية من نفسها ـ ولا نقطة واحدة بزيادة أو نقصان.

فتقت هذه الفكرة من بضع سنوات في رأس رجل، وما لبث أن فتح مطعماً على هذا النمط، فلما رأى الإقبال عليه فتح الثاني والثالث والرابع. وللشركة الآن سلسلة من المطاعم «المتحركة بنفسها» حلقاتها في معظم الولايات المتحدة.

الكافاتيريا: نشأت الكافاتيريا (cafateria) أولاً في محيط مدرسي. وبيان ذلك أن تلامذة المدارس كثيراً ما كانوا يتذمرون من الانتظار في المطاعم وفوات وقت الدرس والاستعداد عليهم. فخطر في بال أحدهم أن يلغي أمر الخدم ويجعل طبخهُ في دسوت مكشوفة على النار وراء مائدة طويلة. حتى إذا دخل طالب الطعام من الباب يرى إلى يمينه عدداً من الصواني فيأخذ أعلاها، ويتقدم بضع خطوات فيرى الخبز مقصوصاً مصفوفاً في صحونه والماء في زجاجات فيتناول ما يريدهُ ويضعهُ على صينيته. ثم يسير إلى الأمام

فيرى قائمة الأصناف مطبوعة مع أسعارها بأحرف ضخمة كبيرة، فيطلب من الطباخ المائل أمامهُ ما يريد إلى أن ينتهي إلى آخر المائدة فيرى أمين الصندوق بانتظاره فيدفع الثمن. كل ذلك وهو ضمن سياج المائدة من جهة وسلسلة حديدية من جهة أخرى، فكأنه وغيره من طلبة الأكل في صف يتناول كلٌ مرادهُ في دوره وبعد أن يدفع الحساب يختار المائدة ويجلس إليها.

ولقد انتشر نظام الكافاتيريا في كل البلاد. حتى قرأت مؤخراً أن شركات السكك الحديدية تفكر في إدخاله إلى القطرات إذ أن الشركات بدأت تشعر أن الركاب حتى في القطرات - حيث لا شغل يشغلهم - لا جلد لهم على الاصطبار ريثما يأتيهم الخادم بمطلوبهم. ومن حسنات هذه الطريقة أن الآكل يتخلص من شر «البخشيش» وهو شر يدركه كل من جال في أوربا وأميركا.

إعجابهم بلاعب الكرة: كنت ذات يوم من أيام أول صيف دخلتُ فيه العالم الجديد ماراً في سوق من أسواق مدينة فيلادلفيا حيث تزدحم الأقدام والحركة على أشدها، وإذا بثلة من البشر ساكنة ساكتة هادئة كان على رؤوسها الطير، عيونها شاخصة لنقطة واحدة على الحائط. ذهلت فوقفت. نظرتُ إلى حيث اتجهت الأبصار وإذا المكان مكتب لجريدة وعلى حائطه لوح كبير يدوّن عليه وصف لعبة الكرة (baseball) التي كان يلعبها فرقتان وطنيتان في مدينة شيكاغو. وكانت ماجريات اللعبة تأتي للجريدة على أسلاكها البرقية فتنشرها الجريدة بالتدقيق على اللوح بحيث يشعر المار في أسواق فيلادلفيا كأنه يشاهد اللعبة في شيكاغو. حالما يضرب جاك الكرة ينقل البرق خبرهُ، فإذا أصاب المرمى يعقب على ذلك بقوله أصاب، وكذلك إن

أخطأ. ثم يأتي دور جونس فيطير البرق نبأه. وهكذا إلى النهاية فيعلم أبناء فيلادلفيا ما هو جار في ملعب شيكاغو حال حدوثه.

فسكون الحركة في ذلك الشارع إنما كان إكراماً لحركة أشد يقوم بها البعض على مسافة ألف من الأميال.

المتفوق في لعب الكرة بطل وطني تعجب الأمة به، وتردد أخبار انتصاراته الجرائد والمجلات، وقل من لا يذكر اسمه ويعرف صورته. وهو يتقاضى أجرة لا يحلم بها أساتذة المدارس ووعاظ الكنائس. حتى في المدرسة نفسها للمبرز من التلامذة في ساحة اللعب شهرة بين رفاقه تفوق شهرة المبرز في قاعة الدرس وغرفة التسميع. وأكليل الغار الذي يضفر على رأس الأول هو أجمل وأبهى من أكليل الثاني.

المسابقات الرياضية التي تجري بين الكليات الكبرى تتخذ من الأهمية ما تتخذه الحوادث الوطنية الكبرى.

البلاد الأمريكية بلاد مسيحية وعلى سبيل التخصيص بروتستانية. فالبروتستانت فيها يبلغ عددهم 80 مليوناً، والكاثوليك 20 مليوناً، والباقون يهود وغيرهم. وليس في كل أنظمة البلاد وقوانينها شريعة واحدة تخول البروتستاني حقاً لا تخوله لغيره من المسيحيين أو غير المسيحيين، أو تمنحه منفعة لا يستطيع غيره أن يتمتع بها.

لكل فرد أن يختار دينه أو يظل بلا دين، فلو أراد الإنسان أن يعيش كافراً فليس لأحد حق الاعتداء عليه ما دام كفره لا يخل بالأمن العام. ولكل فرد الحرية المطلقة في بث أفكاره. ولكل مجال واسع لتهذيب قواه والبلوغ إلى أعلى درجة من التقدم تقدره مواهبه على البلوغ إليها.

ذلك هو المقصود تماماً من قولهم أمريكا بلاد الفرص السانحة (Land of Opportunity) فكأن لسان حال أمريكا لأبنائها يقول: «أنتم جميعاً إخوان في لعبة الحياة. قوانين اللعبة واحدة للجميع، وعواقبها واحدة للكل بلا تمييز، والجوائز واحدة لمن نالها. فليربح من يربح وليخسر من يخسر».

الإنصاف: من مظاهر الديمقراطية ما يعبرون عنه بالإنكليزية بقولهم Fairness وما يمكن تعريبه بروح الإنصاف.

المبدأ الأساسي للإنصاف هو معرفة المرء أنه ليس هو الوحيد من نوعه في العالم، وأن الكون لم يخلق لمنفعته الشخصية، وأن العدالة يجب أن تسير أحكامها عليه وعلى غيره. ومن نتائج الإنصاف كثير مما درسناه في هذا المقال من مثل الحرية الدينية وحرية الكلام والمطبوعات.

«ليس من العدل» (It is not fair) عبارة تسمعها كثيراً على ألسنة القوم في أحاديثهم اليومية ويرددها كتابهم وخطباؤهم، وهي من الكلمات التي اشتاقت أذني لسماعها بعد عودتي إلى هذه الديار.

تظهر هذه الروح في المعاملة اليومية، وفي العلائق التجارية، وفي رغبة أرباب التجارات في وضع تجارتهم على أسس الاستقامة. ولست أنسى حادثاً بسيطاً في نفسه وقع لي في نيويورك ولكنه يمثل المبدأ المقصود: اشتريت مرة من بائع متجول معجماً ضخماً، وبعد سنتين من تاريخ الشراء اكتشفت وأنا أفتش عن كلمة أن ملزمة من الكتاب ناقصة. فأرسلت بطاقة للشركة، بعد أن ترددت طويلاً، لأني كنت أجهل اسم الذي باعني ولم يكن لديّ شيء يثبت أن الصفحات

كانت ناقصة عند حصول البيع. ففي صباح اليوم التالي قرع التلفون وإذا بصوت ممثل الشركة يقول: «إننا مستعدون للتعويض عليك لأنه ليس من العدل أن نبيعك كتاباً ناقصاً».

وليس المقصود من كل ذلك أنه ليس في الولايات المتحدة ظالم أو مظلوم، ولا راشٍ أو مرتشٍ، ولا مضطهِد أو مضطهَد.

المرأة تطالب بحقوقها وتصوت وتنافس الرجل، ولا سيما في المدن الكبيرة حيث الركاب لا يعرف بعضهم بعضاً. وكثير من النساء لا يرضين أن يعاملهن الرجل معاملة الضعيف الأدنى بل يطلبن المساواة.

المرأة الأمريكية لا تضحي شخصيتها بزواجها، بل تحافظ عليها كما هي، ولا تدغمها في شخصية زوجها. ولقد سنت حكومة الولايات في هذا الصيف (1922) قانوناً يعترف بهذا المبدأ، ومؤداه أن المرأة الأمريكية لا تخسر جنسيتها الأمريكية بتزوجها برجل أجنبي كما أن المرأة الأجنبية لا تصبح مجنسة بالجنسية الأمريكية بمجرد زواجها برجل أمريكي.

ليس بين البلدان المتمدنة بلاد سنت من الشرائع قدر ما سنته الولايات المتحدة لحماية نسائها وأطفالها فهي لا تجيز للمرأة أن تستخدم في ساعات الليل، ولا تسمح للأولاد دون السادسة عشرة بمعاطاة الأشغال. ولا يذكر تاريخ الولايات أن محكمة فيها حكمت على امرأة بالإعدام، مع أن بعضهن يرتكبن جريمة القتل. أما المجرم الذي يسيء للمرأة فالويل له.

برغم الاختلاط الجنسي في المدارس والأشغال، وبرغم مظاهر

الحرية، فالفضيلة الجنسية في الولايات المتحدة على درجة سامية. وشرائع البلاد لا تجيز وجود المومسات كما أنها لا تسمح بالمقامرة. ولا عبرة بما يشيء كثيرون من الشرقيين فهمه لعدم انطباقه على ما ألفوه في بلادهم من عادات المحافظة والتحجب.

وليس أبعد عن الصواب من الأثر العالق في أذهان كثيرين من السوريين والمصريين وهو أن المرأة الغربية خليعة متهتكة لا عفاف لها ولا إباء.

كذلك يجب أن لا نعلق أهمية كبيرة على حوادث الطلاق وعلى ما نقرأه في الجرائد السيارة من الفضائح والمستنكرات. فرب بلدة عاشت فيها مئة عائلة سنة ولم يقع خلاف واحد بين زوج وزوجة فلا نسمع عنها شيئاً، حتى إذا حدث حادث شائن تلتقطه الجرائد وتصدر صفحاتها به وتتابع الرواية عن تفاصيله فيخيل للقارئ البعيد أن ذلك الحادث أمر دارج يمثل مئات من الحوادث. ناهيك عما هنالك من الجرائد التي ينعتونها «بالصفراء» والتي همها تجسيم الحوادث المخالفة للمعتاد وتنميقها كيما تستجلب لذة القراء وتزيد إقبالهم عليها، فكأنها تنظر إلى الماجريات من خلال زجاجة ملونة صفراء.

«أجرة الخطيئة هي الموت». أما في أمريكا فاجرة الخطيئة هي الإعلان ـ الفضيحة، ولا فرق لدى التدقيق بين القولين، لأن فضيحة الأمر نتيجتها الموت ـ الموت الأدبي والاجتماعي ـ وهل من ميتة شر من تلك؟

الانتظام والترتيب. وقوة البداهة ظاهرة نتائجها في التفنن واستنباط الفكر الجديدة واستثمارها للمنفعة المادية أو لإنشاء

المشروعات الخيرية. وروح الديمقراطية بادية مفاعيلها في المساواة الاجتماعية والسياسية تجاه القانون، وفي حرية القول والدين، وفي سنوح الفرص لمن أراد انتهازها، وفي الانصاف واحترام الولد والمرأة.

وفي المدنية الأمريكية معايب ونقائص ترجع بالأكثر إلى العجرفة والادعاء وإلى التطرف والانغماس في الماديات وإلى الأخذ بظواهر الأمور وسطحياتها.

ولا نقصد بالقليل الذي أوردناه من الكثير الذي نعرفه تبجيل الشعب الأمريكي وتعظيمه بقدر ما نقصد حث قومنا على إنهاض الهمم وشحذ العزائم والسير في طريق الفلاح إلى الأمام وإلى العلاء.

الرحلة الى أمريكا
محمد لبيب البتنوني (1930)

محمد لبيب البتنوني، الرحلة إلى أمريكا. القاهرة: مكتب الخانجي، 1930

محمد لبيب البتنوني أخصائي زراعي مصري شهير، زار الولايات المتحدة عام 1927 بناءً على دعوة من معهد زراعي أمريكي للمشاركة في مؤتمر دولي حول دراسات التربة، ونشر سرده عن الحياة في أمريكا أولاً في الصحيفة المصرية اليومية الأيام ومن ثم جمع المقالات في كتاب نشره عام 1935 بعنوان الرحلة إلى أمريكا، و يحتوي الكتاب على خرائط وصور لمناظر من أمريكا، وبعض مواضيع الكتاب هي: مدينة نيويورك وسوق الأوراق المالية والرجال الأمريكيين وعقليتهم وطرق حياتهم والنساء الأمريكيات وعملهن واندفاعهن للزواج واندفاعهن لطلب الطلاق والجامعات الأمريكية والفنادق الأمريكية والكو كلوكس كلان والماسونيين وغيرها.

وجو نيويورك غير صحي بالمرة: لأنه شديد الحرارة صيفاً مع ما يصحبها من الرطوبة التي تهيج الأعصاب وتكاد تزهق منها النفوس!! وفي الشتاء ترى جوها شديد البرودة بما تكاد تجمد منه الدماء في عروقها (وهي ومدريد على خط عرض واحد) أما هواؤها

فكله متسمم بما يختلط به من البنزين المحترق من مئات الألوف من الأتومويبلات التي لا تنقطع حركتها فيها ليلاً ولا نهاراً.

ولشدة حرها تجد فيها دكاكين خاصة كثيرة يبيعون فيها شراب البرتقال والأناناس، حتى تراه في دكاكين البقالة والمطاعم والصيدليات وغيرها.

ولا أدري إذا كانت شدة الحر هي السبب في كونهم يمضغون اللبان بصفة عامة حتى وهم في الطريق، لا فرق بين رجل وامرأة وشاب وشابة وطفل وطفلة، وكذلك يبصقون فيه من غير مبالاة!!

وعلى كل حال فالذي كتبته عن هذه المدينة لا يخرج عن مذكرات سائح وهو ليس بشيء يذكر بجانب ما لم أره من مشاهدها، وقد تمر هنا على العين في آن واحد صور كثيرة ومناظر جمة لا يدري الكاتب ماذا يتخير منها:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

وما عساك تريد أن أكتب عن مدينة كأن الثمان والأربعين الولاية المكونة للولايات المتحدة قد اندمجت فيها مع من انضم إليها من زوار وتجار ممالك أخرى، بحيث تستلزم الإحاطة ببعض حقيقة ذلك تحليلاً واسعاً نفسانياً واجتماعياً وصناعياً وتجارياً واقتصادياً، خصوصاً في مدة يسيرة كالتي أقمتها فيها؟؟

هذه هي نيويورك التي كل ما تقوله عنها كتب الجغرافيا بمصر هي هذه الكلمة:

«ونيويورك مشهورة بكوبري بروكلن».

ابو الهول يطير
محمود تيمور (1946)

محمود تيمور. أبو الهول يطير. القاهرة: بيروت، المكتبة العصرية

كان محمود تيمور (1894 - 1973) أحد أشهر كتاب القصة القصيرة في مصر، وقد ترجم العديد من قصصه القصيرة للفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية والروسية، كما كتب روايات ومسرحيات وعدداً من الدراسات الهامة حول الأدب العربي الحديث، وفي أواخر الأربعينات من القرن الماضي، زار الولايات المتحدة ونشر سرده في كتاب أبو الهول يطير.

أيْ بُنَي:

في صباح اليوم المتمِّ للثلاثين من مارس المنصرم، دقَّ جرسُ «التليفون»، وأحَطْتُ علماً في لهجة بالغة الأدب وإن كانت لهجة حاسمةً بموعِدِ قيام الطائرة، فإذا به بعدَ أربعةِ أيام.

أيَّةُ طائرة؟ وأية أيام أربعة؟

وتذكرتُ أني سجلتُ أسمي في القنصلية الأمريكية للظَّفَر

بالأسبقية في ركوب الطائرة... كان ذلك منذ أشهر تقضَّت دون أن يتخللها حديثٌ في هذا الصدد، حتى غرَب عن بالي أني مقبِلٌ على سفر.

ها قد تبيَّن الأمر، فإذا هو جِدٌّ لا هزلَ فيه... بعد أربعة أيام أطيرُ إلى «نيويورك»... ولكن هل تكفي هذه الأيامُ الأربعة في إعداد عدَّة الرحيل؟ ألا أراجعُ ولاة الأمر لتأجيلِ الموعد؟... عبثٌ ما أفكِّر فيه!... إنها أوامرُ يتلقاها طُلاَّب الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقَّى الجنديّ أوامر القوَّاد. أليس العهدُ قريباً بحالةِ حرب؟!.. إذن فلنذعِنْ لهذا الأمر صاغِرين صابرين إذا طمِعْنا في تحقيق ما نصبو إليه.

ونهضت أعمل... ينبغي أولاً أن أحصُرَ ما يجب عليَّ أن أقوم به، وإذا بالمطالب والشؤون قد تشابكتْ وأخذ بعضُها بتلابيبِ بعض. فبأيِّ شيء أبدأ؟ وأيَّ شيء أؤَخِّر؟

وبذلتُ جهدي في حصْر الأعمال... ومَثَل لخاطري على الفوْر إعدادُ الحقائب، أستغفرُ الله، بل إعدادُ حقيبة واحدة لي، ومثلِها لزوجي... حقيبة من الوزن الخفيف، لا تزيدُ زِنَتُها على خمسةٍ وعشرين كيلو... الأمر إذاً هيِّن، إن نصف ساعة أو نحوَ ذلك ليكفي لإعداد متاعٍ لا يزيد وزنُه على هذا العدد.

واطمأنَّ قلبي، وَهدأ بالي... يبدو لي أن أهبَةَ السفر ليست من التعقيد على النحو الذي كنتُ أتصوَّره...

وما كدت أستريح إلى هذا الخاطر حتى وقَع بصري على إضمامة منتفخة تحوي بعض الأوراق الخاصة بإدارة أعمالي...

وانسرحت أفكِّر... يجب أن أصَفيَ هذه الأعمال، وأن أكِلَها إلى

من يحسِنُ إدارتَها في غيبتي... ها هو ذا عملٌ ليس بالهيِّن الميسور، ولكن إنجازَه لا بد منه على أيَّة حال!

وماذا بعدُ؟ وهنا انبرى أمامي شَبَحُ لجنة العُمْلَة، ومن ورائه تبدو أشباحٌ أخَر: المصارِف. مكاتب الصيارفة، دار شركة الطيران، وما إليها... وما لبثت هذه الأشباحُ تتدافَعُ دوني وتتواثب. يحاول كلٌّ منها أن يكونَ أول آخذٍ بخِناقي!

وفي أثناء هذا الهرْج والمَرْج أحسستُ دبيباً في دُرُج مكتبي، وَهَمْساً يَرِفُّ على مسْمَعي، وإذا بي أنصت إلى من يقول: أنَا رائدُك الأولُ... أنا مفتاحُ الطريق... لن تستطيعَ بغيري سَفَراً!

فجذبت الدُّرْجَ إليّ، فإذا بجواز السفر يعلو بهامته جدّ مُعْتَزّ، فمددتُ إليه يدي في تخَشّع، ثم انثنيتُ أميط عنه الغُبار.

أمامي تلك الأيامُ الأربعة؛ لإنجاز هذه المهام وما يتصل بها أو يتفرَّعُ منها... ومن هذه الفترةِ القصيرةِ يومُ الجُمُعَة الذي تُغْلَقُ فيه مصالحُ الحكومة أبوابَها، ويومُ الأحد الذي تأخذُ فيه المصارفُ ومكاتبُ العملة قسطها من الراحة والتعطل.

فليكنْ... أمامي يومان؛ ثمان وأربعون ساعةَ طوالٌ عراض مهما تقتطعْ منها ساعاتِ نوم واستجمام فالبركةُ فيما يَبْقى!

وشمَّرتُ عن ساعد الجدّ، وأطلقتُ ما أختزنُه من قوة ونشاط وحماس، وانطلقتُ أعمل... كان مَثلي كَمَثَل تلك الأشباح السِّينَميَّة حين يُخْطىء العاملُ في تحريكها فتلمَحُها على الستارة البيضاء خَواطفَ مضطربات!

وانكببتُ على الاستثمارات أستَوْفي تحريرها، فما أكاد أفرُغُ

من واحدة حتى تعترضَعني الأخرى. أما الإمضاءاتُ فكنت أبعثرُهَا ذات اليمين وذات الشِّمال. وجعلتُ أذرعُ الطريقَ بين لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنةِ العملة مَثْنى وثُلاث ورُبَاعَ... إن شركة الطيران تستمسكُ بموعدها لا تتأخر عنه، وإن المَصْرِفَ لا يحوِّل مليماً واحداً إلا بتصريحات مستوفية للشروط، مذيلة بإمضاءات معترف بها على أوراق رسمية، ولكن لجنةَ العملة لا يعنيها من ذلك كلِّه شيء، فأعضاؤها الموقَّرون في شُغُل بشؤونهم وآفاقهم عن ضيق الوقتِ ودقةِ الموعدِ وتعجُّلِ الناس!

وتعلمتُ بين عَشيَّةٍ وضحاها كيف أكونُ هجّاماً لجوجاً ملْحَاحاً: واستبان لي ما لهذه الصفاتِ المباركةِ من فوائدَ طالما أنكرتُها وأنحيتُ باللائمةِ على ذَويها.

ثم ألفيتُني بغتةً، وأنا أتلقَّط «الدولاراتِ» من مكاتب الصيارفة، قد أصبحتُ بالرغم مني خبيراً فَنّياً في العملة الأمريكية، أميِّز بين «الدولار» الجيِّد والزائف، الحَرْبيّ والمَدَنيّ، المُبَاح والمَحْظُور!

وأحسستُ بأعصابي تنهار...

إنها حربُ أعصاب في مُقْتَبَلِ ساعاتِ السلْم!

وأخيراً تمَّ كلُّ شيء بما يشبهُ المعجزة، ووجَدتُني مزوَّداً بكل ما هو مطلوب من التصريحات والمستندات والمُعدَّات... وألقيتُ نظرة خاطفةً على محفظةِ جيبي، فإذا هي قد تورَّمت، وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يشْبهُ التضاريس والهضاب!

وحلَّت ساعةُ الميزان، فمرَرْنا بحقائبنا في الطريق إليه، كأننا نجتاز الصِّرَاط.

ثم صَعِدْنا في السيارة الحافلة مع رِفْقَة السفر، وبدأنا نتعرفهم بنظرات حبيَّة متعثِّرة، وكأن لسانَ حالنا يقول:

أَمقبِلون نحن على سفر يسلمُنا إلى عالمنا المنشود، أم على سفر يصير بنا إلى عالم الخلود؟

وتحركتْ السيارة الحافلة، تتأثَّرُها سيارات المودعين: وكانت الساعةُ قد جاوزت الواحدةَ بعد منتصف الليل.

وقضينا الوقتَ في صمت لا يقطعُه إلا نِثارُ ألفاظ وظلال ابتسامات تضطربُ بها الشِّفاه...

ودخلْنا مطارَ «بين فيلد» تلك المدينة التي شيَّدها الأمريكيون في أحرج ساعات الحرب، تلك المدينة العامرة الزاخرة تخترقُ رحابها الطرقُ الفسيحةُ المعبَّدة، تلك المدينة التي تبدو في ظلمة الصحراءِ المترامية، وقد أضاءتْها سواطع المصابيح الكهربيَّةِ معلقةً في الفضاء أو متناثرةً على أديم الأرض.

واقتادونا إلى «الجمرك»... وما إن بلغتُ حوزتَه حتى ثارتْ في نفسي ذِكْرَيَات غيرُ محبَّبَة.

«الجمرك»... هو تلك الساقيةُ العظيمةُ تدور رحَاها في قوة وجَبَروت، ولكنها في واقع الأمر تدورُ على نبع غاضَ ماؤه، فإنك لتسمَعُ نَعِيرَ هذه الساقية يشقُّ أجواز الفضاء، ثم لا تلمَحُ لمائها من أثر!

«الجمرك»... هو تلك المؤسَّسَة التي أنشأها قوم حاقدون على البشريَّة، فاتخذوها أداةَ تنكيل، وسوطَ عذاب!

إجراءاتٌ تافهةٌ تُثِيرُ الضحك إن لم تثِر الغيظ وترْهق الأعصاب.

وظهرت الاستثمارات عوداً على بدء...

علينا أن نحررها، وأن نستوفيَها بإجابات غاية في التفاهة وحَسَبْنا هاماتِنا نكتبُ ونُمْضي. وأحياناً نَسأل:

ما المرادُ بهذا السؤال؟ وكيف يكون عنه الجواب؟

وارتفعتُ يدُ الضابط بالخاتم العظيم تضربُ هنا وهنالك في مهارةٍ حريَّة بالتقدير. إنه ليضربُ ضرباً مَحْكماً كأنما يسدِّد الطعنَ في ميدان القتال.. وأخذ الضابط الهُمَام يجفِّفُ ما تفَصَّد من جبينه في زَهْو المنتصرِ الغَلاَّب.. ألم يؤد عملاً بالغ الجلالة عظيم الخَطَر؟ إن ورقة تخلو من ضربةٍ واحدة من خاتَمِه العظيمِ كفيلةٌ أن تَقْضِيَ على صاحبها التاعس بالحِرْمان!

ثم اتجهنا إلى الخوان الطويل صُنفَّتْ عليه الحقائب...

هذا ضابطٌ آخرُ تَشَمَّر واهتَمَّ، وأخذ يتصايح:

تلك الحقيبةُ تُفتَح، أما هذه فتُحملُ إلى الخارج، ماذا في هذه اللَّفيفة؟ حذَار أن يكونَ في ذلك الصُّندوق شيء محظور!

فلا تكاد الكلمات تتناثر من فمه، حتى تتحركَ الحقائب وما إليها من الأمتعة غاديةً رائحةً كأنما تحركُها يد ساحر!

ومَثَلْنا أمامَ الخِوان، كلٌّ منا يرتقبُ نوبَتَه، فَدَهمَني شعورٌ مُمِضّ، شُعُور بريءِ تُهدَر كرامتُه، يرى نفسه في قاعةِ محاكمة وموقفِ اتهام؛ كأنه أحدُ مهرِّبي المخدِّرات!

وأخيراً أفْرج عنَّا، فخرجْنا «طابوراً» من بَهْو «الجمرك» ومن حَوْلنا الأهلُ والرِّفاق... خرجْنا إلى ساحةِ المطار، فإذا «أبو الهول» رابضٌ أمامنا، باسطٌ جناحَيه، على أهْبَة الطيران.

كان باسمه التاريخيِّ العتيق وهيكله العصريِّ الحديث. كأنما

يجمَعُ بين جَلال الماضي التليد ومَدنيَّة الحاضر المشرقة الزاهيةِ.

إنه رمزُ حضارتَيْن عظيمتيْن: حضارة «مصرَ» العريقةِ، وحضارة «أمريكا» الفتيَّة المتوثبَة.

ولبثتُ لحظةً أتأمَّله.

لستَ جماداً يا «أبا الهول»!

ما أنتَ إلا مخلوق حَيّ، طائر ضَخْم من فصيلة النسور والعقبان، بل أنت أخُو الرُّخّ وصِنْوُ العَنقَاء، طائر هائل الجِرْمِ مما تدورُ عليه أساطيرُ الأوَّلين...

نحن مقبِلون على أن نحيَا معك في أسطورةٍ جديدة نخطُّها معاً في سِفْر الوجود!

ما أبهاك في لونك الفِضِّيّ!

إنك لتتألَّقُ وَسْطَ الظلامِ كشعاعِ الفَجْر ينتظرُ خلفَ أستار الأفق البعيد.

سنُسْلمُكَ أرواحَنا أيها الطائرُ العظيم... فهي وديعتُك إن شئتَ أضَعْتها هباء، وإن شئتَ كنت لها الحافظَ الأمين.

وتلفّتُّ حولي، فإذا بي أنا وزوجي يحيطُ بنا المودِّعون.

إذاً حانَت ساعةُ الوَدَاع...

وشعرتُ بغتةً كأنّ قلبي تَهْصرُه يدٌ قاسية...

وثارتْ بي فجأةً ذِكْرَيَاتٌ... ذِكْرَيَاتٌ يَزْحَم بعضُها بعضاً... ذكْرَيَاتٌ شتى جليلةٌ وتافهة!

في هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليستْ بذات بال، أو يبدو لنا وَجهٌ نَعْجَبُ كيف انفسح له مجالُ الظهور؟

وتتداعى المشاهدُ في مُخَيِّلتنا، وتتلاحقُ سِراعاً، حتى تتجمَّع كلها، وكأنها تدور حولَ مِحْوَرٍ واحد ولا تفتأ تدُور.

وننظر إلى المودعين نظرةً ساهمة، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبّلين، وتثورُ في النفس روافدُ الشجون، وتتكشفُ للمرء منا تفاهَتُه العجيبة، وتنهارُ في لحظات تلك الشجاعةُ التي نتغَنَّى بها مُفاخرين، فنغدو نحن الرجالَ أمام وَدَاعِ طفل صغير قد تَصاغَرْنا، وأصبَحْنا في مثل حجْمه وعَقْله وشعوره!

أي بُنَيَّ:

إن ودَاع الأحياء رائعٌ مُثيرٌ لأَخْفَى كوامن الشعور، ولكن ثِقْ أنه لا يُقَاس بشيء أمام وَدَاع «الراحلين»!

إننا حينَ نودِّعُ الحَيَّ فإنما نشاهدُه ونَلْمِسُه ونناقلُه الكلام، أما «الراحلُ» فإنما نستشعرُ وجودَه فحسب... إنه يبدو من أغوار الظلمات ليطالعَنا من بعيد متخذاً له مكاناً نائياً عن الزحمة والضوضاء، لا نشافهه بحرف، ولا نودِّعه بقُبْلة، ولا نبادلُه شيئاً حتى الإشارةِ والتلويح!

ثمةَ نظرات صامتة تَصحَبُها ابتسامات رقيقة كلُّها صفاء وحنين.

هذا الطيفُ الرقيقُ يظلُّ في أفقه، لا صلة بيننا وبينه إلا صلةُ الرّوح بالرُّوح...

أي بنَيَّ:

ها هو ذا كلُّ شيء قد اختَفى من حولنا، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدَنا.

لقد تزايلتْ أصواتُ الأحياء بما تَحْمِلُ من تحية وتوديع وبَقيتَ أنتَ.

أنتَ الوحيدُ الذي ما زلتُ أراه.

إنك لتملأ عليَّ الرِّحَابَ والآفاقَ.

وإني لأحسُّ وجودَك إحساساً كلُّه صدق ويقين... وجودك مادةً متجسِّدَةً لا طيفاً من عالم الرُّوح!

حقّاً إن الموت لأعجَزُ من أن يفرّقَ بين حبيبَيْن.

إنه ليوهمنا أنه أقام بيننا الفواصلَ والحدود.

زُورٌ وبُهْتان!

ما أغفَلَك أيُّها الموت...

تحسَب أنك انتصرت، وما أنتَ إلا منهزم مقهور.

... وصعدْنا في الدَّرَج ندخل «أبا الهول».

وعشنا في جَوفه، فكأنما التَقمَنا حُوت!

وطافتْ بمُخيِّلَتي قصة «يونسَ»، فسألتُ نفسي:

أيكون حالُنا كحاله، ومآلنا كمآله!

وقصدتُ أحدَ المقَاعد، فتهالكتُ عليه.

وسمعتُ صوتَ الباب يُدْفَع بشدَّة، فإذا هو يفصِلُ بيننا وبين عالمِ الأرض!

وتراءت لأعيننا جملةٌ مكتوبةٌ بأحرف من نور:

«التدخين غيرُ مباح... ليشُدَّ كل منكم حزَامَه».

وسرعانَ ما شاهدتُ شابّاً طلقَ المحيا في حُلة رمادية رسميَّة تنطق كلُّ جارحة فيه بأنه أمريكيّ أصيل، فدنا مني في تلطّف، وأخذ يُعينني على عَقْدِ النطاق حولي، فأصبحتُ إلى مقعَدي مشدوداً لا أستَطيعُ البَراحَ.

وبدأت المحرِّكاتُ تُدَوِّي، وأحسست «أبا الهول» يتحرَّك، وما هي إلا أن رفعَ هامتَه، فإذا نحن بعدَ لحظات نشقُّ الأجواء صُعُداً إلى السماء، تحيِّينا بسماتُ السَّحَر!

أمريكا تحت الميكروسكوب
د. زكي خالد (1954)

زكي خالد. أمريكا تحت الميكروسكوب. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1954.

زكي خالد أخصائي بكتريولوجي مصري شهير عمل لدى وزارة الصحة المصرية، كما كان أيضاً عضوا في كلية لندن ليستر، وفي عام 1952 تلقى دعوة من وزارة الخارجية الأمريكية لزيارة معاهد الأبحاث الطبية في الولايات المتحدة والالتقاء بنظرائه الأمريكيين في مجال علوم الجراثيم، ومكث لمدة أربعة أشهر هناك وزار العديد من المدن الأمريكية كواشنطن ونيويورك وشيكاغو وأطلنطا، وبعض المواضيع التي شملها كتابه هي: السيناراما والطب الجنائي في أمريكا والطبخ الأمريكي والاختراعات الطبية الأمريكية المذهلة وقطع غيار للجسم البشري والشخصيات الأمريكية والاقتصاد الأمريكي وآرائه بشأن الأمريكان.

مُقدّمة

عدت مع أولادي مساء الجمعة الرابع عشر من شهر مارس سنة 1952 قافلين من السويس حيث كنا نقضي إجازة الويك إند. فوجدت في انتظاري أسعد مفاجأة ـ تلك هي خطاب سلم باليد لمن كان في المنزل هذا نصه:

وزارة الخارجية الأمريكية
السفارة الأمريكية
القاهرة في 8 مارس سنة 1952

عزيزي دكتور زكي خالد

إن حكومة الولايات المتحدة ترغب في تشجيع القادة المصريين في مختلف ميادين النشاط على زيارة أمريكا حتى يشاهدوا بأنفسهم مقدار التقدم ويتموا تعارفهم الشخصي إلى زملائهم الأمريكيين.

ونحن نأمل أن يصبح في الإمكان دعوة بعض أفراد قلائل لزيارة الولايات المتحدة لمدة تتراوح بين شهرين وأربعة خلال العام الحالي كضيوف على حكومتنا.

فإذا أمكن تنفيذ هذا البرنامج وإذا كانت هذه الفكرة تروق لك فنحن ـ نيابة عن السفير كافري ـ نود أن نقترح اسمك ضمن القادة المصريين.

ويمكن القيام بالرحلة في أي وقت خلال عام 1952 ولكن

الترتيبات النهائية لا بد أن تجهز قبل يوم 30 يونيه.

فإذا كنت تريد أن نقترح اسمك فنرجو إعطاءنا الاستعلامات المطلوبة. وعند وصولها سنرسلها إلى واشنجنتون سائلين عما إذا كان في الإمكان عمل الترتيبات اللازمة لزيارة المعاهد والمؤسسات التي ترغب فيها حتى تصل إلى معرفة طرق البحث والأفكار الأمريكية في الميادين العلمية التي تهمك.

وإنا نرجو مخلصين أن تهمك هذه الفرصة لزيارة الولايات المتحدة كضيف على حكومتنا إذ أن كلا من مصر وأمريكا سوف تستفيد من تبادل الآراء الذي تتيحه هذه الزيارة.

وإذا عنّ لك أي سؤال فإني مستعد لذلك في أي وقت تشاء.

وإني في انتظار رد عاجل منك.

المخلص روبرت بين

السكرتير الأول وضابط العلاقات العامة

وصدقني أيها القارىء لقد وصلهم الرد عاجلاً فطالما تاقت نفسي لزيارة أمريكا. لقد زرت بلاد أوروبا مراراً وتكراراً وعرفتها أما أمريكا فلا بد أنها تختلف عن كل ذلك. ولكن ما الحيلة وهي بلاد بعيدة جداً يكلف الوصول إليها الكثير وعملتها صعبة - بل صعبة جداً - ولذا كنت على يقين من أنه لا يمكن زيارة هذه القارة الشاسعة والاستفادة علمياً وأدبياً من مثل هذه الزيارة إلا إذا كان ذلك مصحوباً بدعوة رسمية بأي شكل من الأشكال.

وكانت الاستعلامات المطلوبة تشمل الدرجات العلمية التي حصلت عليها والمباحث الطبية التي قمت بها وأين ومتى طبعت.

والجمعيات والمعاهد العلمية التي أنتسب إليها والبلاد الأجنبية التي زرتها واللغات التي أتكلمها وفوق كل ذلك المعاهد والأماكن التي أرغب في زيارتها بأمريكا وقد أجبت على ذلك بأني أرغب في التعرف إلى مدى التقدم في الطب وفي بحث ومعالجة الإجرام والجرائم وفي التقدم الزراعي ثم الاطلاع على الحياة الأمريكية الحقيقية.

قلت إني سارعت بالإجابة مسروراً بأن حلى قد تحقق أخيراً. ولكني أصدقك القول إنه بعد إرسال الرد ابتدأ القلق يساورني، إذ كيف أترك عملي بل أعمالي وعائلتي وأولادي مدى أربعة شهور طوال. ولكن كان الإغراء شديداً والجائزة كبيرة تستأهل المجازفة والتضحية ولذا أخذت أرتب الأمور على اعتبار أن رد واشنجتون سيكون بالقبول.

ولأسباب عديدة تأخر وصول الرد حتى شهر يوليه مع أني كنت أمني النفس بالقيام بالرحلة خلال شهور الصيف. ففي يوم 24 من شهر يوليه سنة 1953 وصلني الخطاب الآتي:

عزيزي دكتور زكي خالد (بك)

إني سعيد أن أتقدم لك باسم حكومتي بدعوة لزيارة الولايات المتحدة كضيف على حكومتها لمدة أربعة شهور.

وستعمل الترتيبات لتقابل القادة الأمريكيين في فروع تخصصك والفروع التي تهمك ولكن التفصيلات سوف تترك لرغباتك أنت الخاصة...

الأمريكان The Americans

من ساعة وصولي إلى مصر والجميع يسألني مراراً وتكراراً ما رأيك في الأمريكان وكيف وجدتهم. وسبب ذلك أننا تعودنا في مصر أن نصف كل شيء غير عادي أو شاذ بأنه أمريكاني!! وأغلب الظن أننا كونا رأينا هذا من أن أمريكا بلد بعيد جداً عنا فمعلوماتنا عنها ليست مباشرة بل مستقاة من الأوروبيين وهم ليسوا دائماً منصفين.

وقد ذكرت لك أنه ولو أن زيارتي للولايات المتحدة كانت بدعوة رسمية من حكومتها إلا أنه ترك لي الحرية التامة منذ المبدأ في اختيار البلاد التي أزورها والناس الذين أرغب أن أقابلهم. وقد جبتها من أربعة أركانها وإن كنتَ طبعاً لم أزر كل مقاطعاتها. إلا أني التقيت بمختلف البيئات مما يسمح لي بإعطاء فكرة صحيحة عنهم ولذا سأحاول أن أجيب عن بعض ما سئلت عنه.

(أولاً): في أمريكا تجد أمامك الفرصة لتصل إلى القمة: لتصبح مليونيراً أو سفيراً أو رئيساً للجمهورية حتى ولو ابتدأت من القاع. والشرط الوحيد لبلوغك هذا الارتفاع هو أن تعمل له بنفسك - ليس هناك من يساعدك - إنها مهمتك وعليك أن تقوم بها وتتمها بمجهودك الشخصي.

(ثانياً): لا توجد هناك «طبقات» قط لا أرستقراطية ولا غيرها. حقيقة أن بعض المهاجرين الأوائل حاولوا خلق طبقة أرستقراطية وكونوا لهم مدارس خاصة ونواد خاصة وأحياء خاصة ولكن كل هذا مات نتيجة للمعارضة الشديدة - معارضة الأغلبية الساحقة. واليوم الامتياز الوحيد الذي يمكنك الحصول عليه ويميز البعض بالنسبة للبعض الآخر هو «النجاح» Success وهذا بدوره يقاس بما يمكنك

كسبه من «المال» أو «تصل إليه من مركز علمي أو أدبي، فهل تعجب إذن عندما ترى كل فرد يشتغل ويشتغل ليزيد من مقدار ما يكسبه حتى يمتاز على غيره. ومن منا لا يحب أن يمتاز؟ ثم إن المال هو الطريق الوحيد للحصول على كل هذه المتع المعروضة في الحوانيت للاستعمال في المكاتب والمنازل وكذلك لرفع مستوى الحياة المادية والثقافية لك ولعائلتك.

والبعض يعيب على الأمريكي سعيه لجمع المال ولكن قل لي بالله أين هذا الشخص أو الأشخاص الذين لا يحبون المال. في أوروبا (وغيرها) نرى الأرستقراط والهيئات الحاكمة تستنزف أموال الملايين بالضغط والضرائب، أما في أمريكا فلا توجد طبقة أرستقراطية تمتص الدماء وحتى المليونير تراه يستمر في العمل ليظهر لمواطنيه أنه لا يزال قادراً على الإنتاج.

وهناك حقيقة لمستها وهي أن الأمريكي لا يحكم عليك بمقدار ما تملك من مال أو مركز عال بل بالكيفية التي حصلت بها على هذا المال وذلك المركز، فمثلاً وجدتهم لا يوافقون على جمع المال لغرض تعليمي (وهو غرض شريف) عن طريق عمل اليانصيب بل يفضلون أن يكون ذلك عن طريق التبرعات.

قارن كل هذا بما يجري في أوروبا: في فرنسا مثلاً، هناك الدوطة وكلما كانت أكبر كلما زاد إغراؤها بل إن «حضرة العريس» قد يكسب مرتبه من تشغيل هذه الدوطة في تجارة أو صناعة. أما في الولايات المتحدة فتجد أنه مهما كانت ثروة والدي الزوجة. عظيمة فالعادة أن الزوجين الشابين يعيشان في حدود ما يكسبه الزوج إذ هو

يشعر بالمهانة إن اعتمد على ثروة حماه.

وهناك ظاهرة أخرى رائعة تلك هي أن الأمريكي عندما يحصل على قدر من المال ـ كبر أو صغر ـ فليس المهم عنده أن يحتفظ به بل أغلب الظن أنه يسعى للانتفاع به بطريقة أو بأخرى. وإذا فقد الأمريكي كل ماله فلا يشعر أنه فقد جزءاً من نفسه ويروح يصخب هنا وهناك ويشكو لكل إنسان بل العكس هو الذي يحصل إذ يجتهد الأمريكي أن يخفي كارثته حتى لا تفسر على أنه لم يفلح في عمله. وبدلاً من الصخب يبدأ من جديد لإصلاح حاله وتكوين ثروة جديدة مستفيداً بما يكون قد ارتكبه من أخطاء بينما الأوروبي في ظروف مماثلة يثير العالم أجمع بل يسر كل السرور إن أمكنه الحصول على المال بدون أي تعب. وقد كتبت صحيفة باريسية عقب الأزمة المالية التي حصلت عام 1930 تقول: «لو حصلت هذه الأزمة في فرنسا لرأينا كارثة وذعراً ومصائب وانتحارات ومظاهرات في الشوارع وإضرابات وأزمة وزارية كل ذلك في يوم واحد».

أما في أمريكا فكل شيء هادىء وضحايا الموقعة جالسون يحصون خسائرهم ويستجمعون أفكارهم ويرتبون مستقبلهم ـ ثم مضت الصحيفة تقول: «حقاً إن فرنسا وأمريكا عالمين مختلفين في حضارتيهما وفي طرق تفكيرهما»

كل هذا حق ولكن لا بد لي أن أعترض على استمرار الأمريكي في جمع المال حتى بعد وصوله إلى سن متقدمة. إن إغراء المال شديد ـ هذا حق. ولكن للجسم وللروح مطالب لا بد من الاستجابة إليها والاستجابة إليها في الوقت المناسب. أما إذا ظننا أننا يمكن تأجيل

هذه الاستجابة حتى ننتهي ـ وهي لن تنتهي ـ فأغلب الظن أنه لن تتاح لنا هذه الفرصة للراحة والاستمتاع أو سوف نجد أنفسنا ـ عندما تتاح ـ أننا أصبحنا في حالة صحية لا تسمح بأي استمتاع. أنظر للقوم في نيويورك ـ يخيل إليك وأنت تراهم في المكاتب أو الشوارع أنهم جميعاً في سباق سريع مريع.

(ثالثاً): وجدت الأمريكي مستعداً دائماً ليريك عمله ويشرح لك دقائقه ويدلك على كيفية تنفيذه ـ وقد تظنه مفاخراً ـ وماذا في هذا ـ غير أنه يحب منك بل ويلح عليك أن تقلده وتقوم بنفس العمل. وقد نعد هذا منه سذاجة لو قسناه بالمعايير الأوروبية ولكنها في حقيقة الأمر علامة الثقة بالنفس.

(رابعاً): الأمريكي شخص طيب القلب سهل التعرف إليه كما هو الحال عندنا في مصر وهو عندما يلقاك يصاحبك ويفضي لك بمكنوناته من مسرات ومن متاعب. وقد جعلني هذا الخلق الرضي أستمتع بكل دقيقة قضيتها في الولايات المتحدة وكونت لي صداقات كثيرة وإني لمسرور أني أتلقى منهم خطابات رقيقة عزيزة منذ عودتي من أمريكا.

(خامساً): لقد تغيرت نظرة الأمريكي إلى البلدان الأخرى والأمم الأخرى تغيراً حاسماً في السنوات الأخيرة. وكان مبدأ العزلة هو الذي تدين به الغالبية من السكان وأغلب الظن أن هذا كان سببه أنهم أصلاً من المهاجرين الذين تركوا بلادهم نتيجة لعدم الرضا عن حالتهم المالية أو الدينية أو السياسية أو الاجتماعية فلم يكن لديهم أي ميل لتذكيرهم بالدنيا القديمة ومتاعبها. يضاف إلى ذلك أنهم أصبحوا الآن في بلاد تكفي نفسها بنفسها وتغني أهلها.

كلمة ختامية

عندما كنت أزور معهد الأمراض المعدية في مدينة أطلانتا (بولاية جورجيا) عرضوا عليَّ وظيفة بحاثة في البكتريولوجيا فشكرتهم شكراً جزيلاً ولكني اعتذرت عن قبولها. وفي مرة أخرى كنا في اجتماع خاص وسئلت هل أفضل العيش في إنجلترا أو في أمريكا ولكني أجبت أني أفضل زيارة إنجلترا وزيارة أمريكا ولكني أحب أن أعيش في مصر.

وتسألني يا قارئي العزيز لماذا اعتذرت عن قبول الوظيفة ولماذا أعطيت ذلك الجواب لأصدقائي وصدقني أني لا أعرف الرد على وجه التحقيق: قد تكون هي هذه البلاد (مصر) ومناخها المعتدل ـ قد تكون العائلة ـ وقد يكون السبب أن مصر الحبيبة أسعدتني أدبياً ومادياً أو قد يكون أني قد عشت هنا مدة طويلة لا تسمح لي بعمل أي تغيير الآن أو قد تكون كل هاته العوامل مجتمعة. صدقني لا يمكنني أن أخبرك على وجه الدقة. ولكن تعزيتي هي أن أصدقائي الأمريكان الذين سبق أن خدموا في مصر (وأولادهم الصغار أكثر منهم) كلهم يتوقون للعودة إلى مصر والعيش فيها مرة أخرى.

فهم لا يطلبون إلا أن يتركوا وشأنهم ولا يريدون أن يشتركوا في هذه المشاكل التي لا نهاية لها ولا حتى يريدون أن تذكر لهم.

ولكنهم بعد أن اشتركوا في حربين عالميتين أخذ الجندي الأمريكي والمواطن الأمريكي يشعر أن العالم «وحدة» لا تتجزأ فإذا أردت أن تعيش «حراً» فيجب أن يكون غيرك أيضاً «حراً» ثم وجدوا أن السياحة وتبادل الآراء ممتع حقاً ولذا أصبح أنصار العزلة قلة واضحة

بل أن «البندول» انتقل إلى الجانب الآخر بصورة واضحة. وإني هنا لا أتكلم عن الضمان المتبادل أو النقطة الرابعة أو ما إلى ذلك فهذا ليس مكان بحثها فضلاً عن أنها سياسات رسمية حكومية. بل إني أتكلم عما لمسته شخصياً أثناء رحلتي. فمثلاً في اليوم الثاني من وصولي إلى واشنجتون دعيت لزيارة المركز الدولي (Center International) وهناك استقبلت استقبالاً ودياً للغاية وتعرفت إلى القائمين بأمره وقدموني بدورهم إلى الضيوف وهم «قادة» من مختلف بلاد أوروبا وبعض بلدان آسيا فكانت فرصة طيبة للتعرف بهؤلاء السادة الأفذاذ وتكلم كل منا عن بلده ومشاكله وكان ما سرني أكثر من غيره أن رئيس الاجتماع وهو أمريكي قال وكرر أن الناس -في كل بقاع العالم- كلهم سواء وأننا ـ أي الزوار ـ سوف نلحظ في خلال رحلتنا أن هناك تبايناً بين بعض سكان الولايات وبعضها الآخر أكثر من التباين الموجود بين الأمريكان كمجموعة وغيرهم من الأمم.

وأنت ترى معي أن هذه روح طيبة بل طيبة جداً إذ ينشأ عنها تفاهم وهذا التفاهم قمين بأن ينتج سلاماً عالمياً.

ولا أدل على الروح الجديدة لدى الأمريكان وتركهم دين العزلة ـ من أني كنت أطالب أينما حللت أن أتكلم عن مصر وأشرح بواعث الإنقلاب الذي قمنا به ونوايا العهد الجديد ومشاريعه. خطبت في نيويورك وواشنجتون وروتشستر وسان فرنسيسكو. وفي سان دييجو لم يكتف أبطال البحرية في هذه المدينة الأخيرة بالاستماع والمناقشة بل طلبوا مني أن أبعث بتحياتهم الحارة إلى الجنرال نجيب وأطيب تمنياتهم في نجاحه هو والشعب المصري في عهده الجديد (وقد قمت مسروراً بتبليغ الرسالة في حينها).

(سادساً): أما كرم الضيافة الأمريكي فحدث عنه ولا حرج وأنت ولا شك لتعجب عندما تجد أحد كبار رجال الأعمال يترك مهامه ليستضيفك ويكرمك ويتحدث معك عن كل المواضيع. بل إن كل من تتعرف إليه يدعوك لشراب أو طعامٍ حتى لو كنت في نيويورك؟ وإني أنتهز هذه الفرصة لأشكرهم جميعاً لا لكرمهم فقط (الذي يذكرنا بكرم العرب الأمجاد) بل للفرصة العظيمة التي أتاحها لي هؤلاء الأصدقاء لأدرس الحياة الأمريكية والخلق الأمريكي.

أرض السحر
شفيق جبري (1962)

شفيق جبري. أرض السحر. دمشق: الفن الحديث الإعلامي، 1962.

شفيق جبري أكاديمي سوري ومؤلف زار الولايات المتحدة عام 1953 بناءً على دعوة من الحكومة الأمريكية، وكان عند دعوته عميداً لكلية الآداب في جامعة دمشق، وخلال إقامته في الولايات المتحدة شارك في مؤتمر حول الثقافة الإسلامية مولته جامعة برينستون، ونشر انطباعاته حول الأمريكيين في كتابه أرض السحر عام 1962، ويقع الكتاب في فصول يحمل كل منها إسم مدينة أمريكية زارها المؤلف.

xxx

كتب لي أن أرحل إلى أميركة رحلتين: الأولى سنة 1953 والثانية سنة 1956 ولقد جلت في مناكب أرضها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فنعمت بكثير من مشاهد طبيعتها وأنست بكثير من جامعاتها ووقفت على بعض خصائص الأميركان في آفاق تفكيرهم واجتماعهم وعملهم واطلعت على طائفة من مجهوداتهم في مقاومة الطبيعة بعد مقاومة الهنود، وكنت أدون كل يوم ما توحيه إلي هذه الأمور حتى نشأ هذا الكتاب الذي سميته: أرض السحر، وشرحت في بعض فصوله السبب في هذه التسمية، فإذا استطاع القارىء الكريم أن يرى

في تضاعيفه ما أبقته الرحلة في نفسي من مختلف الآثار التي أعربت عنها جرياً على الطبع وحده وبعداً عن أي تكلف وإيثاراً لكل تجرد فقد ظفرت بما أردت.

شفيق جبري

دمشق. آذار 1962

الحياة المسلوقة

لي في «صوت أميركة» في واشنطن بعض معارف من لبنان وسورية، وقد دعاني فريق منهم إلى الغداء في مطعم في بناء دار الإذاعة نفسها، فانحدرت معهم إلى «الكافتريا» وهو اسم المطعم الذي يخدم الإنسان فيه نفسه، فوجدت الناس رجالاً ونساء قد لزموا صفوفهم حتى يصلوا إلى معارض الأكل حيث يختار كل واحد منهم ما يشاء من الألوان ويحمل ما يختاره في صينية ويذهب به إلى مجلسه، وقد اقترح علي الإخوان أن ألزم مجلسي وأن لا أحمِّل نفسي مشقة اختيار الأكل ففعلت، وبعد دقائق جاؤوا بصحونهم وجلسوا ليأكلوا واعتذرت لأني لا أهضم طبخ الأميركان.

في أثناء الحديث وقع نظري عرضاً على ألوان الأكل فوجدت في بعض الصحون بيضاً مسلوقاً وبطاطا مسلوقة وخضرة مسلوقة، وقد كنت أفضي إلى الإخوان برأيي في الحياة الأمريكية، فقلت لهم: ما أشدّ وجه الشبه بين أكلكم وبين حياتكم، أن أكلكم على ما أرى كله مسلوق، وأن حياتكم كلها مسلوقة، فما كدتم تدحرجون الأكل في

أفواهكم حتى قلتم لي: اعذرنا نريد أن نرجع إلى العمل، فاسمح لنا بأن ندلك على الطريق.

لقد دلوني على المخرج من دار الإذاعة، فودعتهم وانصرفت إلى مطعم عربي ألفته وهو: مطعم بغداد.

أفضت كثيراً على السفرة في الاعتراض على الحياة الأميركية، اعترضت على هذه الحياة التي لا يعرف فيها صاحبها راحة ولا تسلية، فكان الإخوان يوافقون حيناً ويخالفون حيناً، اعترضت على هذه الحياة التي تتعب العقل والفكر، حتى أصبح الإنسان فيها آلة من الآلات، فهو يشتغل من الصباح إلى الظهر، فيسلق غداءه سلقاً، ثم يعود إلى العمل، فما يكاد يخرج منه حتى يسرع إلى العشاء في بعض المطاعم، فإذا فرغ من العشاء ذهب إلى السينما أو إلى النوم، فلا فراغ يتحدث فيه إلى أصدقائه، ولا فراغ يخلو فيه إلى أهله، فكأن الدنيا كلها عمل، وكأن البدن ليس له حق على صاحبه، وكأن الروح ليس لها نصيب من المتعة، فالأحاديث أكثرها يتعلق بالمادة، بالأرقام، بالدولارات، فالدنيا كلها بيع وشراء، ربح وخسارة، أخذ وعطاء، فلا نادرة تسلي القلب، ولا طرفة حلوة تسلي الروح، هذه هي الحياة في أميركا، ما خلا ليالي السبت والأحد، فإن الناس يأخذون فيها نصيبهم من اللذة، كل على قدر إمكانه.

قال لي أحد الإخوان: ولكنك إذا سألت الأمريكان عن رأيهم في هذه الحياة وجدتهم مسرورين بها، راضين عنها، قلت له: لا غرابة في ذلك، فإني أعرف بعض الفلاحين في بلادنا وأخالطهم من زمن بعيد، يذهب أحدهم في طلوع الشمس إلى المرعى أو إلى الحقل ومعه

أربعة أرغفة من الخبز، وبضع حبات من الزيتون، ثم يعود في المساء ويتعشى وعشاؤه الخبز والبطاطا أو الزيتون أو البصل أو البرغل، فلا يكاد يفرغ من عشائه حتى ينام هو والدجاج في وقت واحد، ثم يستفيق في مطلع الفجر وهو راض عن حياته، مسرور بها، لأنه لا يعرف غيرها، ولم يبل نمطاً آخر من الحياة، وهكذا الأميركان الذين رضوا بحياتهم على هذا الشكل وهم لو جربوا نوعاً آخر من أنواعها فيه بعض المرح والانبساط لعدلوا رأيهم في حياتهم المتعبة.

تعشيت مرة في مطعم أصحابه من قرى فلسطين فوجدت على سفرة أربعة من الأمريكان وأربعاً من الأمريكانيات، فشربوا ما شربوا من النبيذ، وأكلوا ما أكلوا من اللحم، وأخذوا يتساقطون الأحاديث، وإنهم لكذلك إذ جاءت عائشة صاحبة المطعم بالدف والدربكة، وأخذت تنقر على الدف مرة وعلى الدربكة مرة، وقام إبراهيم وهو فتى أمريكي من قرى فلسطين، ورقص الدبكة على نقرات الدف والدربكة، فاغتنمت هذه الفرصة لأرى تأثير ذلك في الأمريكان والأمريكانيات، فما كاد الرجال والنساء يرون رقص الدبكة ويسمعون نقر الدف حتى قاموا إلى وسط المطعم، وأخذوا يرقصون الرقص الذي لا أقدر على وصف حركاته، وبينهم امرأة أمريكية غاية في الجمال وحسن القوام والرشاقة، كادت تخرج من نفسها من كثرة المرح والسرور. ثم هدأ الدف وهدأت الدبكة وانصرف كل واحد إلى سبيله.

هذه الصورة دلتني على مقدار خنق الأمريكان في جوهم، فهم لا يجدون متنفساً إلا تنفسوا منه، وليس تفنن هذه السيدة الأمريكية في رقصها إلا تعبيراً عن تنفسها، فالأمريكان راضون بحياتهم لأنهم

لا يعرفون غيرها، أمَّا إذاٍ ألفوا نوعاً آخر من الحياة فيه نقر الدف ورقص الدبكة تعوذوا بالله من هذه السنين التي يقضونها في حياة مسلوقة.

وليمسبرغ Williamsburg
العقلية الأمريكية

لا أريد أن أخادع أحداً، فأدعي الإحاطة بالعقلية الأمريكية، فإن عملاً مثل هذا العمل تستلزم دراسته سنين طويلة، فلا بد في معرفة هذه العقلية من دراسة تاريخ أمريكا وجغرافيتها، ثم لا بد من الوقوف على عناصر الأمم التي استعمرتها في بدء الأمر، ثم لا بد من دراسة أحوال جامعاتها ومدارسها وقوانين حكوماتها وأوضاع طبقاتها المختلفة في كل ولاية من ولاياتها، ثم لا بد من مخالطة هذه الطبقات إلى غير ذلك من الأمور التي لا تتم إلا في زمن طويل.

ولكني إذا قلت العقلية الأمريكية أردت بذلك ناحية صغيرة مجملة على قدر ما تتحمله خواطر رحلة، فهذه خواطر خطرت في سرعة البرق، وقد يكون في بعضها جزء من الحقيقة، ولكنه جزء صغير على كل حال.

دخلت مكتبة في واشنطن لأشتري كتاباً في فقه اللغة الإنكليزية ألفه أستاذان في جامعة «هارفرد» وهي من أكبر جامعات أمريكا، فوقعت عيني على كتاب في النحو والبيان والإنشاء، صاحبه معاون أستاذ في جامعة «نيويورك»، فاشتريت هذا الكتاب وشرعت في مطالعته،

وسرعان ما تجلَّت لي في تضاعيفه ناحية من نواحي العقلية الأمريكية.

يشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول، فإذا بحثنا عن مشتملات كل فصل من هذه الفصول وجدنا أنها عبارة عن جواهر الأمور دون تعقيد ولا تركيب، وفي كل واحد من هذه الأمور مثل بسيط بحيث يحفظ الطالب التعريف والمثل دون شيء من التعب، ثم إذا بحثت عن ضرب الأمثال والتمرينات فيه وجدت أنها تتعلق بأمور تقع عليها حواس الأميركان، ففي بعض الأمثال المضروبة ذكر «الفيتامينات» فإن للفيتامينات في أمريكا عملاً عظيماً، فتجد أكثر شباب الأمريكان وأطفالهم أصحاب بنية عجيبة في القوة، لأن الغذاء في أمريكا عنصر من أهم عناصر هذه البنية، يضاف إليه عنصر آخر وهو الرياضة.

وهكذا فإنك تجد فصول الكتاب كلها على هذا الشكل من البساطة والسهولة، وفي آخره فصل يتعلق بالرجوع إلى المكتبات والمصادر والفهارس، بحيث يفرغ الطالب من قراءة الكتاب وقد ألم، ولا أقول أحاط، بشيء من كل ما يحتاج إليه من ضبط العبارة وتنسيقها والرجوع إلى البحث.

هذه صورة من خصائص العقلية الأمريكية. إن الأمريكان وقتهم ضيق، وأن خلقهم ضيق، فهم يريدون أن يحصلوا على أكثر ما يمكن من أمور المعرفة في أقل ما يكون من الزمن، يريدون الوصول إلى جواهر الأمور في سرعة غريبة، فهذا الكتاب حشر فيه صاحبه أموراً تتعلق بالنحو وقواعد البلاغة والإنشاء، ولو شئنا أن نضع كتاباً في كل باب من هذه الأبواب لضاع فيه القارىء.

الأمريكان على تعبير هذا العصر عمليون، فإن للزمن قيمة

عندهم كبيرة، فهم لا يريدون أن يضيعوا الوقت في العرض دون الجوهر، ولذلك نجد أساتذتهم يهيئون لهم المعرفة كما يهيىء أصحاب العقاقير «البرشانات» للمرضى حتى يسهل بلعها، أن مكتباتهم كثيرة ومصادرهم وافرة، ولكن أخلاق الطلاب ضيقة، فقد دخلت مرة جامعة من الجامعات، فوجدت أن الأستاذ قد هيأ درسه على ورق وشرع في الإلقاء وبعد خمس دقائق سأله أحد الطلاب سؤالاً، فطرح الأستاذ أوراقه وأخذ يجيب الطالب عن سؤاله، وبعد أن فرغ من الجواب سأله طالب آخر، وما زال طالب يسكت وطالب يسأل حتى انقضت الساعة والأوراق التي هيأها الأستاذ بقيت على حالها.

إن الطالب في أمريكا لا يتسع خلقه للأمور المجردة، فإنه يريد الوصول إلى المعرفة المحسوسة في أقرب وقت، وهذا على ما أظن يضيق آفاق التفكير في الطلاب الأمريكان، لأنهم يعتمدون على قول الأساتذة أكثر من اعتمادهم على عقولهم الخاصة.

هذا شيء يسير من خصائص العقلية الأمريكية: أعطني أكثر ما يمكن عطاؤه في أقل ما يكون من العناء، فلا أنسى حديثاً دار بيني وبين أحد ضباط الأمريكان الشباب، قال لي: حدثني عن عادات بلادكم ومآكلها ومشاربها وملابسها وأعمالها، فإن هذا الضابط يريد أن يعرف كل ما له صلة بسورية في سهرة واحدة.

أنا نجد فرقاً بين العقليتين الأمريكية واللاتينية، فقد قابلت بين كتاب في حياة الألفاظ الإنكليزية وبين كتاب في حياة الألفاظ الفرنسية، فإن الأستاذ الفرنسي يمهد لدراسة حياة الألفاظ بشيء من عوامل علم النفس والاجتماع وغير ذلك حتى يصل إلى ميلاد الألفاظ

وحياتها وموتها، ولكن الأستاذ الأمريكي يدخل موضوعه دون شيء من التمهيد الذي لا تتحمله عقول الأمريكان.

أميركا في الكتب

عدت من بلد صغير على أبواب واشنطن دعاني إليه أحد أصدقائي الأمريكان لأرى الثلج وقد غطّى دوره الأنيقة وشوارعه الهادئة، فأحببت أن أتملصِ من عظمة واشنطن، فأقبع في الفندق، فأعيش في كتاب ساعة من الزمن.

قال عميد كلية السياسة في «نيويورك» في بعض مقالاته:

«إني أعتقد أنه لا يمكن أن يتم شيء من خير الحياة وعدلها وسعادتها في أي مجتمع تكون السلطة الاقتصادية أو السياسية فيه محصورة في أيدي فرد من أفراده أو جماعة من جماعاته، وأنا أرى كما كان يرى الرئيس «جفرسن» أن البشر لا يستطيعون أن يبذلوا مجهوداً في الوصول إلى السعادة وأن تنجح مجهوداتهم إلا إذا كانوا يعيشون في مجتمع ديموقراطي ولو ناقصاً.

إني أعتقد أخيراً أن الناس على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم يمكنهم إدراك هذه الغايات البشرية، وإذا نحن أحسنا الانتفاع بمداركنا الاجتماعية وبحدود العلم المديدة فسيأتي يوم لا يسفك فيه دم ولا يشتد فيه بعض ولا مرض ولا فقر، ولا يخاف فيه الناس ما يخافونه من مجهولات الأمور خوفاً هداماً».

لما فرغت من قراءة هذه الأفكار الناضجة عرضت لي

مناقضات أمريكا ففي زيارتي الأولى لها غلبت علي فتنة طبيعتها وعظمة جامعاتها، فلم أجد سبيلاً إلى التفكير، أمَّا الآن فقد نجوت من سحرها الأول، وأخذت أنظر إلى الأمور نظرة مستقلة. يحار الإنسان في مناقضات أمريكا، لا أدري هدف الكاتب لما قال ما قال، أهو يغمز من بعض أفراد وجماعات في أمريكا نفسها، أم هو ينظر إلى أمم ثانية، على أنه لم يخطىء في الأمرين معاً، أن في أمريكا كثيراً من الأمور التي أشار إليها، ففيها السلطة الاقتصادية محصورة في أيدي أفراد أو جماعات، وفيها السلطة السياسية محصورة في أيدي الجمهوريين أو الديموقراطيين، ولكن الذي يسكت الناس في أمريكا إنما هي هذه الرفاهية البالغة التي تكاد تكون لا مثيل لها في العالم، على أن الناس يشكون كثيراً، فهم يشكون الضرائب أو يشكون اليهود أو يشكون كثرة العبيد أو غير ذلك، ولكن وراء هذه الشكاوى حياة رغيدة طيبة تلهي الناس، فترى العامل يكسب ما يكسب وفي آخر النهار يستطيع أن يشرب ما يريد، وأن يأكل على قدر إمكانه، وكذلك صاحب الحالة الوسط، وكذلك الأغنياء الذين لا يشكون إلا وجع القلب أو الرأس أو الكبد.

هذا هو الذي يهدىء الأمريكان ويسكتهم، فلا يهتمون بحصر السلطة الاقتصادية أو السياسية في أفراد أو جماعات، فهم حاصلون على خبزهم ولحمهم ودفئهم وسائر حاجياتهم، لقد وصلت أمريكا في هذا المعنى إلى أعلى ما تصل إليه رفاهية الحضارة المادية، هذا قول حق لا بد منه، ولكن ماذا بعد هذا كله. هنا بدء المشكلة.

إني لا أرى في أمريكا روحاً أمريكية واحدة في جميع ولاياتها،

فالمدارس والجامعات التي تربي النشء لا تفرغهم في قالب واحد، فإن هذه الجماعات التي استعمرت أمريكا قد جاءت بأخلاقها وتقاليدها وعاداتها، ولا يزال فيها شيء من هذا كله. فكأني لا أزال أسمع هذا البقال الإيطالي يغني بإيطاليته بعد أن أقام بأمريكا خمساً وثلاثين سنة، وكأني لا أزال أرى هؤلاء الشباب من قرى فلسطين والأردن يرقصون الدبكة في بعض مطاعم واشنطن وكلهم من التابعة الأميركية. وكأني لا أزال أسمع هذا الشاب الدرزي وقد جاء من لبنان لخدمة الجيش، كأني لا أزال أسمع لهجته القوية: أإذا كنت أمريكياً أأتخلى عن عروبتي!

فالأميركان لم يفرغوا في قالب واحد من الفكر والشعور والذوق، فإذا اشتدت أزمة في داخل البلاد في يوم من الأيام وعجزت الحكومة عن معالجتها أو إذا أصيبت أمريكا بهزة عنيفة من خارج البلاد، فاختل هذا النظام الاجتماعي الذي جعل الناس كلهم يأكلون ويشربون وينامون ملء أفواههم وبطونهم وعيونهم، فماذا يصيب أمريكا حينئذ؟ قال لي بعض الأمريكان والأمريكانيات: إذا وقع شيء من هذا كله فلا خوف على أمريكا لأن الأمريكان كلهم يفنون في المحافظة على بلادهم، أمّا أنا فإني ما أزال أسأل نفسي هذا السؤال: أإذا وقع شيء من الذي ذكرته أستبقي هذه العظمة التي لا نظير لها في العالم، أم سينهار هذا البنيان الشامخ لأنه كالفسيفساء، وليس هو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

طبقات

أجل، إن في الولايات المتحدة طبقات، وهمِّي الآن أن أشير إلى تباعد هذه الطبقات في طراز عيشتها. لي صديق من دمشق يقيم بواشنطن من سنين، يدرس فيها ويدرس، دعاني ذات ليلة إلى العشاء في فندق من الطراز الأول اسمه: «شورام» Shoreham أستطيع أن أقول أن هذا الفندق من أعظم الفنادق في العالم، ولا ريب في أن الذين يقصدون إليه إنما هم من طبقة الأغنياء الموسرين، يلبس الخدم في مطعم الفندق ملابس الإنكليز في بدء استعمارهم لأمريكا، ويأكل الناس ويشربون ويرقصون على أنغام من أعذب الأنغام، وتظهر آثار الفخامة على كل بهو من أبهاء الفندق، والذين زاروا باريز وأكلوا في مطاعمها المشهورة يستطيعون أن يتصوروا عظمة فندق «شورام».

تقصد إلى هذا الفندق على نحو ما قلت طبقة أصحاب المال، أو أصحاب المناصب، ونجد في شارع من شوارع واشنطن المشهورة اسمه: Avenue Connecticut فندقاً آخر وهو: Flower May تختلف عظمته عن عظمة «شورام» فيه مطعم فخم وفيه أبهاء فخمة كنت أجلس فيه أكثر الأحيان، وأرقب وجوه الناس، وجيئتهم وذهوبهم، فيخيل إلي أن هؤلاء الناس أكثرهم من اليهود الأغنياء، واهتمامهم بمصالحهم أكثر من الاهتمام بأكل فاخر أو بشرب سائغ أو بأوتار وأنغام.



امريكا الجنة والنار
عادل حمودة (1982)

عادل حموده. أمريكا الجنة والنار. القاهرة: روز اليوسف، 1982.

عادل حموده صحفيَ شهير، وقد زار الولايات المتحدة في أوائل الثمانينات ونشر سرده تحت عنوان «أمريكا الجنة والنار» ويبين غلاف الكتاب فم امرأة مفتوح ذو شفاه لامعة مستديرة وأسنان براقة تمسك برصاصة عليها صورة راعي بقر، وتتضمن المواضيع التي غطاها الكتاب الحرية في أمريكا وسر الرقم 40 في أمريكا ولتمارين الرياضية على شاشة التلفزيون والإنسان الآلي في أمريكا والتمييز العنصري ضد الأمريكيين السود وصورة «العربي القذر» في أمريكا و الإسلام الغريب في أمريكا واليهود الأمريكان وهوليوود والأمريكان الأصليين والفكاهة الأمريكية والفن.

بيت أبيض في مدينة سوداء
نيويورك.. قلب أمريكا.. مدينة بلا قلب..
مدينة توجع قلبك...

بعد ثلاث دقائق من وصولي أمريكا، صافحتني نيويورك بحرارة زائدة عن الحاجة...

خارج مطار «جون كيندي» فوجئت بيد قوية، خشنة، توضع بعنف، على كتفي.. اقشعر بدني.. ارتعدت.. التفت في فزع.. ازداد فزعي.. عملاق أسود، يبتسم، بأسنانه البيضاء، ابتسامة صفراء.. سقط قلبي على الأرض.. وقع قلبي بجانب حقيبتي.. انتقل لون ابتسامته إلى جلد وجهي.. طويل.. طويل.. يرتدي في عز الحر، والرطوبة، جاكت جلد، مبطن بالفرو.. يضع بنطلونه في «شراب» يصل إلى ركبته.. ويضع «الشراب» في شبشب بلاستيك رخيص..

توقعت مصيري!

مطواه في جنبي.. سرقة نقودي.. خطف حقيبتي.. شيء من هذه العينات...

أشار إلى بطنه، وهو يهز وسطه، ويحرك رأسه، وقال:

- أنا جائع!

حاولت أن أبدو متماسكاً، وتوددت إليه، كصديق قديم وقلت:

- كم يكفيك، يا صديقي، لتأكل!

رفع يده من فوق كتفي، ووضعها في وسطه وقال:

- سيجارة!

وقبل أن أمد يدي لعلبة السجائر، كان قد التقطها، من جيب القميص، واحتفظ بها.

اشعل سجارة، وقال:

- ثلاثة دولارات!

تحسست النقود في جيبي، حاولت أن أقرأ قيمتها بأصابعي، التقطت ورقة توسمت فيها التواضع، فخرجت ورقة من فئة «عشرة دولارات».. اعتذرت لعدم وجود فكة، فخطف النقود من بين يدي، وفر مسرعاً، كملاك طيب.

كان ملاكاً طيباً بالفعل...

باع لي حياتي بعشرة دولارات، وعلبة سجائر ناقصة سعر رخيص.. لكنه سعر الإنسان في نيويورك.

كل شيء غال في نيويورك إلا الإنسان.

بين كل ألف شخص في نيويورك يتعرض واحد لحادث اعتداء، أو سرقة، أو قتل، كل يوم.

بين كل مائة شخص في نيويورك يعيش 22 شخصاً بلا عمل. وبلا فرصة عمل، وبلا نقود أحياناً.

بين كل ألف شخص في نيويورك ينتمي 9 أشخاص لعالم الجريمة السري الرهيب..

بين كل مائة شخص في نيويورك يعيش 15 شخصاً تحت مستوى الحياة.. بالقرب من الخط الوهمي الفاصل بين الإنسان والحيوان..

بالقرب من خط الفقر.

والذي يرى منظر نيويورك من السماء، لا يتوقع هذه البشاعة على الأرض.. أرضها.

منظر نيويورك من الجو، ليس منظراً غريباً على...

رأيته من قبل في عشرات الأفلام الأمريكية.. مكعبات وأشجار من الإسمنت والحديد والزجاج والألمونيوم.. غابة من ناطحات السحاب.. مدينة من «الميكانو».. مدينة تتحدى السماء.. وترفس بحذائها الأرض.. وهي أيضاً مدينة لا تحب أحداً.. لا تحترم أحداً.. لا تستسلم لأحد.

قلوب أهلها من الإسمنت.. خيوط أعصابهم من سيوخ الحديد المسلح.. عواطفهم من الألمونيوم.. كلماتهم زلط.. وانفعالاتهم زجاج.. يأكلون لحم بعضهم البعض بلا رحمة.. يمزقون ثياب وجسد الغريب بلا تردد.. يبيعونك، ويقتلونك، بدولار.

الناس في أمريكا يتصافحون بابتسامة رقيقة، إلا في نيويورك، يجاملونك بعبارات عابرة إلا في نيويورك.. يعتذرون لك، إذا احتكوا بك، إلا في نيويورك.

وفي نيويورك، على عكس باقي مدن أمريكا، زحام، وصخب وكلاكسات، وأزمة مرور، وقلة ذوق، وتاكسيات لا تتوقف لك. وليس صدفة أن يتحكم اليهود في هذه المدينة.

فكل شيء، في نيويورك، له ثمن.. كل شيء يباع ويشترى.. كل ما يخطر على بالك، وما لا يخطر على بالك يباع ويشترى في نيويورك.

ليس صدفة أن يعيش في نيويورك ثلث يهود أمريكا، وأن يعتبروها

مدينتهم المفضلة...

فهم يسيطرون على نيويورك، ونيويورك تسيطر على أمريكا، وأمريكا تسيطر على العالم..

من البورصة إلى صناعة الملابس.. من شبكات التليفزيون إلى شبكات الرقيق الأبيض، والأسود.. من الصحف إلى أفلام الجنس.. من الموضة إلى اللغات الحية...

من البنوك إلى الكباريهات.. ومن قطع الماس إلى قطع رقاب العباد.

ونجح اليهود في طبعِ المدينة بأشهر خصالهم: المصلحة!

أنا ومن بعدي الطوفان..

أنا الأول وأنا الأخير..

لكن رغم ذلك.. يبقى لنيويورك طعم المدينة الحية.. طعم المدينة كما يعرفها العالم.. وهو طعم نسيته كل مدن أمريكا الأخرى، باستثناء، سان فرانسيسكو.. سان فرانسيسكو حكاية أخرى...

أقصد طعم السهرة والتسكع، والتحرر، والحركة، والناس، والزحام..

أقصد طعم الحياة على أصولها.

ويغفر لنيويورك. أيضاً، وجود «برودواي» حي المسارح على أرضها...

فالأضواء في برودواي باهرة، تسبح فيها عشرات المسرحيات، وآلاف النجوم، وعدد لا نهاية له من المتفرجين.

والمسرحيات في برودواي من كل نوع.. ومن كل عصر، لكن..

سيدة المسرحيات، هنا، هي المسرحية الاستعراضية. والممثل الذي لا يمثل على مسرح من مسارح برودواي، لا يعترف به.

إنك داخل مسرح في برودواي، لا تتمنى أن تخرج منه، أما لأنك تريد المزيد من المتعة.. أو لأنك تخشى مصيرك المجهول في الخارج.. ولا شيء يغمد متعة المسرح في برودواي سوى الخوف من ليل نيويورك بعد نزول ستار الختام.

ويغفر لنيويورك، كذلك، قرية جرينتش.

حي من أحياء السهر، والليل، والمتعة بناه الأمريكيون، وفي أحلامهم، تقليد الحي اللاتيني في باريس.

بارات، ومطاعم، وعلب ليل صغيرة.. يرسم فيها الفنانون، على الحيطان، وعلى الأرض، وعلى ملابس الزبائن.. تشرب وأنت واقف.. وتأكل وأنت واقف.. تلعب وأنت واقف.. وتحب وأنت واقف.. والأماكن مزدحمة.. كأنك في أتوبيس يمر في السيدة زينب.. كأنك في جمعية استهلاكية بالعباسية.

ومعظم هذه الأماكن، كانت في الأصل، مخازن، أو خرابات، أو عشش فراخ.. ثم، تحولت، بسحر ورق الحائط، وقماش القطيفة، والأضواء الخافتة، إلى عالم آخر.

والجنون مباح في هذه الأماكن، والتقاليع أيضاً.

زبون يدخل محلاً بملابسه الداخلية والمحل يقدم له المشروب في غطاء حلة.. زبون يرتدي ثياب نيرون، حارق روما الشهير، والمحل يفتح فمه بقوة رجلين ويسكب الخمر في جوفه دفعة واحدة.. زبون يدخل وفي يده جرس، ومحل يستقبله بخطاف الجزار، الذي يعلق فيه

ذبائحه، كل جنون يقابله جنون أكثر منه...

ولو تصرفت بعقل، وسط هذا الجنون، لاتهموك بأنك شرطي.

ولا علاقة بالطبع، بين عشش «جرينتش» وحي باريس اللاتيني.. هنا جنون سخيف، وهناك جنون مبدع.. هنا قلة ذوق، وهناك كل الذوق.. هنا فتوات، وهناك فنانون..

ورغم كل هذا.. من لم ير نيويورك، لم ير أمريكا..

عرايا أمام التليفزيون
مساء يوم «أحد» في مدينة «مينا بلس»

«مينا بلس»، مدينة ناعمة، طيبة وبريئة.. تقع في أقصى شمال الوسط الأمريكي.. تشتهر بالكنائس، والكومبيوتر، والبحيرات.. يغطيها الجليد 9 شهور في العام.. وينهمر فوق رأسها المطر في عز الصيف.. وصلاة «الشكر» المقدسة، التي لا يتركها أحد، هي صلاة لشعاع شمس جريء نجح في اختراق غيوم السحاب، ورسم خطاً من الذهب على سماء في لون ألواح «الرصاص».

المطر، والبرد، وليل المدينة الخالي من الرحمة والبشر، وبرامج «نهاية الأسبوع» المثيرة وكل ذلك وضعني وجهاً لوجه، أمام ذلك الصندوق المجنون والساحر، والملون، المسجل في ذمتنا باسم التليفزيون...

التليفزيون في أمريكا، ليس كالتليفزيون في غيرها.

التليفزيون في أمريكا: حاكم.. وفي غيرها: محكوم.. التليفزيون

في أمريكا: فتوة وفي غيرها: مكسور الجناح.. التليفزيون في أمريكا: طعام «مسبك».. وفي غيرها: خضار «مسلوق»..

التليفزيون في أمريكا: مهووس.. وفي غيرها: عاقل جداً...

في أمريكا 120 محطة تليفزيون، تطارد الناس بإرسالها 24 ساعة في اليوم.. بخلاف المحطات والدوائر المغلقة التي ترسل برامجها الخاصة جداً للمشتركين، من خلال جهاز صغير في حجم «كرتونة» السجائر يركب فوق ظهر جهاز التليفزيون، ويستقبل الأفلام والبرامج الجنسية، الممنوعة..

العالم كله يدخل غرفة نوم الأمريكان، بدون «احم»، ولا «دستور» من باب التليفزيون..

الحروب.. الاختراعات.. الجريمة.. مباريات الكرة.. أخبار الفلوس.. البورصة.. الكتب.. الأسطوانات.. شرائط الكاسيت.. نجوم السينما.. الفضاء.. الإضرابات.. التشريعات.. الانتخابات العامة.. والسلع الجديدة في الأسواق..

التليفزيون في حياة الأمريكان هو كل شيء...

يلعب معهم تمارين الصباح...

اخلع ملابسك أمام التليفزيون وتحرك.. ثنى، مد فوق تحت، واحد، اثنين.. هوب يمين، هوب شمال.. اخلع ملابسك وقلد سوزي.. وسوزي، فتاة رشيقة، تظهر لك على الشاشة، عارية إلا من مايوه «بكيني» لا يسترها.. تحني الجذع.. ترفع الساقين.. تحرك الأرداف.. وترتكز على يد واحدة وتتلوى..

صورة حية، تغريك على «وش» الصباح لأن تقفز كالقرد، من السرير إلى التليفزيون، حتى ولو كنت مثلي، من أنصار حزب «الكسل»

والبقاء في الفراش للظهر.. حتى ولو كنت من أنصار حزب شجرة «الجميز».. حتى لو كنت ممن ينهجون بسبب السجائر، لو تحركوا لمدة ثوان..

يختار معهم طعام العشاء...

إعلانات تنهمر، أمامك كالأمطار الاستوائية.. إعلانات مجنونة تحولك إلى مستهلك مؤدب مطيع، لا يقاوم.. إعلانات تتنافس على معدتك.. أو على جيبك.. لا يهم.. المهم أن تستجيب لها.. تستجيب لقطعة اللحم التي تكاد تقفز من التليفزيون، وتستجيب للأرز الذي ستأكله معها، و«الصلصة» التي سترشها عليها، والمياه المعدنية التي ستبلع بها الطعام، والأقراص المهضمة التي ستحتاجها بعد هذا الطعام، والفوط التي ستضعها أمامك، ومناديل الورق التي ستسمح بها فمك والمجلة التي ستقرأها وأنت تأكل، والأسطوانة التي ستسمعها وأنت تقرأ المجلة، والمقعد المريح الذي ستجلس عليه في كل هذه الحالات...

يحل معهم مشاكلهم الزوجية..

أكثر من 10 ساعات، يومياً، في محطات التليفزيون المختلفة، مخصصة لمتاعب الرجل والمرأة.. متاعبهم النفسية ومتاعبهم الجنسية.. متى يقبل الرجل زوجته.. ومتى يقبل غيرها؟.. متى ينام

معها ومتى ينام مع غيرها؟.. كيف يداعبها، وكيف يقاومها؟.. أين ينحني لها، وأين يضربها «بالشلوت»؟!

يحدد لهم الرئيس.. ونواب الكونجرس.. يشتري لهم السيارة ولعب الأطفال.. يستثمر أموالهم في البورصة.. ويدخرها لهم في دفاتر التوفير.. يقنعهم بسياسة الحكومة.. أو بعكسها.. يفسر لهم متاعب العالم الخارجي.. ويرسم لهم موقفهم منها.

إنه في بلادنا صندوق بلاستيك، وهنا احتلال...

في بلادنا «قزقزة لب» وهنا إله، لا شريك له...

في بلادنا سلسلة مفاتيح، وهنا منوم مغناطيسي.

في بلادنا «جهاز» حكومي، وهنا قطاع خاص.

وكل هذا النفوذ للتليفزيون في أمريكا، وراءه نفوذ أقوى هو نفوذ الإعلانات، ونفوذ الإعلانات، هو في الواقع نفوذ الشركات والمؤسسات والبنوك التي تحكم المجتمع.

امريكا: سري جداً
أحمد هريدي (1987)

أحمد هريدي. أمريكا: سري جداً. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1987.

أحمد هريدي صحفي مصري يروي في كتابة أمريكا: سري جداً العديد من القصص المضحكة لكن غير القابلة للتصديق أحياناً عن حياته في أمريكا، وتشكل بعض المواضيع والتي غطاها تمثال الحرية والطبقات الإجتماعية في أمريكا وسوق الأوراق المالية ونيويورك والأمية في أمريكا والعنف في أمريكا والنساء الأمريكيات والوحدة والأطفال الأمريكيين وآلة الحرب الأمريكية واللوبيات ومجموعات المصالح في أمريكا.

المرأة صاحبة العمل والمال.. مظهر من مظاهر المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة في أمريكا، ومتغير من المتغيرات التي حدثت للمرأة الأمريكية الرافضة فكرة اعتمادها اقتصادياً على الرجل والراغبة في الاستقلال بحياتها عنه.

متغير دخول المرأة الأمريكية كمنافسة للرجل في مواقع العمل، صاحبه انخفاض في معدلات الزواج وارتفاع في عدد حالات الطلاق وتزايد الرغبة عند الرجل والمرأة في العيش معاً دون زواج.

ملكية المرأة للمشروعات التجارية وإدارتها لم تعد شيئاً يثير الغرابة وإنما أصبحت ملمحاً من ملامح صورة مدينة المال الأمريكية... طبقاً لتقرير صدر في نهاية 1986 من مكتب إحصائيات العمل فإن 2.8 مليون من النساء الأمريكيات يملكن مشروعات أعمال تجارية ويقمن بإدارتها بأنفسهن وذلك بنسبة زيادة قدرها 75% من إعدادهن قبل السنوات العشر الأخيرة، في حين أنه خلال نفس الفترة لم تتزايد أعداد الرجال أصحاب الأعمال «6.5 مليون» إلا بنسبة قدرها 12.1%.

النساء الأمريكيات صاحبات المال يملكن 25% من مشروعات الأعمال الصغيرة في عام 1986، ومن المتوقع أن يصل ما تمتلكه سيدات وآنسات المال الأمريكيات في عام 2000 من حجم هذه المشروعات 50% وذلك طبقاً لتنبؤات الهيئة المنظمة للأعمال التجارية الصغيرة.

«لورا هندرسون».. سيدة أعمال وصاحبة شركة استشارية طبية في «روكفيل» تعمل طوال أيام الأسبوع 16 ساعة يومياً... كل شيء في حياتها بما في ذلك طفلها الصغير «بلير» «عامان» يصبح شيئاً ثانوياً طالما هو لا يتعلق بأمور شركتها التي يبلغ رأسمالها 5.5 مليون دولار في عام 1986.

«ماري» (37 عاماً)، مطلقة وأم لطفلين في العاشرة والثانية عشرة، وتصف نفسها ساخرة بأنها «دعامة من دعائم المجتمع». تعمل مديرة فندق براتب مرتفع.. سيدة المجتمع «ماري» التي تعد واحدة من النساء الأمريكيات الطموحات ويمكن أن تكون مثار حسد من أخريات،

تجد نفسها في إجازة نهاية الأسبوع في احتياج إلى الخروج لتلتقي برجل قد لا يكون نداً لها وتقيم معه علاقة عابرة.

ارتفاع كبير في إعداد النساء في وظائف الإدارة العليا اللاتي يتعاطين الكوكايين وأقراص المخدر.. والبعض منهن يتحولن إلى التهام كميات كبيرة من الطعام... حياة صارمة وقاسية وشرسة تعيشها النساء الجالسات في مقاعد الإدارة بالشركات والبنوك والأعمال الصغيرة تدفع بهن إلى محاولة الهرب لبعض الوقت والإنفلات من الماكينة الدائبة الدوران إلى حيث عالم من الفوضى وعدم الانضباط يتحللن فيه من كل نظام وَقيد.

المرأة الأمريكية المتحفزة للصعود على درج النجاح تنطوي على جانب موحش شديد الأظلام يشي به توافد أعداد كبيرة من النساء في وظائف الإدارة العليا إلى البرامج التي تقيمها الهيئات الاجتماعية والصحية لحماية المرأة الأمريكية من الإجهاد والتوتر والضغوط النفسية والعصبية.

المرأة الأمريكية جزء من النسيج الذي ينتظم العقل الأمريكي النفعي بشبكة علاقاته التي يحكمها رافدان: المال والجنس... في مدينة المال الأمريكية، طموحات المرأة تدخلها ماكينة المؤسسة الاحتكارية الضخمة سعياً وراء الثروة والمكانة العالية في سلم المجتمع المتعدد الدرجات، وتنتهي الطموحات المادية ببعض النساء الأمريكيات إلى خروجهن من الماكينة الجهنمية بقلوب وبيوت محطمة ونفوس مجهدة مريضة يغرقن تعاساتهن في دخان المخدر وفي إدمان الكحول.

أمراض مجتمع الصراع والتنافس: وحدة وقلق وتوتر وإجهاد نفسي وعقلي.. بند من البنود يستفيد منها رأس المال بإغراق السوق بما يحتاجه من أنواع مختلفة ومتعددة من السجائر وأقراص المخدر والكوكايين والهيروين وذلك ضمن حركة دوران الماكينة الأمريكية في سعيها الشرير وراء الكسب.

معدل الطلاق تضاعف في أمريكا مرتين بين عام 1950 وعام 1982، وارتفع عدد قضايا الطلاق المعروضة أمام المحاكم الأمريكية في عام 1986 إلى أكثر من مليوني قضية طلاق.. وانخفاض شديد في الخط البياني الذي يشير إلى تناقص مطرد في أعداد الأسر الأمريكية يقابله زيادة كبيرة تصل إلى ما يقرب من 20.6 مليون أمريكي وأمريكية يعيشون في وحدة.

أحكام تصدر من محاكم الطلاق من نفس المنظور الذي يتعامل به المشرع الأمريكي عند تأسيسي شركة تجارية أو عند القيام بإجراءات فضها، من حيث أن الإجراءات تركز اهتمامها على تقسيم غنائم بيت الزوجية التي يحصل عليها كل من الزوجين طبقاً لقرار المحكمة الذي يحدد أياً من الطرفين يقع عليه اللوم في فشل الزواج.

قضايا طلاق تأخذ وقتاً طويلاً في المحاكم ونزاعات لا تنتهي ومشكلات اجتماعية واقتصادية يتحمل تبعاتها النساء والأطفال الذين ينخفض مستوى معيشتهم بعد العام الأول من الطلاق بمقدار 73% حسب دراسة أجريت مؤخراً.

أكثر من 65 مليون أمريكي يحملون في جيوبهم مسدسات.. وأكثر من نصف مليون قطعة سلاح أوتوماتيكية من النوع الصغير

الحجم الخفيف الوزن سهل الاستعمال والذي يستخدم في الحروب، يستعملها أفراد عاديون في الشارع الأمريكي.. وبيتان من كل ثلاثة بيوت أمريكية في حوزتهم مسدسات وبنادق وذخيرة.

ليست هناك تقديرات دقيقة تحدد كم الأسلحة التي في حيازة الأفراد الأمريكيين، وذلك لعدم وجود قيد يحد من التجارة في السلاح، ولأن الحكومة الفيدرالية تقصر طلب الترخيص عند حيازة قطعة السلاح على الأسلحة الأوتوماتيكية فقط.

أسلحة حربية عالية القدرة القتالية مصممة بحيث تلبي للعقل الأمريكي رغبته في قتل أعداد أكبر من البشر وفي سرعة فائقة.. افتتان وولع بحمل السلاح يستحوذ على الفرد الأمريكي له جذور ترجع إلى الخبرة الأمريكية في فيتنام.. هوس وجنون القتل يتزايد في أوساط اليمين المتطرف والعنصريين وأفراد الحركة النازية الأمريكية.

أكثر من بليون دولار سنوياً أرباح نيويورك و«هيوستن» و«لوس أنجيلوس» وغيرها من المدن الأمريكية من تجارة السلاح وتهريبه إلى أوروبا وآسيا والشرق الأوسط ودول أمريكا اللاتينية... أمريكا مصنع لماكينات القتل والتدمير وترسانة سلاح ضخمة تتعامل مع كل الأسلحة المحظورة وتتاجر بها وتصدرها عبر قنوات رسمية إلى حيث بؤر الصراع في العالم.

الجمر والرماد
ذكريات مثقف عربي
هشام شرابي (1988)

هشام شرابي. الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي. الطبعة الثانية، بيروت: دار الطليعة، 1988.

هشام شرابي مفكر أمريكي فلسطيني شهير خبير في تاريخ وسياسات الشرق الأوسط، وعمل لفترة طويلة أستاذاً للسياسة في جامعة جورج تاون، وفي كتابه الجاد الجمر والرماد ذكريات مثقف عربي يعري روحه للقارئ مع سرد لطفولته في فلسطين وأيام دراسته في الولايات المتحدة.

يعود إلى ذهني في هذه اللحظة عمران شفيق (في الاستعدادية ثم في صف الفرشمن) أراه جالساً «يدرس» فوق سريره.. يقلب الصفحة تلو الصفحة، وهو غارق في أحلام اليقظة. ما أن يصل إلى آخر صفحة من الدرس المعين لذلك اليوم حتى يغلق الكتاب ويقفز من السرير، ويقول «خلصنا من الدرس»، وينصرف إلى معالجة الأمور المهمة، كتهيئة فنجان قهوة على المدفئة الكهربائية التي كان يمتلكها، ولا يمتلك أحد مثلها في تومسون هول، أو لزيارة الأصدقاء في غرفة أخرى، أو للذهاب إلى الميلك بار. وكان اختبار عمران اختبارنا

جميعاً. كان هدفه (وهدفنا جميعاً) التهرب من عبء السلطة ـ من الدرس والمطالعة ـ ليس في الرفض الصريح أو المجابهة الواضحة، بل بالحيلة والمراوغة. وكانت عادة «التفرج» على الكتاب، عوضاً عن قرائته، وحفظ الدرس، عوضاً عن تفهمه، النتيجة الطبيعية لأسلوب التلقين السلطوي الذي ترعرعنا عليه.

لا أذكر جميع الكتب التي قرأتها في تلك الأشهر الأولى في شيكاغو. كان معظمها يرتبط بمواد دراستي: نيتشه، أرسطو، بركهاردت، وليم جيمس، شارلز بيرس، كيركيجارد. لكني بعد فترة بدأت أشعر بالتعب من المطالعة المستمرة، وصرت أمضي أوقات أطول في غرفة الجلوس في الأنترناشيونال هاوس وفي جلساتي مع الطلبة على مائدة الغذاء في إيدانويس. لكني كنت دائماً أعود إلى كتبي.

رويداً تحول الكتاب بالنسبة إليّ إلى شيء حي، إلى صديق حميم، إلى ضرورة حيوية. وجدت نفسي أحادث الكاتب من خلال الصفحات المطبوعة. لم يعد الاستماع كافياً. تعلمت أن أعيد قراءة مقاطع بكاملها، كأني أسأل الكاتب أن يعيد أقواله. أخذت أبحث عن المعنى الذي كان بالسابق يفوتني ولا أعود إليه. لم تعد الفكرة الغامضة تكفي، أصبحت أسعى لاستيعاب المعنى كاملاً وأصر على الوضوح التام.

أغلال خفية كبلت ذهني بدأت تتساقط.. ظلام سنين عديدة أخذ ينقشع.. تغيرت رؤيتي للأمور، لا من حيث المضمون فقط بل أيضاً من حيث طريقة الفهم والتحليل. صار بإمكاني (وربما لأول مرة) رؤية الأمور من وجهات نظر مختلفة، ومن خلال مقاييس وقيم

مختلفة.. شعرت فجأة أني اخترقت حاجزاً ذهنياً كان يفصلني عن رؤية الأمور على حقيقتها.. وصار بإمكاني رؤية ذاتي الاجتماعية (ربما لأول مرة أيضاً) من «الخارج» وبروح موضوعية متزايدة.

أخيراً جاء الربيع وانقلبت حياتي رأساً على عقب.

في يوم عيد ميلادي (في نيسان) تسلمت علاماتي لفصل الشتاء، وكانت مرضية للغاية. فزال عن صدري عبء ثقيل، وأحسست بالثقة تعود إلي.

أخذت أقلل من الذهاب إلى المكتبة وأمضي لإمسيات بأكملها في قاعة الجلوس مع زملائي الأمريكيين والعرب، وأخرج معهم لتناول القهوة في مقهى «كريزي سبون» واحتساء البيرة في بارات الشارع 55.

ذهبت في إحدى عطل الأسبوع لأول مرة إلى البيهايف، وهو بار صغير في شارع رقم 55 اشتهر بموسيقى الجاز، برفقة صديق أمريكي وفتاتين تقطنان معنا في الأنترناشيونال هاوس. وبعد أن شربنا بضعة أقداح من البيرة، شعرت بحاجة ماسة للذهاب إلى بيت الخلاء. لكن الحياء منعني فجلست حابساً أنفاسي، لا أدري ما أفعل. وبعد قليل نهضت رفيقتي، وقالت وهي تدلك أسفل معدتها:

- إنها البيرة، يجب أن تجد مخرجاً.

احمرّ وجهي خجلاً وأنا أقف لها لكي تمر. واغتنمت الفرصة وقمت بدوري إلى مكان «الرجال»، وهناك وقف إلى جانبي شاب أمريكي، والتفت إلي بعد أن فك أزرار بنطلونه وقال والبشر يطفح من وجهه:

- هذه هي السعادة بعينها، أليس كذلك؟

كان ذلك شعوري بالذات لتخلصي من العبء الثقيل.

شعرت بغبطة جعلتني أحب العالم بأجمعه. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أتردد عندما تدعو الحاجة، في السؤال المباشر.

في فصل الربيع نشأت بيني وبين إحدى زميلاتي في دائرة الفلسفة، وكانت تسكن في الأنترناشيونال هاوس، علاقة وثيقة، ما لبثت أن تحولت إلى علاقة حب. كانت من كاليفورنيا ومن أصل نروجي واسمها كارول. التقيتها بضع مرات خارج قاعة الدرس، وتناولنا الغذاء مرة أو مرتين في أيدا نوس. وأخبرتها عن درس برجستراسر، فأخذت تتردد إليه. ودعوتها ذات مساء، وكان يوم سبت، إلى قضاء السهرة برفقتي ورفقة راشد وصديقته. فقبلت الدعوة وكانت بداية العلاقة.

انتظرناها ذلك اليوم أنا وراشد وصديقته في غرفة الجلوس. رأيتها قادمة من بعيد، تنزل الدرج ببطء وتأن. كدت أن لا أعرفها. حتى ذلك الحين لم أرها إلا بملابس قديمة لا تلفت النظر: جرسيه مهلهلة وتنورة صوفية عريضة وكلسات بوبي سوكس وحذاء ذي نعل منخفض. كانت لا تستعمل المساحيق على وجهها. أما الآن فكانت ترتدي فستاناً أبيض ضيقاً وحذاء عالي النعل ومعطفاً من الفرو الثمين مسدلاً على كتفيها، وعلى رأسها قبعة صغيرة من نفس الفرو، وقد صبغت شفتيها بأحمر شفاه غامق. كانت بالفعل ملفتة للنظر. كان الشباب الجالسون حولنا يلاحقونها بأنظارهم. ووقف راشد يؤهل بها بحرارة وفي عينيه دهشة، وشعرت أنا بشيء من الارتباك والزهو. وخرجنا من القاعة تتبعنا نظرات الحاضرين.

اشترطت رفيقة راشد، التي كانت لا تثق بمقدرته على قيادة السيارات، خصوصاً في الليل، أن نستقل القطار الكهربائي أو نأخذ

سيارة تكسي. فتطوعت كارول أن تقود سيارة راشد الأولدزموبيل المستعملة، وجلست بجانبها في المقعد الأمامي وجلس راشد وصديقته في الخلف. وكانت تلك المرة الأولى التي أنزل فيها إلى قلب المدينة. سارت بنا كارول في شارع الأوتر درايف المحاذي للبحيرة، وبدأت ناطحات السحاب تبدو عن بعد فوق أضواء المدينة، وإلى يميننا امتدت مياه البحيرة السوداء. نظرت إلى كارول وهي ممسكة بالمقود وبروفيلها الجميل يبدو واضحاً في الظلام. كانت أول فتاة أمريكية أقع في حبها. كانت في العشرين وكنت في الحادية والعشرين...

قادنا راشد إلى مقهى يدعى الهاي هات، في أفخم فندق في شيكاغو، وجلسنا إلى طاولة صغيرة تتوسطها شمعة، أشعلها الجرسون ثم وقف ينتظر طلبنا. طلبت كارول والفتاة الأخرى قدحاً من الشري وطلب راشد وسكي، وطلبت أنا جين كولنز (وهو الكوكتيل الوحيد الذي تذكرت اسمه في تلك اللحظة) شربته بسرعة وطلبت كأساً آخر. بعد وحدتي الطويلة شعرت الآن بنشوة عظيمة، ورحت أتحدث إلى كارول، بينما قام راشد يراقص صديقته. تحدثت إلى كارول بلا انقطاع؛ كل ما تراكم في ذهني في الأشهر الأخيرة من أفكار ـ عن نيتشه وكيركيجارد ودوستويفسكي ـ تساقط من فمي سيل من الكلمات. كانت كارول تنظر إلى بعينيها الخضراوين، ولا تتكلم إلا لتطرح سؤالاً لتدفعني إلى الزيادة من الكلام. وشربت كأساً ثالثاً.

بقينا في المقهى حتى الثانية صباحاً. وفي طريق عودتنا توقفنا في «الكريزي سبون» وشربنا عدة فناجين من القهوة. وعندما رجعنا إلى الأنترناشيونال هاوس، كانت الساعة قد قاربت الرابعة. وفي اليوم

التالي استيقظت عند الظهر، وتحدثت تلفونياً مع كارول لتلاقيني في الكافيتريا. وأمضينا ما تبقى من يوم الأحد سوياً. وفي المساء ذهبنا إلى السينما. لم أقبلها أو ألمسها طيلة أيام، وأظنها استغربت ذلك، وربما توجست شراً. لكنها اطمأنت وعاد إليها مرحها عندما أخذتها في أحضاني مساء ذات يوم دافىء في البارك...

كارول والربيع غيَّرا نمط حياتي. لكني بقيت على برنامجي في الدروس والمطالعة وحضور الندوات والمحاضرات. وحافظت على اعتدالي في السهر وارتياد المقاهي وتناول المشروب، وذلك ليس لقوة إرادتي - قوة الإرادة لا تكفي في أكثر الأمور - بل لسببين: لنفاذ ما كان في حوزتي من نقود ولنهمي الفكري.

ورغم الضيق المالي الذي رافقني منذ ذلك الحين حتى عودتي إلى بيروت فقد كانت المرحلة الجديدة التي دخلت فيها هانئة خالية من الوحشة والانقباض اللذين عانيتهما في أشهر الشتاء. صرت عندما أفتح باب الأنترناشيونال في الصباح يتلقاني نسيم الربيع الطري فأسير إلى الدرس بنشوة، أحيي من ألاقيه في الطريق من زملائي وأبتسم للجميع. وصرت أجلس في الكافيتيريا إلى الموائد التي تعج بالطلبة، وكارول إلى جانبي، وأشترك في الحديث وتبادل القصص والنكات. كان ذلك هو التحول نفسه الذي يحصل في حياة كل طالب عربي بعد مضي الأشهر الأولى الموحشة لقدومه إلى الولايات المتحدة. ألا أن خيبتي بأمريكا لم يطرأ عليها تغيُّر. ما كانت تنقله الأفلام والمجلات عن الحياة الأمريكية ما هو إلا مجرد أسطورة. فقد صورت الواقع الأمريكي لا كما هو في الواقع، بل كما يحلم به الأمريكيون. الأمريكيون

مثلنا، يذهبون إلى السينما، لا ليشاهدوا حياتهم على ما هي عليه من قساوة وضجر، بل ليهربوا منها إلى عالم جميل تخترعه لهم هوليود.

ما من طالب عربي إلا شعر بخيبة أمل بعد مجيئه إلى أميركا. وأول ما يكتشفه أن الفتيات الأمريكيات لسن كلهن جميلات كما يظهرن في السينما والمجلات، وأن الوصول إلى اللواتي على جانب من الجمال أمر صعب إذ أن التنافس عليهن شديد. وتمضي شهور قبل أن يستطيع مصاحبة فتاة مقبولة الشكل. أعرف شباباً من بلدان عربية أمضوا سنوات في أمريكا دون أن يقيموا علاقات عاطفية أو أن يمروا باختبار جنسي.

الجمال، كالخبرة والذكاء والموهبة، هو في الولايات المتحدة سلعة تباع وتشترى، لا بالمعنى الأخلاقي فحسب، بل بالمعنى المادي الذي يفرض على الفتاة الجميلة نمطاً من الحياة والعمل لمجرد كونها جميلة. أجمل طالبات شاهدتهن في شيكاغو كن طالبات جامعة نورثوسترن (بالقرب من شيكاغو وقد شاهدت بعضهن يعملن راقصات (غير متفرغات) في ملهى ستربتيز في كالوميت سيتي، وهي بلدة صغيرة تقع إلى الجنوب من شيكاغو.

لا أنسى المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى كالوميت سيتي برفقة فوزي كحالة وراشد وطالب عراقي كان يدرس التاريخ القديم في جامعة شيكاغو (اسمه عبدالقادر اليوسف). كان فوزي أكبر منا سناً ويعمل مهندساً في إحدى الشركات الهندسية، وكان يقتني سيارة بونتياك حديثة، يقودنا فيها بين الفينة والأخرى ويمنعنا من التدخين فيها.

كنا ذات مساء أنا وراشد وعبدالقادر جالسين نتحدث في قاعة

الجلوس في الأنترناشيونال هاوس، وإذ بفوزي يدخل علينا قائلاً:

– مين بدو يجي معي ويشوف شي ما شافه في حياته بعد؟

فقال راشد:

– وفين هالشوفه العظيمة؟

– ما بيهم وين. مستعدين تيجوا أو لا؟

– مستعدين بس خبرنا وين.

– عالستربتيز في كالوميت سيتي.

لم أكن أعرف ما هو الستربتيز. فسألت فوزي ـ فضحك وقال: ما بتعرف شو الستربتيز؟ يا عيب عليك. ياللا، قوموا يا شباب نفرجي هشام شو الستربتيز.

وقمنا إلى البونتياك ذات المقاعد الجلدية الفخمة. وأطفأنا سجائرنا قبل ركوبها، ثم انطلقنا جنوباً نحو كالوميت سيتي التي كانت تبعد حوالي عشرين ميلاً.

قادنا فوزي أولاً إلى مقهى صغير فيه بار دائري عليه مسرح صغير يرتفع فوق البار. وكان المكان شبه خال من الزبائن، فجلسنا وطلبنا أربعة أقداح بيره. وما هي إلا دقائق حتى صعدت إلى المسرح فتاة ممشوقة الجسم، شعرها قصير، على جانب كبير من الجمال. وكانت عارية إلا من قطعة قماش لفت حول وسطها وأخذت ترقص على نغمات الموسيقى التي كانت تعزفها أوركسترا مؤلفة من لاعب بيانو وضارب طبل وعازف طرمبون. أخذنا ننظر إليها من موقعنا حول البار، وكانت تنظر إلينا من عل وتبتسم. وعندما وصلت الموسيقى إلى ذروتها، دارت الفتاة حول نفسها دورات سريعة ثم خلعت قطعة القماش

الصغيرة حول وسطها، وغادرت المسرح وهي تستر فرجها بيدها اليسرى وتلوح بقطعة القماش بيدها اليمنى. وبعد فترة قصيرة حلت مكانها فتاة أخرى، جميلة مثلها، إلا أنها كانت ترتدي فستاناً للسهرة طويلاً. وراحت الأوركسترا توقع لحناً جديداً. وأخذت الفتاة تسير حول المسرح ببطء، ثم بدأت تخلع ثيابها قطعة قطعة مبتدئة بالقفازات الجلدية. وعندما وصلت إلى صدرية الثديين لم يتمالك فوزي نفسه فأخذ يصفق ويهتف بحماسة. وبقينا أنا وراشد وعبد القادر ننظر إليها دون أن ننبس بكلمة. وأخيراً خلعت ما تبقى من ملابسها باستثناء خيط رفيع بقي حول وسطها، وأخذت ترقص أمامنا، ثم دارت حول نفسها كما فعلت زميلتها وغادرت المسرح راكضة في حين صوبت على رد فيها دائرة من الضوء الأحمر.

وانتقلنا إلى مقهى ثان وثالث، وشاهدنا المنظر نفسه في أشكال مختلفة: فتيات جميلات يخلعن ثيابهن على أنغام الموسيقى ثم ينصرفن راكضات والضوء الأحمر مصوب على أردافهن، وأذكر بالخصوص واحدة، ربما كانت أصغرهن سناً، شقراء الشعر، وشقراء الجسد. صعدت إلى المسرح في ملابس الهنود الحمر، وأخذت ترقص رقصة هندية وتهتف بين الفترة والأخرى هتاف الهنود الحمر. ثم تخلع زيها الهندي قطعة قطعة إلى أن وصلت إلى مشدّ الثديين، ففكت الرباط خلف ظهرها فبدأ نهداها المستديران وقد تدلى من حلمة كل منهما شريط أحمر. وفجأة أخذت تحرك صدرها بشكل دائري نزولاً وصعوداً على وقع الموسيقى فأخذ الشريطان يدوران حول نهديها كأنهما محركا طائرة..

وأخبرنا البارمان أن جميع الفتيات هن طالبات في جامعة نورثوسترن ويعملن في ملاهي كالوميت سيتي بضع ساعات في الأسبوع ويتقاضين أجراً يفوق أجر أي عمل آخر يمكنهن الحصول عليه في الجامعة. وسألته عن الفتاة في زي الهنود الحمر، فأخبرني أنها من مدينة هيوستون في ولاية تكساس وعمرها 18 سنة.

ولسبب ما لم أنس هذه الفتاة وبقيت صورتها عالقة في ذهني إلى الآن. أراها في أحلامي بين الوقت والآخر، كما رأيتها منذ حوالي ثلاثين سنة، عارية تماماً، إلا من الرباط حول شعرها الأشقر، والشريطان الأحمران يدوران حول نهديها كأني أشاهد فيلماً بطيء السرعة.

(منذ أن بدأت كتابة هذه الصفحات، عجت أحلامي بأحداث الماضي، وعادت إلي ذكريات ظننت أن الأيام قد محتها...).

بعد ذلك لم أذهب إلى مقهى ستربتيز إلا مرة واحدة، كان ذلك في الخمسينات في نيويورك برفقة يوسف الخال ومانويل يونس. ولكن شتان بين ما شاهدناه في كالوميت سيتي، بطالبات نورثوسترن وجَو شارع 55 براقصاته المحترفات. لكن من يدري.. ربما كان بين الراقصات اللواتي شاهدناهن في نيويورك فتيات من نورثوسترن أخفقن في دراستهن ولم يجدن عملاً غير ممارسة الستربتيز التي مارسنها هواية في كالوميت سيتي.

لقد مضى على إقامتي في الولايات المتحدة، عند كتابة هذه السطور، ما يقارب الثلاثين عاماً. خلال هذه المدة لم تقم بيني وبين أي أميركي علاقة يمكن تسميتها بعلاقة صداقة بالمعنى الذي نفهمه في مجتمعنا العربي. ويعود ذلك لأسباب حضارية واجتماعية،

فالصداقة بين الرجال في المجتمع الأمريكي تأخذ شكلاً آخراً يختلف عن الشكل الذي تأخذه في مجتمعنا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كنت دائماً أفضل عشرة المرأة الأمريكية على عشرة الرجل الأمريكي، ليس ذلك لأسباب جنسية أو عاطفية، بل لأني وجدت عند المرأة الأمريكية ذكاء وحيوية ومرحاً أكثر مما وجدت عند الرجل. إني أشعر بمتعة وارتياح بصحبة المرأة الأمريكية لا أشعرهما أبداً بصحبة الرجل الأمريكي. لكن بالطبع هناك استثناءات. وأود هنا أن أتحدث عن أحد هذه الاستثناءات وهي صداقتي مع مارشال هودجسون، زميلي في جامعة شيكاغو، الذي أصبح أستاذاً للتاريخ الإسلامي في تلك الجامعة، ثم توفي بعد مرض عضال.

تعرفت على مارشال وهو يعد للدكتوراه في تاريخ الحضارة الإسلامية. وكان يمضي معظم أوقاته في مكتبة المعهد الشرقي، حيث كنت أطالع في كثير من الأحيان. وبسبب انتمائه إلى جماعة الكوكيرز (Quakers) فقد كان يمتنع عن شرب الخمرة وعن التدخين وعن أكل اللحوم.

كان مارشال يتناول غذاءه كل يوم على درج المكتبة، الذي يتألف عادة من ساندويش جبنة وتفاحة أو برتقالة يأكلها وهو مستمر في القراءة. التقيت به لأول مرة على الدرج، وسألني عن حقل اختصاصي وتجاذبنا الحديث، وتوثقت أواصر الصداقة بيننا مع الأيام وصرت أشتري ساندويشاً (روستو أو هام).

أمريكا
في نظر نساء عربيات

أمريكا وانا
جاذبية صدقى (1960)

جاذبية صدقي. أمريكا وأنا. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

جاذبية صدقي كاتبه قصة وصحفيه مصرية، وكانت محاضرة زائرة في جامعة ويسترن إلينوي في مالكوب خلال العام الدراسي 1960 - 1961، ونشرت سردها الدقيق حول إقامتها في كتابها أمريكا وأنا، وأهدت الكتاب لمصر، واحتوت الصفحة الأمامية على صورة للمؤلفة أمام السرادق الذي نصبته لتمثيل مصر في إحدى الجامعات الأمريكية، وتبين الصورة الرايات المصرية مع صورة لجمال عبدالناصر والكلمات: «مصر مهد الحضارة».

السبت 7 أكتوبر:

أحب الجزر والكرفس والخس والجرجير وكل ما هو أخضر، ولكن بلا طهو، بل بلا زيت.. بلا ليمون.. بلا ملح.. بلا شيء البتة بل كما خلقها الله ـ تلك الخضر! كل ما أفعله هو أن أغسلها ببعض الماء والصابون.

فلما سافرت إلى أمريكا ـ وشهرتها في السلطة لا تدانيها شهرة ـ فرحت واطمأننت إلى أنني سأتناول ما أحب، وبكثرة! لكني تبينت أن

الأمريكيين وإن كانوا حقاً ملوك السلطة، إلا أنها سلطة كثيفة غنية بالقشدة.. والزبد.. والزيوت على ألوانها.. والمايونيز، والصلصات الدسمة المختلفة المذاق والألوان: من أحمر.. إلى أصفر.. إلى برتقالي! إلى أخضر! حقاً هناك دائماً في قاع الصحن، ضمن محتوياته، شطائر رفيعة من جزر وكرفس وخس. لكنها تائهة وسط زحمة الأشياء الأخرى من جمبرى... وأنشوجة.. وتونة.. ومكرونة (والله مكرونة في السلطة!) . ثم إنها ـ الخضر ـ تكون غارقة تماماً بل «منقوعة» ساعات في خل لاسع وصلصة كثيفة، دسامتها تميتني!

فامتنعت تماماً عن تناولها ـ «سلطاتهم» تلك!

وخجلت بادئ بدء أن أطلب غيرها ـ وبالطريقة التي أحبها، فصمت وصبرت. وصمت عما أحب أن أكل. لكنني... وبمرور الوقت... خفت أن يتبلد عقلي... ويخمد نشاطي... ولا تعود تسعفني حيويتي. ما العمل ومسؤوليتي هنا جسيمة وأنا بطبعي وفطرتي لا أحترم قدر احترامي لوعد يقطع؟ وقد وعدت بإلقاء محاضرات كما يطلب مني. وفي أي موضوع يطلب مني... وأينما يطلب مني... ووقتما يطلب مني! ليل... نهار... تحت حرارة شمس... تحت سيول أمطار.. وسط عاصفة من عواصف أمريكا الوسطى الشهيرة. أي شيء، وأي مكان، وعدت أن أذهب إليه طالما هناك منصة وناس مجتمعون ينتظرونني!

وأنا لم أعتد العمل من قبل في حياتي ـ لا بذلك الاندفاع ولا بأقل منه. فكيف إذا خذلتني قواي؟ كيف إذا توقف، أو حتى تباطأ تفكيري لأنه حرم من وقوده الذي اعتاد عليه؟

فصارحت صاحبة البيت وأنا مترددة، أقدم رجلاً وأؤخر رجلاً،

وأعتذر لطلبي الغريب عليهم: سلطة خضراء وحسب، بلا صلصاتهم العالمية الشهيرة!

وعندما ضحكت مني، شعرت كالفلاحة التي جاءت إلى المدينة لأول مرة فأتعبها طعامها المتأنق. وأمضها الحنين إلى طعام القرية. فوقفت تشحذ رغيف ذرة جافاً وقطعة جبن وورقتين من جرجير طرى بطينه!

ضحكت مني فعلاً صاحبة البيت، لكنها صارت تقدم لي كل يوم صحناً كبيراً يبدو كأنه حديقة برية صغيرة: طماطم.... وجزر.... وكرفس... وبنجر... وخيار... وورقات خس نضرة، تتسلق جوانب الصحن وتطل منها كأن هذا سور وهي زهور متسلقة!

وطار الخير في كل مكان. عرف الجميع أن هذا هو صحني المفضل. فكنت ألقاه أمامي كلما دعيت إى حفل غداء أو حفل عشاء...

وارتاح قلبي.. وارتاح بالي.. وارتاحت معدتي.

لكنني اكتسبت لقباً ضاحكاً مرحاً، «من فصيلة الأرانب».

فلم أغضب. ولا أنا اهتممت.

ما لها، الأرانب؟

الأحد 8 أكتوبر:

العوانس منتشرات انتشاراً فظيعاً في أمريكا. ولقد التقيت بمجموعات أخرى منهن، يبدو أن بلوغ الذروة في المدنية يعني هبوطاً من الجانب الآخر للجبل! سنة الطبيعة هكذا، ويبدو ألا كمال في الدنيا!

فأنت في أمريكا تعيش في مدنيتها وتنعم بتقدمها ورفاهيتها، تشعر أنك تحلم مفتح العينين ـ من فرط روعة وتقدم، ولكن فجأة. دائماً فجأة.. تصدمك نقائص في الواقع البديع هذا، الساحر هذا، الذي حملك على أجنحة الخيال إلى دنيا مسحورة لا تكاد تصدق عينيك لما تراه فيها.

يا إلهي! إن قلبي يتمزع للوحدة القاسية الجبارة التي تعيش فيها قلوبهن ومشاعرهن ـ خصوصاً في بلد مثل أمريكا، أكبر عيب فيها: لا مكان للعجائز!

وأنا لا أعني أنه لا توجد بيوت يأوون إليها ـ لا، أبداً! العكس: أروع بيوت ومصحات حكومية بأجر زهيد تجدها هناك منتشرة في جميع أنحاء أمريكا. بيوت خاصة بعجائز الرجال، وبيوت خاصة بعجائز النساء، وبيوت مشتركة للجنسين معاً.

فيستطيع الزوجان اللذان بلغا من العمر عتياً أن يأويا إليها ليمضيا فيها بقية من أيام لم تزل لهما في هذه الحياة الدنيا، خطها القدر في لوحه، فيجدا فيها كل رعاية من ممرضات وأطباء نالوا جميعهم أعلى مراتب العلم والمران في ذلك المنهج من منهج رعاية العجائز.

سيجد الزوجان العجوزان ـ وكل عجوز في أمريكا ـ رعاية بصحته وعناية بما يحتاج إليه من مأكل. وملبس. ونوم. وتسلية ـ وحسب وهنا أضغط على كلمة «وحسب» هذه للتأكيد. فالعجوز متى ودع عهد العمل والكفاح ورجع القهقري عن الصفوف الأولى المنتجة الصاخبة، وانزوى بضعف وبستين أو سبعين أو بثمانين سنة فوق كتفيه، اعتبروه

ميتاً - أدبياً، أجل إلى هذا المدى القسوة على العجائز. ومما يزيد تلك القسوة وضوحاً وحدة... في رأيي... أن الحكومة ليست هي التي تعتبره هكذا، بل أبناؤه وأهله أنفسهم!

وكلامي هذا هو وصف للحالة العامة السائدة.. فطبعاً هناك عجائز كثيرون أثرياء لا يفكرون في اللجوء إلى بيوت العجائز المجانية أو التي تتقاضى منهم أجراً رمزياً زهيداً. هناك عجائز أثرياء رجالاً ونساء، أو أرامل أو عوانس يرفلن في نعيم ويعشن كالملكات. ولكن القسوة - قسوة الوحدة وعدم اهتمام شباب أسرهن بالسؤال عن أية منهن، هي المشكلة!

فالحكومة.. أية حكومة... تستطيع أن تسن القانون كما يحلو لها، لكنها لا تستطيع أن تغير نفسية شعب.. نظرته للحياة.. منطقه.. ميوله.. طباعه! إن عدم اهتمام الشباب بالكبار يحز في نفوسنا نحن الشرقيين حزاً دامياً - خصوصاً لأننا نكاد نقدس الأمومة والأبوة! طبعاً عندنا من لا يعامل أمه وأباه بسوء ووحشية وحسب، بل ربما قتلهما أو قتل أحدهما. ولكن هذا شاذ، وأنا هنا أتحدث عن المجموع. وطبعاً في أمريكا قد تجد من يكاد يقدس أمه وأباه ويخدمهما تحت سقف واحد ويحنو عليهما ويحترمهما، ولكنه في تلك الحالة يكون فريداً في منطقه. وكلمة «فريد» وإن كانت أرقى من كلمة «شاذ» إلا أنها مثلها، لا تمثل المجموع!

وقد انتهزت فرصة بعض المحاضرات الاجتماعية البحتة التي طلبوها مني، ودست بين سطورها ترجمة آية أو آيتين من القرآن ذكرت فيهما سيرة الوالدين. حتى قصة سيدنا عيسى عليه السلام،

والآلام التي تحملتها أمه مريم عليها السلام، تلوتها على أسماعهم مرة بعد مرة. وقلت لهم كيف إنه لولا جيل الآباء الواعي العاقل بتجاربه وتضحياته ونصائحه، لما كنا نحن! ولما كان الجيل الذي سبقنا، والأجيال التي سوف تلي ذلك الجيل! ولم أستطع أن أتغلب على مرارة تسللت إلى صوتي وأنا أقول لهم، ضمن ما أقول لهم:

- ولقد طلبتم مني رسمياً في عقد العمل الذي وقعته بيني وبينكم، أن أشرح لكم «تعاليم الحكيم الفرعوني: «بتاح - حوتب» لطلبة تاريخ مصر القديم. أتعلمون من هو الحكيم الفرعوني هذا؟ أتعلمون من أين تفجرت حكمته التي ينهل منها العالم طراً، أجيالاً من بعد أجيال؟ تفجرت حكمته تلك من أبوته! أجل! فهو أب، قبل أن يكون حكيماً ووزيراً. قدم نصائحه هذه التي تناقلتها آلاف السنين، سنة عن أخرى، كأثمن كنز ترثه - قدمها إلى ابنه ليعرفه بالدنيا وشؤونها وليطلعه على التجارب التي مر هو بها، حتى يجنبه العثرات ويبصره بحقائق النفوس، ويطلعه على عواقب الأمور. أب هو الذي تكلم ونقش نصائحه على جدران مصر! أب وقلبه هما اللذان زودا الابن بعلمهما!

إن لكل أم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، ولكل أب حاسة سادسة شفافة رفافة تجعله وتجعلها نبراساً لحياة الأبناء. فلماذا... ويلى.. عدم الاحترام هذا، أو بقول مخفف، عدم الاكتراث هذا الذي تبدونه علانية للوالدين؟

ودخلت معهم في مناقشات ومناورات وجلسات طويلة، طويلة. سدى! أجابوني بالمنطق الأمريكي الذي قد أقتنع ويقتنع به كثيرون في مسائل أخرى جمة. ولكني أرفضه بشدة وإصرار عندما يتعلق

الأمر بالأم والأب ومنزلتهما في الأسرة بعد أن يشيب شعرهما! أرفض منطقهم هذا ويرفضه معي بحماس عقلي.. وقلبي.. ومشاعري.. ومنطقي ـ حتى إنسانيتي!

قالوا لي:

«ما لهؤلاء «العجائز» وما لنا؟ لقد انتهى دورهم في الدنيا وانتهت حياتهم بالنسبة لنا! فليدعونا وشأننا.. وتجاربنا نحن... ومنطقنا نحن.. وحياتنا نحن!».

صدق والله الشاعر الإنجليزي «كيبلنج» الذي قال:

«الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبداً!».

الاثنين 9 أكتوبر:

إن أمريكا ـ كما نعرف جميعنا ـ ليست بلداً من البلاد، بل قارة بأكملها من قارات العالم الخمس! وتبلغ الولايات المتحدة خمسين ولاية، آخرها «هاواي» وقد سبقتها «ألاسكا» في الانضمام إلى المجموعة، ومساحة الولايات المتحدة شاسعة تمتد من الشاطىء الشرقي إلى الشاطىء الغربي نحو ثلاثة آلاف وثلاث مئة ميل (3300). وطبيعة أرضها وجوها تختلف في بعض الحالات اختلافاً كبيراً بين ولاية وأخرى. لذلك يلمس الزائر تأثير هذا الاختلاف في الناس أنفسهم. فأهل جبال «كولورادو» في أخلاقهم وعاداتهم ـ حتى في تكوينهم وميولهم يختلفون عن أهل السهول والوديان. حتى هؤلاء يختلف بعضهم عن بعض، وفقاً للعمل الذي تشتهر به ولايتهم. فأهل

سهول «تكساس» ومراعيها الذين اشتهروا بتربية الأبقار والخيول والإتجار بها، غير أهل سهول «إلينوى» المسالمون الهادئون الذين يقدسون الحياة الزوجية المنظمة الهادئة، ويحبون زيارة جيرانهم وإقامة حفلات عائلية صغيرة.

وتسمى تلك الدائرة التي تشتهر بزراعة ألوان الذرة على اختلافها باسم: «منطقة الدرة» أو Bell Corn وأنت في «إلينوى» هذه تلتقي بمن بلغ السبعين ولم يغادر ولايته. كما أن شباب الولاية من الجنسين، يؤثر لو أتيحت له فرصة العمل في مسقط رأسه. أما إذا عرض عليه عمل ممتاز في ولاية أخرى، سافر وترك قلبه... وشعوره... وميوله... وآماله كلها في الولاية التي شهدت مولده! ولا تنقطع رسائله أبداً إليها - إلى أهله... إلى جيرانه... أو إلى لحظة خاطفة، لكنها عذبة!

الأحد 5 نوفمبر:

برغم عيوب الأمريكيين، فكل يوم أنفقته بينهم أثبت لي أنهم بدأوا عن رغبة صادقة في تقويم تلك العيوب، وفي ترميم الثغرات في شخصيتهم وثقافتهم وحسب. وحسب هنا أقولها لأن عندها تتوقف كل رغبة أخرى في إصلاح أو ترميم أو اقتباس خلة طيبة في شعب آخر. هم فعلاً يقاومون بإصرار وثبات عدم مقدرتهم الفطرية في تعلم اللغات. ثم إنهم لا يترددون لحظة في نقد برامج الحكومة التعليمية، نقداً قاسياً صريحاً أبعد حدود الصراحة. وبكل الطرق، ومن كل الأبواب: في محاضرة التليفزيون، في تمثيلية، في الأفلام، في أغاني الراديو، في الجرائد والمجلات. أما عاداتهم أو أسلوب بعض

تصرفاتهم الاجتماعية ـ فلا. لا يفكرون في تغيير ما. لعلهم لا يملكون ذلك. فيتشبثون بحرية الفرد ـ رجلاً كان أو امرأة، مراهقاً أو مراهقة ـ حرية تامة مطلقة مجردة من أية مسؤولية نحو الأهل والمجتمع والدين ـ مسؤولية لا يرتضيها الفرد بخالص رغبته وإرادته واختياره. ولكن يبدو لي أن الغالبية من الأمريكيين الآباء يتشبثون بتلك الحرية المطلقة متغصبين وعن يأس ـ لا عن عقيدة. يأس من كبح جماح الجيل الجديد. الجيل الجديد الأمريكي الأرعن الذي لا يرتضى أول ما لا يرتضى نصيحة الآباء وتوجيهاتهم والاستفادة من تجاربهم. الجيل الجديد الذي يضع أسس تقاليد للمجتمع متجددة أبداً، وبدعاً متجددة أبداً، وأزياء خاصة به، ويصنع الموسيقى المجنونة المستوحشة التي تثير كوامن غريزة رجل الغاب القابع في أعماق النفس ـ الغريزة بفطرتها «وشوكها»، ويضع أصول رقصات جنسية تضج بها حكومات كثيرة من الشعوب وتسارع بإصدار القوانين وعمل التحصينات المحكمة لمنعها من دخول أراضيها ـ كأنها وباء أمريكي يخشون عدواه!

إن ذلك التهور من الجيل الجديد، وذلك الملل بلا سبب، وذلك الضيق بلا سبب، وذلك الطموح الذي أكثره لمال لا لعلم ولا لمركز، وذلك الرقص، وتلك الموسيقى، وتلك البدع ـ كلها كلها صدى وتجاوب وانعكاس لتخبطه.. لحيرته.. لاندفاعه.. لجموحه. جموح يصم أمريكا كلها بلا استثناء بوصمة لا تحسد عليها!

لقد طفت بملاجىء للأطفال الغير شرعيين، وزرت معاهد للأمهات الغير متزوجات وأصغيت لهن يحدثنني وتأملتهن، وراقبتهن، وتحدثت إليهن بدوري. إنها معاهد منتشرة انتشاراً مخيفاً في

أمريكا. قد يبدو ذلك لكثيرين: مدنية ورقياً ـ بل أعلى مراتب الرقى وسعة العقل، وحكمته، وواقعيته. وصحيح أن النظم المتبعة في تلك المعاهد نظم إنسانية ورائعة ومثالية تثير الإعجاب العميق بدقتها وكفاءتها وباستخدامها للعلم الذي وصل في أمريكا إلى أعلى مرتبة، استخداماً ماهراً أريباً. وقد يقول كثيرون: وماذا في ذلك؟ في بلاد العالم أجمع تدور تلك الأمور بين الرجال والنساء ـ في الخفاء. هل لأن أمريكا صريحة تؤاخذونها؟

أجل، قد تدور تلك الأمور في بلاد العالم وفي الخفاء كما تقولون، أيها الكثيرون! ولكن ألا يبالي المجتمع بوقوعها وألا تطرف له عين، وألا يرى في ذلك شيئاً شاذاً وغير مألوف، بل أن يظل مفتوح الأبواب والصدر والفرص إلى الأبد لأولئك الفتيات اللاتي يلقين بقيم الجدود والآباء في الهواء ويتعجلن «التجارب» بطيش وعدم تقدير للعواقب مهما كررن المأساة أو «التجربة» كما يدعونها، فهنا المشكلة! هنا المأساة الحقة! إن المرء وهو يزور تلك المعاهد البديعة الهندسة، الرائعة النظم والأثاث، يشعر برجفة وبقشعريرة. يشعر بأن جيلاً كهذا محتاج ليد قوية حازمة تقبض بدراية وحنكة على زمامه ـ بل على رقبته! أو ـ إن أنصفنا ـ هو جيل محتاج للطمة تفيقه! فخير أن يفيق ولو بقسوة أو ببعض القسوة، من أن يجر على وطنه الويل ـ خير من أن يهبط، ويهبط به!

لست أدري. ولكن بخيل إلى أن المدنية عندما تصل إلى الذورة التي ليس بعدها ذروة، تبدأ في الهبوط. فبعد الوصول إلى القمة، لا بد من الانحدار والهبوط إلى السفح من الجانب الآخر للجبل! هكذا ـ في رأيي ـ سنة الطبيعة. فبعد ذروة الشباب، شيخوخة متسللة. وبعد

الازدهار، فناء يدب حثيثاً. وهكذا أيضاً تاريخ المدنيات التي تتابعت على العالم مهما طال أمدها.

أشعر بحزن وشجن.
ليتني لا أكون على صواب!
الاثنين 6 نوفمبر:

أهم ما لفت نظري منذ وصلت إلى هنا هي مسابقة الجمال الكبرى التي أقيمت في مصيف «أتلانتيك سيتي»، لانتخاب ملكة جمال أمريكا. وهذه الملكة تنتخب من بين خمسين فتاة تمثل كل منهن جمال الولاية التي ولدت بها. وقد سهرنا كلنا وسهرت مغنا الجيرة نشاهد هذه المباراة التي يستعدون لها أشهراً طوالاً ـ شاهدناها في التليفزيون.

والذي أعجبني فعلاً هو شروط المسابقة. ألم أقل لكم من قبل إن في الأمريكيين متناقضات جمة؟ فعلى قدر استخفافهم ببعض القيم في بعض تصرفاتهم الشخصية والاجتماعية، يحترمون بعض القيم في بعض زوايا حياتهم احتراماً بالغاً ـ بل يقدسونها تقديساً؟ وعلى قدر لهوهم ومرحهم، تجدهم في بعض الأمور أناساً في منتهى الجد والصرامة الرزانة! يتمسكون بشروط وقوانين وضعوها هم للعبة جماعية أو لمسابقة من مسابقاتهم الكثيرة ـ تجدهم يتمسكون بتلك الشروط كأنها منزلة من السماء! لا يحيدون عنها قيد أنملة بحال من الأحوال. بل يتشبثون بها في استماتة نابعة فعلاً من احترامهم الشديد لتلك الشروط!

ومن هنا إعجابي الشديد بشروط مسابقة الجمال الكبرى التي تقام سنوياً في «أتلانتيك سيتي»، وتحضرها كبار الشخصيات الأمريكية والعالمية ونجوم من كل حفل - سينما، مسرح، صحافة، سياسة! أعجبتني شروطهم تلك حتى أنني تمنيت على الله أن يقتبسها منظمو مسابقات الجمال في بلادي. وهي:

أولاً: أن تكون المشتركة قد أتمت تعليمها الثانوي، والتحقت بالجامعة!

ثانياً: أن تكون ذات شخصية متبلورة محددة المعالم، وأن تكون على قدر كبير من الذكاء وقدر أكبر من المعلومات العامة!

ثالثاً: وأخيراً، الجمال! الجمال بمفهومه الواسع الإنساني! الطاهر النضر.

بنت مصرية في أمريكا
كريمة كمال (1983)

كريمة كمال. بنت مصرية في أمريكا. القاهرة: مكتبة غريب، 1983.

كريمة كمال مصريةٍ شابة أمضت عدة سنين في الولايات المتحدة حيث كانت تحضر لدرجة الدكتوراه في جامعو شيكاغو، ويبين كتابها لعام 1983 بنت مصرية في أمريكا وجه مُكبر لامرأة مصرية مع رسم تمثال الحرية في المقدمة، ويشمل كتابها قصصاً حول زميلاتها الأمريكيات في الدراسة والنساء الأمريكيات والحب والزواج على الطريقة الأمريكية والحمل في سن المراهقة في أمريكا ووصف لمدينة نيويورك.

أمريكا في حقيقة الأمر مجتمع لا يرتدي قناعاً!

مجتمع يسفر عن وجهه.. تستطيع أن تلتقط في لحظة كل عيوبه وكل مميزاته أيضاً. ولأنه وجه بلا قناع.. فقد يدهشك.. يصدمك.. يجعلك تطلق صيحات الاستنكار.. لكن المؤكد أن أي مجتمع آخر لو خلع قناعه وأسفر عن وجهه.. فربما تندهش أكثر.. تصدم أكثر.. تطلق صيحات استنكار أكثر.

أمريكا مجتمع لا يرتدي قناعاً لأن الأمريكي يخشى نفسه قبل أن يخشى الله أو الآخرين..

الأمريكي يحسب ألف حساب لنفسه قبل أن يحسب حساب اللّه أو ما يمكن أن يقوله الآخرون.

أمريكا.. مجموعة أفراد جاؤوا من شتى أنحاء العالم لا يملكون شيئاً سوى حلم يملأ رؤوسهم ولا يجمعهم شيء سوى لقب «مهاجر».. نحتوا في الصخر.. واجهوا الحياة.. صنعوها لم تكن حياتهم طفيلية بل كانت حياتية موت أو حياة.. بقاء أو فناء.. لذلك يعيش الأمريكي حياته إلى أقصى درجة.. يحاول الاستمتاع بكل دقيقة.. لا يوافق على الاستمرار في تجربة فاشلة لأنه يضع في ذهنه شيئاً واحداً.. هو أنه يعيش مرة واحدة.. مرة واحدة فقط! الأمريكي يستمتع بحياته ويرفض الشيخوخة ولذلك يحاول تأجيلها بقدر استطاعته ولذلك أيضاً جعل سن التقاعد في أمريكا سبعين عاماً.

ربما لنفس هذه الرغبة الشديدة في الاستمتاع يكره المجتمع الأمريكي التعمق في أي شيء خارج نطاق العمل.. ولذلك تشوب ثقافته بعض السطحية.. ولذلك فعندما كنت أتحدث مرة مع أحد الشبان الأمريكيين قال لي في تعجب. لماذا تفكرون كثيراً.. وتحللون.. وتصنعون نظريات؟ واكتشفت فعلاً أننا نستهلك وقتاً ليس بالقصير في التفكير في تصرفاتنا وتصرفات الآخرين وتحليلها وتنظيرها.. وهذا يبدو عجيباً بالنسبة للأمريكي.. فالأمريكي عادة لا يستغرق وقتاً في التفكير والتحليل.. أو أنه في الحقيقة يفكر وهو يخطو.. أو هو يخطو وخطواته هي في ذات الوقت أفكاره مجسدة.. فالأمريكي

لا يستغرق كثيراً في التفكير.. لا يحلل كثيراً حتى يتخذ قراراً.. بل أن خطواته وتصرفاته تقوده تدريجياً إلى قراره.. ربما لهذا السبب يبدو حجم استمتاع الأمريكي بحياته كبير وربما هو لا يستهلك رأسه وأعصابه في التفكير والتحليل لأنه يفضل أن يستمتع أكثر.. حتى لو كان هذا الاستمتاع بكأس أيس كريم أكبر كثيراً مما قد يتصور أحد.. أو «كيس بوب كورن» فشار في حجم مبالغ فيه.. أو كوب كوكاكولا عملاقة.. واستمتاع الأمريكي في الطعام والمسليات يبدو واضحاً في حجمها الكبير جداً بشكل مبالغ فيه وبشكل لا نجده مثلاً في أوروبا أو أي مكان آخر.

ربما تكون هذه الرغبة المبالغ فيها في الاستمتاع هي التي تغطي ثقافة الأمريكي بمسحة من السطحية فالتليفزيون الأمريكي يصيبك بالملل وقد لا تجد فيه ما يشدك ويحرك أفكارك ومشاعرك إلا نادراً.. وأخطر ما في التليفزيون الأمريكي وأكثره أمتاعاً لك هي نشرات الأخبار التي تقدم تغطية إخبارية خطيرة تنقلك إلى مكان الحدث وكأنك تعيشه.

مهما كان هذا الحدث.. فقد تحولت الحرب في لبنان إلى جزء من حياة الفرد الأمريكي.. فأخبار ما يجري في لبنان لا تقدم لك في ورقة يقرؤها مذيع في استوديو.. لكنك في لحظة تجد التليفزيون ينقل صورة مندوبه في أرض المعركة.

في وسط لبنان والدبابات حوله والجنود والطلقات تتوالى وهو يذيع لك آخر الأخبار والتحليلات وربما لذلك فالسياسة عند الأمريكي تقترب كثيراً من السينما وتختلط بها والشخصيات السياسية الأمريكية

والعالمية ينظر إليها الأمريكي نفس نظرته إلى نجوم هوليود.

أما الحلقات والمسلسلات فهي أما من النوع البوليسي أو من نوع «الويسترن» أي رعاة البقر التي لا يمكن أن تشدك..

والغريب حقاً أن المسلسلات الناجحة التي نستردها أحياناً من التليفزيون الأمريكي هي بالفعل أفضل ما يقدم على شاشته وأكثره ندرة في ساعات إرساله الطويلة وقنواته المتعددة. أما المحطات الخاصة التي تدفع مقابلها اشتراكاً لتحصل على «أيريال» استقبال خاص يتيح لك التقاط إرسالها فهي تقدم لك أما أفلام رعب ساذجة أو أفلاماً جنسية وكلها ليست على مستوى جيد بأي حال من الأحوال.

طريقة استمتاع الأمريكي بحياته تبدو أحياناً عجيبة أو ذات طراز خاص أو طابع خاص يميزها.. والذي يشارك في أحد الأعياد القومية الأمريكية يدرك هذا وقبل أن يأتي اليوم كنت قد سمعت عن «تأست أوف شيكاغو» وهي الطريقة التي تحتفل بها شيكاغو بالعيد القومي الأمريكي، وقررنا أن نشارك نحن أيضاً في هذا اليوم لنستمتع ونرى كيف يستمتع الأمريكي. وفي الصباح كنا مجموعة كبيرة من المقيمين في البيت الدولي نستقل القطار إلى وسط المدينة حيث يقام الاحتفال في إحدى الحدائق التي تحتل مساحة رهيبة من المدينة.. مساحة لا يمكن تصور أن تحتلها حديقة.. وفي ثوان كانت أرض هذه الحديقة مزروعة بآلاف البشر لم يعد شبر خالياً. احتشدت جموع الأمريكيين.. رجال ونساء وأطفال فرشوا قطع أقمشة.. مفارش.. سجاجيد صغيرة على الحشائش وجلسوا عليها.. ألوف جالسة وألوف تروح وتجيء بصعوبة من شدة الزحام.. عشرات الأكشاك التي

تبيع الأطعمة والمشروبات، بالونات ملونة على شكل وجوه ونجوم وحيوانات...

أطواق للشعر يمتد منها سلكان حلزونيان في نهاية كل منهما نجمة تلمع بألوان مختلفة.. يرتديها الكبار والصغار.. الرجال والنساء.. البعض رسم نجوماً على وجهه وأشكالاً ملونة...

مدينة للملاهي.. عربات تبيع الهدايا.. مسرح كبير تقدم عليه بعض الأغاني القومية ويرددها مع الفرقة الصغيرة الجمهور الضخم.. وصواريخ تنطلق في ظلام المساء.. المهم أن هذا الاحتفال الضخم يتبلور في شيء واحد...الزحام الشديد.. الزحام إلى حد أنك تختنق.

بشر يسيرون في كل اتجاه بلا هدف يصطدمون ببعضهم.. يجدون صعوبة شديدة في أن يخطو خطوة واحدة.. الزحام الشديد يحولهم إلى كتلة ملتصقة لا تفعل شيئاً سوى دفع النقود في الأكشاك والحصول على «بونات» لشراء الطعام والاحتشاد أمام أكشاك الطعام والصراع للحصول على صنف من أصناف الطعام. وكوب بيرة.. وفي العودة.. وساعات الفجر تقترب.. كانت الشوارع المحيطة بالحديقة تبدو وكأنها تجتاحها مظاهرات للغوغاء.. ومحطات القطار معبأة عن آخرها ببشر كل منهم يحلم بأن يصل إلى أن يضع قدمه داخل القطار ليصل إلى فراشه منهكاً.. مهدوداً لم يفعل شيئاً طوال اليوم سوى صراع التحرك وسط الزحام وتناول مختلف الأطعمة وهو في النهاية أسلوب استمتاع على الطريق الأمريكية.

الحياة في أمريكا خطوة يجب أن تخطوها في كل لحظة عمل تؤديه في كل دقيقة قرار تتخذه في كل ثانية.. والحياة في أمريكا لا

تسير وأنت منوم.. طفيلي.. لا تفعل شيئاً.. لأن ما تفعله يتحكم في أن تعيش.. أو لا تعيش.. أن ترتفع إلى القمة أو تسقط إلى قاع المجتمع.. فأنت في أمريكا لا ترتقي بالأقدمية أو مراعاة الخواطر.. وعملك لا يتحكم فقط في أن ترتقي أو لا.. بل أن تجد دخلاً أو يختفي هذا الدخل فجأة.. أن تذهب إلى عملك في اليوم التالي.. أو تجد نفسك في الشارع بلا عمل.. بلا دخل... وعدم الاستقرار هذا هو الذي خلق كل هذه المدنية وكل هذه التكنولوجيا وهذا التطور الصاروخي.. والاستقرار عندنا هو المسؤول الحقيقي والذي يجب محاسبته عن التواكل والتكاسل وعدم الرغبة في الحركة وتوقف الحياة.. وتوقف الجديد في حياتنا.. واختفاء الجديد فيما نفعله بحياتنا وما نقدمه، لتطورنا.

أمريكا حرية.. تطور.. عنف!

الحرية في أمريكا تعطي الإنسان الفرصة ليحيا حياته كما يريد ربما نشعر نحن أننا محرومون من هذا.. إننا نحتاج إلى اجراء استفتاء واسع النطاق لنستطيع في النهاية أن نتخذ قراراً.. أي قرار في حياتنا.. بينما الأمريكي لا يستفتي سوى عقله ليتخذ أي قرار في حياته.. ويتخذ القرار دون أن يضع في حسابه الآخرين.. بينما كثير من القرارات تحتجب في حياتنا ولا تتحول إلى فعل خوفاً من الآخرين.

لكن الحرية في أمريكا كثيراً ما تغتال البراءة.. براءة الصغار.. براءة العلاقات الاجتماعية.. براءة العلاقات العاطفية.. براءة

الإنسان.. براءة الإحساس. أنت في لحظة تحسد أمريكا على حريتها.. وفي لحظة ترثى لها على ما تدفعه ثمناً لهذه الحرية.

أمريكا.. مدنية.. تطور.. تكنولوجيا. الذي قال إن المدنية تسحق الإنسان أما أنه لم ير المدنية مطلقاً ولم يجربها أو أنه كان لا يريد تحريك غيرته. فإنني عندما كنت أراقب المدنية وما تفعله بالإنسان في أمريكا أضحك ساخرة من العبارة التقليدية والتي تقال دائماً وهي أن المدنية تسحق الإنسان.. تأكله.. تلتهمه تلغى إنسانيته.. والحقيقة كما رأيتها في أمريكا.. وطن المدنية.. هي أن المدنية تعطي الإنسان هنا مزيداً من إحساسه بنفسه.. تعطيه قدراً هائلاً من الثقة بالنفس.. من الشعور بأهميته. الإنسان في ظل المدنية يشعر بأهميته أكثر كثيراً من واقع هذه الأهمية وحجمها وحقيقتها!

ولذلك لا تندهش إذا شاهدت شخصاً في أي مكتب للطيران أو السياحة أو في أحد دور اللهو في أي مكان من العالم.. شخصاً يطالب بكل الخدمات الممكنة وحتى غير الممكنة.. يطلبها كحق طبيعي ومنطقي له، لا تندهش.. ويجب أن تعلم أنه شخص يطلب ما اعتاد الحصول عليه.. ويجب أن تدرك من أول وهلة أنه بالضرورة أمريكي!

إن الأمريكي اعتاد على أن المدنية هي خادمه المطيع.. أو خاتم سليمان الذي يضعه في أصبعه والذي عليه هنا أن يدعكه حتى يخرج له مارد ينحني قائلاً «شبيك لبيك».. ويحقق له كل ما يريد وكل ما يحلم به.

نفس هذه المدنية هي التي تجعل الأمريكي يتقاضى تعويضاً عن أشياء لا يمكن أن تصدقها ولأسباب قد لا تخطر ببالك خاصة إذا كنت

من أبناء العالم الثالث الذين اعتادوا على بلع المسامير والسقوط في المجاري وتناول الأطعمة التي تحولت إلى سموم بمضي الزمن.. دون أن يندهش أحد.. أو يثور أحد.. فعندما تختفي المدنية أو تحتجب يصبح الإنسان رخيصاً إلى حد لا يمكن تصديقه.. وعندما تسيطر المدنية وتنتشر يصبح الإنسان غالياً وذا قيمة لا تواثيها قيمة لأي شيء آخر.. فيحصل الأمريكي على تعويض لأن قدمه زلت على أحد السلالم.. ويصبح مصمم هذه السلالم في موقف لا يحسد عليه لأنه لم يجد تصميمها جيداً بحيث لا يسقط صاحب السعادة الفرد الأمريكي.

الأمريكي يحصل على تعويض لأن حمام سباحته لا تتوفر فيه كل المواصفات التي طلبها والتي قيل له أنها تتوفر فيه.. الأمريكي يحصل على تعويض إذا أصابه مغص خفيف بعد أكلة في مطعم ويا ويل صاحب المطعم من قيمة التعويض الذي يمكن أن يدفعه.. الأمريكي يعيد الشيء الذي اشتراه للمحل مهما مضى من زمن على شرائه ويكفي أنه لا يعجبه ويستقبلونه بابتسامة وكلمة ود وكأنه جاء لشراء المحل كله وليس إعادة ما اشتراه من زمن!! ربما لهذا يبدو الأمريكي ودوداً فلا شيء يضغط على أعصابه إلى حد العصبية والتجهم.. فالأمريكي عادة ودود ويحمل ابتسامة هادئة منشرحة على وجهه.

تستطيع أن تشعر بهذا الود من تعاملك في المطاعم.. في المحلات التجارية.. في السوبر ماركت.. في الأتوبيس.. في محطات الأندرجراوند.. والأمريكي يستعمل عبارات تقليدية لإظهار هذه المودة.. وهو دائماً يردد في وجهك «يوم سعيد».. «مساء سعيد».. «عطلة نهاية أسبوع سعيدة».. «استمتع بوقتك» وهي كلها تحمل معنى

واحداً.. هو أنه يتمنى لك السعادة والوقت الممتع.

والذين يعاشرون الأمريكي يختلفون حول هذه المودة.. البعض يقول إنها طريقة مهذبة لجذب الزبون.. والبعض يقول إنها طبيعة الشعب الذي تجمعه الغربة فيحاول أن يذيبها.. والبعض يقول إن هذه المودة ليست سوى قناع يخفى حقيقة النفس والشخصية الأمريكية والبعض يقول إنها مودة تقتصر على الشفاه ولا تمتد إلى القلب. ومهما كانت حقيقة كل هذه التفسيرات والتحليلات.. فالمؤكد أن هذه المودة تشعرك بالراحة والترحاب وإنك شخص مرغوب فيه تعامل باحترام ومودة سواء كانت هذه المودة طريقة ذكية للتعامل أو إحساس حقيقي..

لكن هذه المودة تختفي تماماً من نظرة الأمريكي للآخرين.. لأبناء الشعوب الأخرى.

فالأمريكي في هذا لا يختلف كثيراً عن النازي فإذا كان الألماني في ظل النازية كان يشعر أنه الجنس الأفضل في العالم من ناحية العنصر.. فإن الأمريكي يشعر أنه الأقوى في العالم لأنه يملك سلاح اليوم.. يملك المدنية.. يملك التكنولوجيا.. ويملك معهما مقدرات العالم.

الأمريكي يشعر بقوته وما يملكه ونقطة ضعفه الوحيدة أي شيء قديم.. أي شيء يحمل طعم السنين.. له رائحة التاريخ.. وهو الشيء الوحيد الذي لا يملكه الأمريكي.. التاريخ.. لذلك ينبهر الأمريكي أمام سجادة عتيقة أو فازة قديمة حتى لو كانت من الخشب المتآكل أو حتى صورة قديمة لشخص يرتدي أزياء تعود إلى سنين إلى الوراء ويحيطها برواز بال.. ولذلك يحاول الأمريكي أن يوهم نفسه ويوهم الآخرين بأنه

يملك تاريخ ففي ديزني وورلد مدينة السحر والمتعة يصنع الأمريكي تاريخه في مجموعة من التماثيل الخشبية يحمل كل منها ملامح أحد الرؤساء الذين حكموا أمريكا.. وتسلط الأضواء على كل تمثال بدوره ليحكي تاريخ الفترة التي حكمها رغم أن هذا التاريخ لا يمتد طويلاً إلا أنه يروي بطريقة وكأنه يحكى أحداث آلاف السنين.

كل شيء في أمريكا كبير الحجم.. الشوارع.. ناطحات السحاب.. .. أكواب الكوكاكولا.. أكياس الفشار.. كؤوس البيرة.. والشيء الوحيد الصغير الحجم هنا هو الاحترام.. فالأمريكي لا يحترم أي شيء.. يفعل ما يريد.. يقول ما يريد.. يتحرك كما يريد.. ولا يبالغ في احترام أي شيء أو أي شخص.. هل هي زيادة احترام لحريته هو أم.. هل هو رفض لكل تقاليد العالم القديم في أرض العالم الجديد.. ربما.

أمريكا.. عنف.. أمريكا مجتمع اعتاد على العنف. والأمريكي يستمع إلى أخبار الجرائم بنفس الطريقة التي يستمع بها إلى النشرة الجوية.. رغم أن معظم هذه الحوادث تبدو غريبة بل شاذة بالنسبة لأي غريب.. ففي يوم واحد أذاع التليفزيون الأمريكي في نشرة أخباره خبراً بأن أحد العمال في إحدى الورش الكبرى في ميامى لم يعجبه نظام العمل في الورشة فأطلق النار على كل من فيها فقتل تسعة أشخاص وجرح ثلاثة، وفي نفس نشرة الأخبار أذيع خبر للمحاكمة التي كانت قد بدأت في هذا اليوم لشاب خطف طفلتين في يوم واحد وقام باغتصابهما!!

وطبيعي أن نتساءل: هل الجريمة في المجتمع الأمريكي أكثر وأخطر منها في أي مجتمع آخر.. أم أنها تبدو كذلك لأن هذا المجتمع

لا يخفى شيئاً بل يعلن عن كل شيء..

وإذا كان وضع الجريمة في المجتمع الأمريكي يبدو غريباً فإن وضع القانون يبدو أغرب.. فالأمريكي إذا اتهم في جريمة برىء ما لم يضبط متلبساً حتى لو كانت كل الأدلة ضده وهو إذا لم ينقذ من هذا المخرج ينقذ من مخرج اسمه الحالة النفسية والإخضاع للكشف النفسي كما حدث مع «جون هينلكى»..

ففي أي بلد في العالم يمكن أن يحاول شخص اغتيال رئيسها دون أن يحكم عليه بالإعدام.. إلا أمريكا التي سجلت عدسات التليفزيون فيها صورة هينلكى وهو يطلق النار على الرئيس ريجان ورغم ذلك قررت المحكمة بعدها بشهور عدم الحكم عليه نظراً لأنه ثبت أنه يعاني من حالة نفسية وقررت إخضاعه للعلاج.

.. معنى هذا ببساطة أن يعالج ليخرج مرة أخرى إلى المجتمع.. إلى الحياة.. ومن يدري ما الذي يمكن أن يفعله.

مهما امتدت أيام الرحلة فإنه حتماً يأتي اليوم الذي تجمع فيه أشياءك المبعثرة لتضمها حقائبك.. وتكتشف أن إحساس الغربة الذي رافق أيامك يحل محله الآن شعور بأنك تفارق شيئاً عزيزاً عليك.. جزءاً من أيامك.. تجربة مرت في حياتك وامتدت بطولها ذكريات كثيرة.. لحظات اكتشاف.. حزن.. فرح.. غربة.. اشتياق تأقلم.. نفور.. ويغزو رأسك سؤال يبحث عن إجابة.. سؤال ظل يغازل عقلك منذ أن وطئت قدمك أرض هذا العالم البعيدة عن أرضك.. الجديدة عن أرضك.. عالم آخر مختلف تماماً.. أيهما تفضل عالمك.. أم هذه العالم؟

عالمك يشكو من قلة الحرية.. وهذا العالم يشكو من شدة

الحرية.. عالمك يشكر من الافتقار إلى المدنية.. وهذا العالم يشكو من شدة المدنية.. عالمك يشكو من الافتقار إلى الجدية.. وهذا العالم يشكو من شدة الجدية. وكأن قدر العالم أن يظل يشكو.. وألا توجد أبداً أرض تعطي الحل للإنسان.. إلا أرضه الداخلية.. إلا نفسه هو.. هو فقط!!

الرحلة
ايام طالبة مصرية في أمريكا
رضوى عاشور (1987)

رضوى عاشور. الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1987.

رضوى عاشور أكاديمية مصرية متخصصة في الأدب الأمريكي، وكانت طالبة دكتوراه في الدراسات الأفرو—أمريكية في جامعة ماساشوستيس، ودرست ما بين 1973 – 1975، وتدرس حالياً في جامعة عين شمس في القاهرة، و كتابها الأنيق الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، وهو في طبعته الثالثة، يعطي للقارئ سرداً مفصلاً لحياة طالبة أجنبية في أكاديمية أمريكية.

أمامه كرّاسة للرسم وكومة من الأقلام الملونة في حين ينحني هو على كتبه وأوراقه على المكتب.

أوردت نشرة أخبار السابعة مساءً في التلفزيون أن ظاهرة التعري الجماعي آخذة في الانتشار بين طلاب الجامعات، وأن طلبة جامعة نورث كارولينا حققوا الرقم القياسي حين خرج أكثر من ثلاثمائة طالب وطالبة في يوم واحد يركضون معاً وهم عراة تماماً. ولما كانت نشرات الأخبار تعدّ لكي تسمع ويستقبلها الناس ويتأثروا

بها، فما مضى يوم إلا والإعلانات تغطي الجامعة بأن طلبة «ساوث ويست»، أكبر تجمع سكاني طلابي داخل الجامعة والذي منه برينس هاوس، قد قرروا إقامة حفل «ستريكنج» أي تعر جماعي على أن ينطلق المشاركون في الساعة الحادية عشرة ليلاً من مركز تجمعهم في «ساوث ويست» في موكب راكض من العراة إلى مركز الحرم الجامعي، يدخلونه ثم يعودون. وأثار الخبر كل مَن في الجامعة، من ينوون المشاركة ومن ينوون المراقبة. أما نحن مجموعة الأصحاب الغرباء على المشهد الأمريكي، فقد ضحكنا كعواجيز الفرح وقلنا: «لماذا لا نقيم نحن أيضاً حفلنا الصغير الخاص، نشرب ونأكل ونرقص في قاعة الدراسة المطلة على أبراج «ساوث ويست» ولحظة الواقعة نطل من النوافذ فنشارك في الحدث المثير بالمشاهدة!».

قلت لصديقي الإيرانيين لما رأيتهما مدججين كل بآلة تصوير:

- أرى أنكما ستلتقطان صوراً منافية للآداب!

وضحكت، فرد أحدهما ضاحكاً:

- بل صوراً تشهد على الزمان والمكان!

- الحق أقول لكما أن ما يشغلني أكثر من تعري هؤلاء أسباب بلا سبب مفهوم هو ما سيتعرضون له من برد قارص.

سيصبحون جميعاً في الغد وقد أصابهم التهاب رئوي!

ولم نتحدث في الأمر بعد ذلك بل رحنا نشارك في احتفالنا بالحديث والنقاش والثرثرة في موضوعات أخرى، متناسين ـ المحور لليلة حتى نسيناه فعلاً.

«هاهم بدأوا يظهرون!» لا أدري من ذا الذي اتخذ من برج مراقبة

وإنذار، ولكننا تحلقنا خلف النوافذ ننظر موكب كبير من الطلاب العراة تماماً إلا من الجوارب والأحذية يحاولون من أمام الأبواب الخلفية لبرينس هاوس. تساءلت كانت هرولتهم لشدة شعورهم بالبرد أم حرجاً من عريهم المألوف. لم أر في حياتي مشهداً كهذا أو مقارباً حتى قلت:

- كان يجب أن ننزل لنشاهدهم عن قرب.

فقال صديقنا الألماني:

- ولكن الجو شديد البرودة.

وأجابتني صديقتي ضاحكة:

- لم يفتك شيء إذا كان لديك الاستعداد الآن للنزول وراءهم ركضاً!

كنا لا نزال متحلقين حول النوافذ نعلق على الموضوع حين دخلت علينا ماري وشيلا اللتان تسكنان الدور نفسه بصخب عاصف. قالت ماري بصوتها الأجش العالي:

- أما مشهد! لقد لبسنا معاطفنا ونزلنا، وانتظرنا خروجهم، ورأيناهم يمرون من أمامنا.

وضحكت بمزيج من العصبية والفرح المنفعل.

- لقد التقطت لهم صوراً! كانت أبدانهم جميعاً مقشعرة من شدة البرد... مساكين! أما منظر الأولاد... يا إلهي!

وراحت تقهقه. أما شيلا فكانت تتحدث إلى مجموعة أخرى عن تقديرها لعدد المتعرين. كان من الواضح أنهم مئات. قالت شيلا بثقة:

- ليس أقل من أربعمائة!

في اليوم التالي جلست في قسم اللغة الإنجليزية مع أستاذ النقد النظري وإحدى الزميلات بانتظار باقي المجموعة للذهاب إلى بيت الأستاذ للمحاضرة. كانت جريدة الجامعة قد نشرت الخبر، وقالت إن عدد الطلاب قارب الأربعمائة، وصدّرت في الصفحة الأولى صورة لعدة فتيات عاريات أثناء ركضهن في الموكب. قال «البروفيسور» وهو يبتسم بهدوء «صرعة جديدة» وقلت لنفسي: «وما الذي يحرك هذه الصرعات الجديدة؟!».

كان الجواب واضحاً في عدد اليوم التالي من «الديلي كولويجيان» حين سئل أحد المسؤولين في شرطة أمهرست والتي تدخل الجامعة ضمن اختصاصها، فقال:

- لماذا نقلق؟ إن الطلاب يستمتعون بوقتهم... وهذا أمر صحي، المؤكد أنه أفضل من ذلك الهوس السياسي الذي استولى عليهم في الستينات.

كانت الشرطة تريد للطلاب الاستمتاع بوقتهم هكذا جماعياً، لأن هذا يفيد، أما خروج فرد عن المألوف فلم يكن مطلوباً في شيء. ولذلك فقد قبضت الشرطة بعدها بيومين على طالب عنّ له أن يركض في وضح النهار عارياً بالجامعة، قبضت عليه وأنذرته بالعقاب ثم أفرجت عنه!

امريكا خبط لزق
مذكرات طالبة بعثة
هالة سرحان (1995)

هالة سرحان. أمريكا خبط لزق. القاهرة: دار الشروق، 1995.

هالة سرحان المذيعة المصرية الشهيرة ذهبت الى الولايات المتحدة بمنحة لدراسة المسرح في جامعة لويزفيل، كنتاكي حيث حصلت على الدكتوراه في أوائل التسعينات. ويحتوي كتابها هذا الذي نشرته عام 1995 على نظرة لأمريكا تشوبها السخرية. ويبين الغلاف صورة لامرأة ترتدي بنطال جينز ممزق وحذاء قماش خفيف وتمسك ساندويشاً للسجق في يدها وفي الأفق توجد مدينة تبدو كنيويورك. وتشمل بعض المواضيع المغطاة في الكتاب زملاء الصف الأمريكيين والأستاذ الأمريكي والطقس الأمريكي والمطبخ الأمريكي ومطاعم الأكل حتى الإشباع والحلم الأمريكي والشراء عن طريق بطاقة الائتمان في أمريكا والثلج في أمريكا.

نبذة عن الكتاب:

مجموعة من الصور الدرامية المتراكمة تتوالى وتتصل لترصد «الآخر» مقابل الذات في تجربة الاغتراب.

فهالة سرحان تحكى وتسرد لنا حكايتها دون أن تخلق أو تتبنى ـ ككاتب ـ دور «السَّارد» أو «الراوي»، بل إنها واحدة من الشخصيات التي تؤسس عالم هذه الحكايات المتنوعة.

والكتاب لا يصور صدمة، أو انبهار فتاة مصرية أمام ما هو متاح، مقارنة بما لم يكن متاحاً لها في مجتمعها، فتصاب بالاختلال الذي يفقدها وعيها، بل يعرض طاقة فتاة مصرية أمام سلسلة من التحديات والمعاناة لم تزعزع توازنها، أو تشرخ، أو تعمق فيها الإحساس بالنفس المبتورة، أو تجتث جذورها فتسعى كي تتشبه «بالآخر».

إنها فتاة منزوعة السلاح، لكنها قادرة على الاستيعاب والتعايش دون أن تفقد هويتها الخاصة، ولديها قدرة المواجهة التي لا تخفيها، وسعة الأفق التي تتعامل بها مع التقنيات المستحدثة.

إن الكتاب يضم تجربة خصبة تنعش قدرتنا على المقارنة، وتحقق قراءة واعية تحذرنا من أن نقع في الفخ المنصوب وغوايته، فالكاتبة تحمل ثقافتنا مطبوعة بالحديد المحمى في ذاكرتها، وتستخدم لغة منتقاة لاذعة، وإشارات توقف في الصياغة تعكس فكرها، ولغتها في العموم لغة حارة كاشفة متمايزة تماماً كبنية هي نقطة انطلاق موهبتها.

الحلم الأمريكي

وأمريكا قارة بالفعل وليست مجرد بلد، فالساحل الشرقي يبعد عن الساحل الغربي ما يزيد على أربعة آلاف كيلو والطائرة تقطع المسافة بين واشنطن وسان فرانسيسكو في ثماني ساعات والمواطن الأمريكي قد يعيش على الساحل الشرقي في درجة حرارة تحت الصفر حيث تكسو الثلوج الجبال وفي نفس اليوم يكون المواطن على الساحل الغربي في لوس أنجلوس يجلس على الشاطىء يستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وفي نفس اليوم تكون درجة الحرارة في صحراء أريزونا ونيفادا تشوي الجلود، وفي غابات مونتانا الباردة في الشمال يرتدي الناس معاطف الفراء السميكة، الامتداد الجغرافي للقارة الأمريكية شرقاً، وغرباً، شمالاً، وجنوباً، مع الاختلاف في التركيبة البيئية من جبال إلى وديان إلى صحراء، إلى غابات، إلى شواطىء، انعكس على الشخصية الأمريكية تناقضات سلوكية كبيرة، ومن الصعب أن نصف سمات الشخصية الأمريكية، فالساحل الشرقي هو أرض الإنسان المحافظ والمثقف والفنان، وتختلف شخصية مواطن يعيش في نيويورك في الشمال الشرقي حيث إيقاع الحياة اللاهث والضجيج والزحام وجرى الوحوش والجريمة والفنون المزدهرة والحرية الشديدة، يختلف هذا المواطن عن مواطن يعيش في «بالم بيتش» في جنوب الساحل الشرقي حيث الحياة الممتعة الرحبة وإيقاع الحياة الهادىء، ويختلف الاثنان عن مواطن من الساحل الغربي من لوس أنجلوس أو سان فرانسيسكو حيث التلقائية والانطلاق والإباحية

وهوليوود والطموح والشذوذ. بالتأكيد هناك ارتباط بين المؤثرات الجغرافية على شخصية كل منهم. هذا إلى جانب الاختلاف الكبير في الخلفيات الحضارية والثقافية والدينية للمواطن الأمريكي.

فالمواطن الذي هو من أصل أوروبي يختلف عن المواطن الذي هو من أصل صيني أو مكسيكي أو لاتيني «من أمريكا اللاتينية». كما أن المواطن الأمريكي قد يعيش سبعين عاماً من عمره دون أن ينتقل من «تكساس» إلى «سياتل» لأن المسافة خمس ساعات بالطائرة وعدة أيام بالسيارة وما زلت أتذكر نظرات الاحترام والتبجيل من أستاذ مادة الدراما الأمريكي في جامعة «لويفيل» في ولاية «كنتاكى» لأنني قمت بزيارة «نيويورك» وشاهدت مسارح «برودواي» وأنا القادمة من بلاد الفراعنة وهو الأمريكي الذي تعدى الخمسين من عمره ولم تطأ قدماه مدينة «نيويورك» ومن ثم تجد كثيراً من الأمريكيين لا يعرفون شيئاً عن العالم الخارجي ويتصورون أن الحياة هي أمريكا وأن أمريكا هي الحياة.. وإذا سألت الواحد منهم ما هي عاصمة سوريا! أو فنلندا؟ قد لا يعرف أصلاً أن هناك بلداً تحمل هذا الاسم. والمثل الشعبي الأمريكي الذي يعبر عن هذا المنطق أيما تعبير هو المثل القائل:

Far From My Bed

وهذا حين يريد التعبير أن القضية لا تهمه فيقول إنها بعيدة عن فراشه، ولا شك أن الذين قالوا إن الجغرافيا هي القضبان التي يسير عليها التاريخ والسياسة كانوا على صواب تام، فأمريكا على يمينها المحيط الأطلسي الذي كانت تعبره السفن في عشرة أيام وعلى يسارها المحيط الهادي الذي كانت تعبره السفن في أسبوعين

ومن الطبيعي أن تصبح فكرة البلد والوطن والقارة كلها أفكار تحمل مضموناً مختلفاً في أمريكا عنها في أي مكان آخر، فالوطن الأمريكي في خيال الأمريكي ليس هو الوطن كما يفهمه المصري أو الهندي، وقد يعيش المواطن الأمريكي ويموت دون أن يرى إلا خمس ولايات أمريكية ولا يعرف شيئاً عن الخمس وأربعين ولاية الباقية. ومن الطبيعي أن تفرز هذه الجغرافيا المتباينة أمزجة مختلفة وسلوكيات متناقضة فهناك الشخصية الباردة في جبال «فرمونت» في الشمال الشرقي وهناك الشخصية المشتعلة في جنوب أريوزنا ـ في الجنوب الغربي، وهناك مجانين كاليفورنيا بالطبع.

في المناطق الزراعية مثل ولاية «كنتاكى» و«أنديانا» ما زالت الأسرة متماسكة تحافظ على التقاليد العائلية، أما في المدن الكبرى المزدحمة مثل نيويورك، ولوس أنجلوس، وهيوستون فتجد أن الأسرة مفتتة إلى حد كبير وتبرز السلوكيات الفردية الأنانية ويعيش الأطباء النفسانيون في رفاهية ورغد من العيش.

ويظل الإنسان الأمريكي يحلم «الحلم الأمريكي» والحلم الأمريكي dream American The من العبارات التاريخية المأثورة والأثيرة بالنسبة لكل مواطن أمريكي، فالمهاجر يأتي إلى أمريكا وفي جعبته الحلم الأمريكي، ما هو الحلم الأمريكي؟.. هو الرفاهية والثروة والحرية والديمقراطية والنجاح والطموح والصعود وهو كل قصة نجاح. فالحلم الأمريكي هو أن تأتي من بلاد الفقر والقهر والجهل خالي الوفاض وتكد وتتعب وتعمل وتصبح مليونيراً من عرق جبينك وليس عن طريق الوراثة أو الثروة المفاجئة. الحلم الأمريكي هو أن

تصبح «سيناتور» في الكونجرس أو رئيس الولايات المتحدة عن طريق الانتخابات الحرة وليس عن طريق الواسطة أو الرشوة.

الحلم الأمريكي نظرية فلسفية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

أمريكا :
آراء ساخرة

أمريكا الضاحكة زمان:
مذكرات طالب مفلس في الولايات المتحدة
مصطفى أمين (1989)

مصطفى أمين. أمريكا الضاحكة زمان: مذكرات طالب مفلس في الولايات المتحدة. القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، 1989.

كان مصطفى أمين أحد اشهر محرري الصحف في مصر. وفي عام 1940 ساعد في تأسيس أخبار اليوم وهي صحيفة يومية وكان محررها لعدة سنين. ويسجّل كتابه حياته كطالب في الولايات المتحدة في الثلاثينات. و عدا قيمته التاريخية فالكتاب مثال طيب للكتابة الفكاهية في العربية. وعلي الغلاف العلم الأمريكي وجه مستدير ضاحك يشبه قرص الشمس وشعر يشبه أشعة الشمس وتشمل بعض فصول الكتاب العجائب في ارض العجائب والمرأة الأمريكية والعائلة الأمريكية والمليونيرات الأمريكيين والكابوس في أمريكا وهوليوود والاحتفالات الأمريكية.

بناتنا وبنات العم سام
ولكن ما هو حال المرأة الأمريكية؟

عندما سافر صاحبنا إلى أمريكا كان مصحوباً بالسلامة وبألف وخمسمائة وصية ونصيحة بأن يبتعد عن بنات العم سام. كما يبتعد السليم من الأجرب. وبأن يغمض عينه كلما غمزت له فتاة، فإذا رأى عيوناً ناعسة فيها سحر هاروت وماروت، أو حتى هاروت فقط، أو إذا رأى شفتين تجذبانه كمغناطيس وعينين تزغللانه كمنارة بورسعيد، أو إذا رأي جسماً يتهادى - كالطاووس أو يتثنى كغصن من أغصان الياسمين. يداعبه النسيم، إذا رأى كل هذا فما عليه إلا أن يحوقل ويستعيذ بالله ويقرأ آية الكرسي سبع مرات.

وكان يعتقد أن فتيات العم سام يسلبن النفوس باللاسلكي ويتملكن القلوب بسرعة الديزل الذي لا يقف في المحطات، فودعه أصدقاؤه آسفين بعدما أوصوه بأن يدافع عن نفسه - أمام العيون والشفاه - حتى النفس الأخير.

ولكن بنات العم سام خيبن جميع الآمال والظنون التي عقدها عليهن أصدقاؤه الأعزاء، فالفتاة الأمريكية لا تحب لتعيش، بل تعيش لتحب، وهي ترى أن الحب إحدى لذائذ الحياة كالتدخين والويسكي. وكما أن كل إنسان يختار نوع سيجارته فالمرأة تختار نوع الرجل الذي تحب.

والبنات في مصر رخيصات - ولا يتكلف الشاب لمقابلتهن أكثر من أن «يتلطع» ساعة في الانتظار وأن يرسل كتاباً مؤثراً من محبكم الذي داب وأنتم «لم دريتو به» ثم جالون بنزين أو عربة حنطور إذا

كانت المحبوبة من بنات الذوات، أو تذكرة ترام بستة مليمات إذا كانت «جولييت» من بنات الإيه.

ويا سوء حظ «روميو» الذي يريد أن يقابل جولييت في أمريكا لأنه يذهب لمقابلتها أمام أهلها وذويها، لا في غفلة من العيون والرقباء، ويدخل من الباب.. ولا يقفز من السور كما كان يفعل صاحبنا مع بنت الجيران.

ومع ذلك فلا يصح ولا يجوز لأي روميو محترم أن يدخل بيت جوليت ويده فاضية إلا من السلام، بل يجب أن يحمل معه طاقة من الأزهار. وإذا علمت أن الوردة في نيويورك ثمنها نصف ريال، وإن أقل طاقة من الأزهار ثمنها جنيه فاعلم أن في ميدان الإفلاس متسعاً للجميع.

ويفتح لك الباب الأب أو الأم الأخ، ولكنهم لا يستقبلونك بالهراوات والمقشات، كلا. فأهل البنات في أمريكا مؤدبون إذ أنهم يستقبلونك بخمسمائة «وحشتنا» وبستمائة «آنستنا».

ثم تأخذ ست الحسن والجمال، إلى السينما.. وفي «مشوار» السينما «تكع» بين أجرة دخول وتاكسيات ثلاث ريالات أي ستين قرشاً بعملة لاظ أو غلى.

وبعد ذلك يدعو روميو جولييت إلى العشاء، لأن البروتوكول أو الأصول عند بنات العم سام تقضي بأن الشاب إذا أراد مقابلة فتاة يجب أن يدعوها إلى العشاء.. ولا مفاوضة إلا بعد العشاء.

والعشاء في أمريكا غال وليس لمطاعم الشعب فروع في نيويورك، فإذا أردت أن تتواضع حبتين وتذهب إلى «مطعم متواضع» فلا أقل من خمسة ريالات تدفعها بالأصالة عن نفسك، وخمسة ريالات

أخرى تدفعها بالنيابة عن ست الحسن والجمال.

وبعملية حسابية بسيطة تعرف أن المقابلة التي تدفع فيها في مصر خمسة مليمات تتكلف في أمريكا خمسة جنيهات.

وبنات أمريكا ساحرات وفاتنات ومدهشات، يملأن مجالسهن الأنيقة بحياة يغمرها الضحك والمرح ويحطن أنفسهن بجو من الحبور والسرور.

ولكن البنات المصريات يفقهن سحراً وفتنة، ففي ابتسامتهن حلاوة كأنها الرحيق، وفي ضحكاتهن نغم وموسيقى، بل إن الإنسان يشعر وهو جالس إلى جانب فتاة مصرية أن الكهرباء والجاذبية تسريان في كل جزء من أجزاء جسمها.. وصاحبنا يقرّ أن فتاتنا المصرية كاذبة نعم وأنانية نعمين.. وخداعة... ثلاث نعمات.. ومع كل هذه النقائض فإنها تفوز على أي فتاة في العالم في مسابقة الفتنة والجمال والإغراء.

وتمتاز الفتاة الأمريكية عن الفتاة المصرية بأنها حسنة الذوق في اختيار الشبان.. إنها لا تحب الرمرمة كما تفعل بعض بنات اليوم اللاتي لا يهمهن أكثر من أن تملأ الواحدة خانات قلبها، وكأنها تملأ، برطمانا للطرشى!

إن بعض الفتيات الشرقيات تعتبر المثل الأعلى للشباب هو ذلك الشاب المخنث اللامع الشعر، الأبيض الوجه، المورد الخدين، الذي يخرج من جيبه كل خمس دقائق «مشطا» يسرح به شعره الذهبي أمام المرأة، وينحني ويتثني وينقصع ويتمرقع حين يسير.

لكن الفتاة الأمريكية تريد رجلاً كاملاً، في صوته خشونة

الرجال، وفي طبيعته رجولة الرجال.

و«الدون» جوان في أمريكا في الوقت الحاضر هو الرجل القوي الذي يضرب صديقته كلما تشاجرا، والذي يقودها ويملي إرادته عليها.

وهو يذكر أن ممثلة سينما معروفة قالت له في معرض حديثها عن الرجال الذين تعجب بهم: إنني أشعر في كثير من الأحيان أن صفعات صديقي على وجهي ألذ من بعض القبلات!

وكل فتاة في أمريكا مهما بلغ ثراؤها وثروتها تشتغل، حتى أن ابنة روزفلت نفسها تعمل في محل لبيع الفساتين، وكل فتاة تعلن في بيتها «الاستقلال التام» فهي حرة في تنقلاتها، حرة في دخولها وخروجها، حرة في الخطابات التي تتلقاها ولا يفتحها الرقيب، ولكن إذا أساءت استعمال هذه الحرية فإن الأب أحياناً يعلن الأحكام العرفية في البيت، وأحياناً ينتهي الأمر بطردها، والفتاة الأمريكية لا تكلف أسرتها شراء أثوابها، بل تعمل في وظائف شاقة لتشتري ثوباً جميلاً.

ومع أن صاحبنا يعتقد أن الفتاة المصرية أنيقة في اختيار ما تلبسه بل لا يبالغ إذا قال إنه يعرف فتيات مصريات يرتدين ملابسهن بأناقة تفوق أناقة كثيرات من كواكب السينما.. إلا أن كثيرات منهن يسرفن في التواليت بشكل يدعو إلى الرثاء ولو أن الفتاة المصرية اقتصدت في كذبها.. وفي خداعها.. وفي مساحيقها.. لما كان في الإمكان.. أبدع مما كان.

مدرسة الزوجات:

وقد أصبح الزواج في أمريكا علماً يدرس في بعض الجامعات مثل الطب والهندسة والزراعة والكيميا.. وأنشئت كليات خاصة لدراسة هذا الفن الجميل، وفي بعض الدروس يجلس الطلبة مع الطالبات، وفي دروس معينة ينفصل الجنسان ولا يختلطان.

وحضر صاحبنا أحد هذه الدروس المخصصة للفتيات، وكان موضوع الدرس «المفاجات»، وكانت الأستاذة تشرح للتلميذات: أن فشل الزواج يعود إلى ملل الأزواج، وأن عشر سنوات يقضيها الزوج في حياة لا تتغير ولا تتبدل تجعل الحياة لا تطلق، فالزوج في مثل هذا الملل يكاد يعرف كل يوم ما سيأكله، وما ستقوله زوجته، ولهذا فيحسن أن تحاول الزوجة التغيير!

ونصحت الأستاذة الزوجات التلميذات أن يبدلن ويغيرن في الحياة الزوجية وكانت تقول لهن: «إن زوجك سيمل عندما يرى أثاث المنزل هو لم يتغير، الفوتيل في الركن اليمين، والكنبة في الركن اليسار، والمائدة في الوسط، والراديو بين الكنبة والفوتيل! يجب على الزوجة أن تغير من وقت إلى آخر نظام البيت كي يشعر الزوج أنه في بيت جديد! وسيشكو الزوج في أول الأمر من هذا التغيير، ولكنه لا يلبث أن يحس أنه انتقل من جو إلى جو!

ونبهت الأستاذة التلميذات أن تفاجىء الزوجة زوجها عندما تقتصد من المصروف الخاص بنفقات البيت دون أن تخبره، ثم تقول له ذات ليلة: «سأدعوك اليوم للسينما على حسابي»! أو «إني أدعوك

لتناول العشاء معي» أو تقدم له هدية لمناسبة من المناسبات.. إن هذه المفاجآت التافهة تشعر الزوج بأن حياته لا تسير على وتيرة واحدة، ثم إن الزوج الذي اعتاد أن يدفع دائماً يحس بسعادة عندما يشعر أنه مدعو مرة في الشهر على حساب زوجته!

وحضر صاحبنا درساً عن «الأشياء التافهة» - ولم يكن هو موضوع الدرس! - وإنما كانت المعلمة تقول للطالبات إن بعض المسائل التافهة تفسد أحياناً الحياة الزوجية، وإن زر البنطلون الذي طلب الزوج إصلاحه ونسيت الزوجة ذلك قد يؤدي إلى حادث طلاق! فقد يكتشف الزوج وهو في عملَه أو وهو راكب الترام أن زوجته نسيت هذا الطلب البسيط التافه الذي طلبه، ويعيش يومه يقول لنفسه: يا لها من زوجة مهملة! زر بنطلوني تنساه؟ لماذا تزوجت إذن؟

ويعود الزوج إلى بيته ساخطاً، وتبدأ المناقشة بين الزوجين وكثيراً ما تنتهي بمشادة أو طلاق، فعلى الزوجة أن تعني بالأشياء التافهة التي يطلبها زوجها وحذار أن تنساها، وعليها أن تسجل أوامر زوجها في ورقة عندها، وكم يشعر الزوج بسعادة عندما تنحني الزوجة أمامه في الصباح وتقول له «ما هي أوامر جلالتك اليوم»! إن الرجل يشعر بشيء من الزهو والسرور ويظن أنه ملك حقيقة!

وحضر صاحبنا درساً ثالثاً اسمه «العادات القبيحة» وكانت المعلمة تذكر للتلميذات أن بعض الزوجات اعتادت أن تسأل زوجها بعد فراغه من تناول طعام الإفطار عما يريد أن تطهيه له في الغداء! وهذا سؤال سخيف، فالزوج بعد تناول الطعام لا يكون في حالة تسمح له أن يفكر في أصناف طعام الغداء وهو متخوم من طعام الصباح!

وتستحسن المعلمة أن تفرض الزوجة الأطعمة على زوجها وليس معنى هذا أن تعد له الأصناف التي لا يحبها، بل أن تعرف ما يحب وتعده له.

وبهذه المناسبة يذكر صاحبنا أنه لاحظ أن أغلب الزوجات في أمريكا يطهين الطعام بأنفسهن. ولهذا فإن أنظف ما في البيوت الأمريكية مطابخها الجميلة التي تدار بالكهرباء، حتى إنه في أغلب البيوت الكبيرة يتناول أفراد الأسرة طعام الإفطار في المطبخ.. فهل يستطيع واحد منا أن يدخل مطبخه في البلاد الشرقية ليتناول فيه طعام الإفطار؟

والزوجة الأمريكية تفخر بأنها تصنع بيدها الطعام الذي تقدمه إلى زوجها، ولا يوجد طهاة في البيوت، وإذا أرادت جريدة أن تقول عن رجل إنه غني قالت إن في بيته طاهياً خاصاً!

وتخرج الزوجة الأمريكية بنفسها لشراء اللحم والخضار، وفي أمريكا يوجد محلات تبيع اللحم والخضار والفاكهة واللبن والزبدة والعيش وكل ذلك في مكان واحد، ومن السهل أن تطلب الزوجة المحل في التليفون فتقول أريد كذا وكذا ففي خمس دقائق يكون ساعي المحل على باب المطبخ يحمل ما تريد. ولما كان أغلب الزوجات في أمريكا يشغلن وظائف فإن الصناعة الأمريكية أنتجت مأكولات يمكن طهيها بسرعة في علب محفوظة، ففي عشر دقائق تستطيع الزوجة أن تعد لك طعامك، ولا يحدث ما يحدث في الشرق حينما تمكث الزوجة من الصباح إلى الساعة الثانية صباحاً في المطبخ تعد الطعام، وما تكاد تراها حتى تجد رائحة الملوخية تفوح منها!!

ومن العادات القبيحة التي يذكر صاحبنا أنه سمع المعلمة

الأمريكية تشرحها للتلميذات أن تذكر الزوجة لزوجها الخناقات والمتاعب التي حدثت أثناء غيابه في عمله مع أولادها أو جيرانها أو خدمها... وقد قالت المعلمة يومها: إن الابتسامة هي السلاح السري الذي تقهر به الزوجة زوجها. إن الزوج يعود من عمله متعباً، فلا يجوز أن تزيدي متاعبه بذكر أنباء مضايقاتك وخناقاتك!

ومما أوصت به المعلمة تلميذاتها أن لا تخلع الزوجة ملابسها أمام زوجها، يجب أن يكون بينهما دائماً شيء من التكليف. يجب أن يكون من حقها دائماً أن تختبىء من زوجها عندما تريد أن تتجمل، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتلذذ من تناول لحم خروف رآه يذبح أمامه ويطهى في وجوده.. فالزوجة يجب أن لا تكشف لزوجها عن سر جمالها، بل يجب أن تفاجئه به مفاجأة!

وخرج صاحبنا من مدرسة الزوجات آسفاً، لأنه ليس لدينا في الشرق مدارس تعلم الفتيات فن الزواج، وإن كل ما تتعلمه الفتاة عندنا ما تسمعه من أمها أو من أختها الكبرى.. وهكذا تصبح الفتاة شقية إذا كانت أمها شقية، وتدخل حياة جديدة دون أن تدرس سيكولوجية الزواج.

وللزوجة وشؤون البيت في أمريكا دستور وإحصائيات. وفي فبراير سنة 1944 نشرت مجلة «لوك» إحدى هذه الإحصائيات وفيها أن كل زوجة أمريكية تغسل بيدها 280 و 26 طبقاً في العام! وفي أمريكا مائة ألف زوجة يستعملن الآلات الكهربائية الخاصة بغسيل الصحون، أما باقي الزوجات فيغسلن الصحون بأيديهن ولا يتولى هذا العمل الخدم إلا في بيوت الأغنياء وتغسل الزوجة بيديها ما زنته من

20 إلى 30 رطلاً من الملابس كل أسبوع.

وبين الثلاثين مليون بيت في أمريكا يوجد 203 و 738 و 28 بيوت فيها أجهزة راديو، ومن الطريف أن شركات الصابون تذيع في الراديو أوبرات صغيرة في الموعد الذي اعتادت فيه الزوجة الأمريكية أن تغسل الغسيل الخاص بمنزلها فتدير الراديو لتستمع إلى أغاني الأرملة المرحة مثلاً بينما هي تغسل بنطلونات أولادها وقمصان زوجها. وليس في أمريكا غسالة تذهب إلى البيوت لتغسل ملابس الأسرة كما هو الحال عندنا في الشرق، بل تتولى هذا الشرق الزوجة الأمريكية نفسها.

ومما يدل على رخاء الأسرة الأمريكية أنه كان بها قبل الحرب 22 مليون سيارة أي أن كل أسرة تقريباً كانت تملك سيارة خاصة!

وذكرت الجريدة أن الزوجة الأمريكية ترفو في كل عام 347 جورباً وأن أغلب فساتينها وأثواب أولادها من صنع يدها.

ومن مميزات الزوجة الأمريكية أنها تبقى «صغيرة» مع أولادها فتلاعبهم، وتجري معهم، وتركب البسكليتات وتسابقهم ولا تشعرهم بالفرق في السن بينها وبينهم.

ومن الإحصاءات الطريفة أن الزوجة الأمريكية تقبل زوجها بمتوسط 1500 قبلة في العام مهما تقدمت بها السن، وأنها تقف أمام المرآة 182 ساعة في العام، وتمضي 35 ساعة في العام عند الحلاق، وتلمع أظافرها 45 مرة في العام، وتنظف أسنانها 500 مرة!!

أمريكا يا ويكا
محمود السعدني (1990)

محمود السعدني. أمريكا ياويكا. القاهرة: دار الهلال، 1990.

محمود السعدني كاتب وصحفي مصري ساخر شهير. ويقدم من خلال نقده اللاذع الساخر في هذا الكتاب صورة لأمريكا سلبية أحياناً إلا إنها لا تخلو من الفكاهة. ويظهر الغلاف رسماً لتمثال الحرية ولكن بوجه رجل يرتدي تاجاً مزيناً بأقلامٍ الحبر الجاف ويمسك بعود ثقاب بيد وبعلبة ثقاب باليد الأخرى بدلاً من شعلة التمثال. وتشمل بعض مواضيع الكتاب ثقافة الدولار في أمريكا والعصابات والعرب في أمريكا والحلم الأمريكي.

العصر الأمريكي

أمريكا هي أعظم وأضخم وأرخم امبراطورية ظهرت في التاريخ.. أما كونها أعظم فهي اختصرت من ميزانيتها بعد التفاهم مع الاتحاد السوفييتي 160 مليار دولار من ميزانية الدفاع هذا العام... أما كونها أضخم فهي بلاد بلا حدود، وهي في حجم 50 دولة، وشعبها خليط من كل شعوب الأرض. أما كونها أرخم إمبراطورية، فهي بالرغم من عظمتها ورخامتها تدعي أن اللوبي الإسرائيلي يتحكم في مقدراتها

وفي قراراتها. وهي تغضب جداً إذا اشترت إمارة عجمان مثلاً صفقة سكاكين من الصين، ولكنها تهنىء إسرائيل إذا أطلقت صاروخها إلى الفضاء الخارجي. والدليل على رخامتها أيضاً أن كل رؤسائها بلا استثناء مع اليهود وهم في السلطة، ومع العرب عندما يصبحون على المعاش. وهي تجتاح دولة في حجم حي من أحياء نيويورك مثل بناما بحجة أن رئيسها نورييجا يتاجر في المخدرات، مع أن السبب الحقيقي في اجتياح بنما هو السيطرة على قناة بنما واحتلالها إلى الأبد. وهي هاجمت كوبا ذات يوم بحجة أن كاسترو دكتاتور، ولكنها تتعامل مع دكتاتور السلفادور، وتتعاطف مع دكتاتور جنوب أفريقيا. وهي ظلت زمناً طويلاً تذرف الدمع على حقوق الإنسان الضائعة في رومانيا وفي بولندا، ولكن قلبها لم يخفق مرة واحدة لحقوق الإنسان الضائعة في دولة إسرائيل! وهي زعيمة العالم الديمقراطي، ولكنها انتفضت غاضبة عندما سادت الديمقراطية في شيلي، وتآمرت عليها وأسقطت الرئيس المنتخب أليندي وقصفت قصره بالقنابل وقتلته تحت الأنقاض! وهي قائدة العالم الحر، ولكن كل عملائها في بعض أجزاء العالم يحكمون بالحديد والنار. وهي تتصدر الحملة ضد المخدرات في العالم، ومع ذلك تبيع الصنف الممتاز في أسواق العالم لتشتري أسلحة لجيش الكونترا الذي يقاتل الثورة في نيكاراجوا.

إن أمريكا باختصار هي أرخم إمبراطورية عرفها تاريخ البشر، ومع ذلك فالسوق الأمريكية هي أكبر سوق تجارية في العالم، والديمقراطية في داخلها هي أوسع ديمقراطية عرفها أي شعب من شعوب الأرض.

وباستطاعة أي مواطن أمريكي أو مقيم على أرض أمريكا أن

يصدر صحيفة أو يؤلف حزباً أو يخترع ديناً جديداً أو يدير محطة إذاعة أو يمتلك قناة تذيع ما يشاء من برامج التليفزيون. وفي أمريكا صحافة تستطيع أن تسقط رئيس الولايات المتحدة، وفيها أعظم أبطال الرياضة وأغنى أغنياء العالم، وأعظم فن سينمائي يمكن إنتاجه، وفيها فن مسرحي ليس له مثيل في أركان المعمورة، وفيها فرص لأي صاحب فكر أو صاحب علم، وهي رائدة في مجال الفندقة وفي مجال الأطعمة المحفوظة، وهي أكثر دولة في العالم استخداماً للطيران الداخلي، وأغنى وأقوى شركات الطيران بها هي التي تعمل طائراتها على الخطوط الداخلية، وأهيف شركاتها هي التي تعمل فيما وراء البحار. وفي أمريكا عصابات تسرق الكحل من العين، وفيها مافيا تدير المعارك الانتخابية، وتقاول حضرتك لتوصيلك إلى الكونجرس أو إلى الوزارة. وفي أمريكا فساد لم يسبق له نظير من قبل ولن يكون له نظير في المستقبل. وفي مقدورك أن تشتري عضو الكونجرس، وعضو مجلس الإدارة، ومحافظ الولاية ومدير البوليس في المدينة، وصاحب القلم وحامل المسدس، ولكن نهار أبوه أزرق من يضبط في حالة رشوة، ونهار جده أسود من تسوقه الصدف السيئة إلى دخول السجن الأمريكي.

أمريكا باختصار ليست دولة ولكنها قارة، وهي ليست جزءاً من البشرية ولكنها البشرية نفسها في سحرها وفي انحطاطها، في ظلمها وفي عدلها، في طموحها وفي اعتدالها، في غناها وفي فقرها، في زهدها وفي طمعها. وهي على عكس الإمبراطوريات السابقة إذا سقطت سيسقط العالم كله معها، لأن اقتصادها يؤثر في العالم كله

ودولارها هو العملة الرسمية الآن للكرة الأرضية. وأي دولار نضعه في أي بنك في العالم تجده مدرجاً في كشف بالبنك المركزي الأمريكي.

إنها فتوة العالم الجديد والوحيد أيضاً. وهي مثل المرحوم إبراهيم كروم فتوة مصر، استطاعت أن تحطم كل الفتوات الآخرين، وأن تزيحهم من طريقها، وأن تدوس عليهم بالأقدام. ونهار أمه أزرق أي زعيم يقف في وجه أطماعها، أو يتحدى إرادتها، أو يخرج عن خطها. وهي أحياناً تتدخل بنفسها وأحياناً تستخدم صبيانها استخدمت إسرائيل ضد العرب، وحكومة بريتوريا ضد أفريقيا، وباكستان ضد أفغانستان. والسان سلفادور ضد نيكاراجوا، وجواتيمالا ضد كوبا، وتايوان ضد الصين، وكوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية!

وهي البلد الوحيدة التي تطلق على حكومتها اسم إدارة، لأنها ليست دولة ولكنها شركة، ومواطنوها ليسوا شعباً ولكنهم مساهمون في الشركة، وكل مساهم يستطيع أن يضاعف حصته بشراء أسهم أكثر، ويخون الحظ بعض المساهمين فيفقدون الاسم تبعهم ويتحولون إلى صياع ومتسولين. ونهار أمه أزرق من يقع منهم من قعر القفة. لأن الشركات لا قلب لها، أن المصلحة هي سيدة الموقف، وعليك أن تدافع عن مصلحتك بقبضة اليد، أو بماسورة المسدس، ولذلك فليس هناك أي فرصة في حل عادل لأي مشكلة والأمل الوحيد هو في الوصول إلى العدل الأمريكي للمشاكل. والعدل الأمريكي هو إلى جانب القوي وضد الضعيف، أنه عدل أشبه بقانون الغابة. وفي هكذا قانون لا أمل إطلاقاً في إنه يتغلب حمار الوحش على الأسد، أو يطارد الأرنب الذئب، أو تتحدى الغزالة النمر، وعلى من يريد أن يحصل على حقه في العصر

الأمريكي أن يكون له مخالب وأنياب، وأن يكون له زئير. أما الغلابة والذين على باب الكريم فليس لهم أي أمل وليس أمامهم أي مخرج، إلا أن يرضوا بالمكتوب وأن يخضعوا للمقسوم، أو يطلبون من أمريكا حمايتهم لقاء السمع والطاعة.

وسوء حظنا نحن أبناء هذا الجيل إننا عشنا العصر الأمريكي. ووقعنا تحت طائلة العدل الأمريكي. وذقنا بعض الخير الأمريكي من أول الشيراتون إلى فراخ كنتاكي. والخيبة التي هي بالويبة أن العمر امتد بنا حتى شهدنا البرسترويكا تبع العم جورباتشوف. لقد كانت الإمبراطورية السوفييتية خيال مآتة، ولكنها كانت صمام أمن، وكانت جداراً آيلاً للسقوط يستخدمه الغلابة ساتراً ضد الطغيان الأمريكي، وكانت سلاحاً صدئاً ولكنه رغم الصدأ كان يذود عن الخائفين والمرتعشين ثم جاءت البرسترويكا لتلقى بخيال المآتة على الأرض، ولتهدم الجدار الخامس وتكسر السلاح الرديء. وخلت الساحة للفتوة الأمريكي ولصبيانه العابثين.

ولكن.. رب ضارة نافعة. وحسب القانون الإلهي، كل شيء هالك إلا وجه ربك وحسب قول الشاعر لكل شيء إذا ما تم نقصان. وكما المثل الشائع، ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع. وسيجري القانون على إمبراطورية أمريكا كما جرى من قبل على كل الإمبراطوريات وسيحدث في الحياة كما يحدث في المسرح. عندما تصل الأحداث إلى الذروة يبدأ الانهيار، واعتقد أننا على أبواب مرحلة بداية النهاية. وكل ما نرجوه هو ألا تتحقق مقولة ما تفرحش في اللي راح إلا لما تشوف اللي جي. وندعو الله أن يجعل العصر القادم أفضل من العصر الأمريكي، وأن تظفر البرية بعصر جديد، يأخذ فيه كل ذي حق حقه،

ويتساوى فيه الجميع في الحقوق والواجبات وليكن العصر القادم هو عصر البشر وليس عصر الإمبراطوريات ولا يمكن الوصول إلى هذا العصر، إلا بقيام دولة الكرة الأرضية فلا حدود ولا جوازات ولا ميزانيات، وإنما خير الأرض لكل أهلها.

هل يحلم العبد لله؟

أعتقد أن هذا هو الذي سيكون خلال المائة عام القادمة.
وعندما يأتي الوقت، سيكون الدين لله، والأرض للجميع.
ويار رحيم، يا رحمن، نجنا من العصر الأمريكي.

(الصفحات الاخيرة من كتاب السعدني)
الناس الطيبون!!

«الآن وقد طفنا ببلاد العم سام، مشرقها ومغربها، وعشنا مع أثريائها وصعاليكها، وتكلمنا مع مثقفيها ومغفليها، ورأينا حسناتها وسيئاتها، واكتشفنا أنها ضدنا لأننا ضد أنفسنا، وتمنيت على الله الكريم أن نستفيد من الحسن الذي لديهم وأن نتجنب الشر الذي عندهم. فأمريكا مثلها مثل أي مكان آخر، ليست خيراً خالصاً ولا هي شراً خالصاً، وإنما فيها كل شيء وإن كانت حسناتها أكثر من سيئاتها.

ونحن على أهبة الرحيل لا نملك إلا أن أقول.. الله الله على أمريكا، الله عليها وع اللي حواليها.

كل شيء متوافر وكل شيء موجود وكل شيء على قفا من

يشيل. أنهار.. ألف نهر ولا نهر الكونغو، وترع.. عشرة آلاف ترعة ولا ترعة سبك، وبحيرات.. عشرة آلاف بحيرة ولا بحيرة التمساح، وأشجار على ودنه، وفواكه من كل صنف، وحيوانات من كل شكل، وطيور على كل لون. الحيوانات من الأسود إلى الضباع إلى الفهود إلى الديوك الرومي المتوحشة، الديك منها ولا خروف معلوف قبل العيد الكبير بعدة شهور، والعجيب أن للديك الرومي عيداً يحتفلون به في أمريكا. وأصل الحكاية أن المهاجرين الأوائل عندما نزلوا على الشواطىء، جاء عليهم حين من الدهور كاد الجوع يقتلهم، وقد حاصرتهم المياه من كل جانب وضربتهم العواصف من كل صوب وقذفتهم السماء بحجارة من جليد، ولم يكن هناك شيء يؤكل ولا أمل في ذلك، فالمزروعات غطتها الثلوج والماشية نفقت من شدة الصقيع والجوع، وحتى الطيور اختفت فقد هاجرت إلى مكان آمن. ووسط هذا الهول الأعظم والموت الزؤام. تطوع عشرة من المهاجرين الشبان للبحث عن طعام في أي مكان وفي كل مكان. وخرجوا يتعثرون في الثلوج ويغوصون في الأوحال، ومر عليهم نهار وليل ثم نهار آخر، وكاد اليأس يقتلهم والجوع يعمي أبصارهم ويفقدهم توازنهم، فقرروا العودة ليعلنوا للآخرين أن الأرض التي جاؤوا إليها ليست أرض السمن والعسل ولكنها أرض الثلوج والطين، وأنها ليست أرض الميعاد ولكنها أرض الممات. وفي طريق العودة والأنفاس تقطعت والصدور تحشرجت والعافية راحت والأمل خبا وانطفأ، ظهر فجأة قطيع من الديوك الرومي المتوحشة، واضح من منظره أن أفراده شعروا بالجوع فخرجوا يبحثون عن غذاء. وتقابل القطيعان على الجوع، وتقاتلوا على

من يأكل الآخر. معركة الرجال والديوك. وكانت معركة نزفت فيها الدماء وتحطمت فيها العظام وتكسرت فيها الرؤوس، ولم يحسمها في النهاية إلا البنادق والرصاص. ونفق عشرات الديوك، وحمل الرجال معهم إلى معسكر اللاجئين مئات الديوك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً وعاشوا بعد ذلك على إبادة نوع آخر من المخلوقات اسمه الهنود! ويحتفل الأمريكيون كل عام بعيد الديك الوحشي. يحتفلون به وقد تغيرت الظروف وتغير الديك أيضاً، فلم يعد الأمريكيون يعانون الجوع، ولم يعد الديك وحشياً. فقد تكسرت أظافره وفقد حدة منقاره، وأصبح كالدجاج البلدي، آخر لطافة وآخر خنوع. لقد انقرضت الديوك الوحشية من أمريكا ولم يعد لها وجود إلا في الأماكن النائية، وعددها لا يتجاوز المئات! وخلا مكان الديك في مملكة الوحوش، وإن كانت المملكة لا تزال عامرة بكل أنواع الوحوش.. السباع والضباع والطيور الجارحة والبنى آدمين! وإذا كانت أمريكا بلاد الوفرة فهي أيضاً بلاد التيه. فمن نيويورك إلى كلورادو مسافة أربع ساعات بالطائرة الجامبو، وهي نفس المسافة من طرابلس إلى الكويت، ومن كلورادو إلى تكساس مسافة ساعة ونصف الساعة، وهي نفس المسافة من البحرين إلى بغداد، ومن تكساس إلى لوس أنجلوس ساعتين ونصف كالمسافة بين القاهرة والرياض، ومن واشنطن إلى سان فرانسسكو سبع ساعات ونصف الساعة، وهي نفس المسافة من أبو ظبي إلى الدار البيضاء. ومع ذلك فلا أحد هناك يستوقفك ولا أحد يفتشك، ولا جمارك ولا حدود ولا جوازات، بلاد الله لخلق الله. كل مواطن فيها حر. يتجول كما يشاء أو كما يستطيع. فالتذاكر

غالية والمصاريف باهظة، ولكن الأمريكي معه فلوس. ودخله يكفيه للمعايش والتجوال. والسبب هو وحدة هذه الأمة الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهادي، شفقة واحدة بلا تقطيع ولا انفصال، ولذلك البطيخ (المكسيكو) يغطي الولايات كلها صيفاً، والعنب وارد (كاليفورنيا) يغطيها صيفاً وخريفاً، والبرتقال (الكلورادي) يغطيها صيفاً وشتاء، وكل الولايات تعطي وتأخذ، لا رسوم ولا تعقيدات، مع أن الفروق بين الولايات أعمق من الفروق بين بلادنا، وحتى اللهجات أكثر تبايناً من عندنا فالتكساسي لا يفهمه النيويوركي، والفرجيني لا يفهم الأريزوني، ونمط الحياة في دنفر يختلف عن نمط الحياة في بافالو، ولكن التفاهم موجود والمصلحة قائمة والبركة حلت على الجميع. وفي أمريكا مائة قومية، ناس أصولها آرية وناس من الهنود الحمر، والسود جميعاً من أفريقيا، ولديهم قومية كبيرة من الصفر.. من الصين واليابان وجنوب شرق آسيا.. وفي أمريكا عرب أمريكان وأمريكان يهود، ولديهم أسبان يتكلمون لغتهم حتى الآن، ولديهم مائة دين، فمعابد البوذيين منتشرة، ومعابد اليهود قائمة في كل ركن، ومآذن المسلمين مرتفعة في السماء، والكنائس من كل صنف وعلى كل لون، مئات الأديان وألوف المذاهب. ناس تعبد الشجرة وناس تعبد البقرة وناس تسجد ووجهها شطر الأهرام، وبالرغم من ذلك فهم أمة واحدة. ونحن عشرون دولة ومائة إمارة ومليون اتجاه ومائة وخمسون مليون زعيم خالد، وبعد ذلك نحلم بالعودة إلى الماضي ونريد أن ندخل الجنة!! ولأنها اتحدت، فقد أصبح كل أمريكي حراً وكل أمريكي مسؤولاً. والحكومة مجرد إدارة للإشراف على تنظيم الأعمال، وليست

مالكة للعباد والبلاد. والرئيس الأمريكي موظف يمكن فصله أو طرده والاستغناء عن خدماته في أي لحظة، وليس صاحب حق إلهي في حكم الناس، فمن خالفه منهم فهو ملعون، ومن وقف ضده فهو مطرود، ومن رفع يده احتجاجاً فهو متآمر وخائن وعميل وبلا أخلاق قرية!! ولذلك فكل شيء هناك على ما يرام. ليس مائة في المائة ولكن سبعين في المائة. وهذا حسن للغاية. والحكومة تحكم بواحد وخمسين في المائة وليس بتسعة وتسعين في المائة وتسعمائة وتسعة وتسعين في الألف كما هو الحال عندنا. وكل متهم بريء حتى تثبت إدانته، وكل أمريكي حر حتى يحكم عليه القاضي، كل أمريكي محترم حتى نزيل السجن، وأتمنى أن أعيش حتى أرى هذا اليوم في بلادنا، ولكن يبدو أنني أحتاج إلى عمر سيدنا نوح لأرى تباشير هذا اليوم. ولقد حلمت بهذا اليوم وأنا أتسكع على شاطىء المحيط الهادي بين لوس أنجلوس وسان فرانسسكو. وحلمت به وأنا أهم بمغادرة قارة أمريكا بعد ستة أسابيع كاملة أمضيت أغلبها في طائرات وزرت خلالها أكثر من دستة ولايات وحوالي عشرين مدينة، وزرت القرى والريف الأمريكي وهو ريف غني بالمحاصيل وفقير في المنظر إذا قورن بريف إنجلترا، وتمشيت أفرنجي على شواطىء البحيرات، وفي أمريكا عدد منها يفوق عدد البرك الناجمة عن طفح المجاري في الوطن العربي، وتفرجت على مسارح مانهاتن وعلب الليل، وشاهدت باعة المخدرات يقطعون الصنف ويضعونه في الميزان حسب طلب الزبون، هكذا علناً وأمام الناس وعلى عينك يا تاجر. بينما عسكري الداورية الأمريكي واقف على الناصية متشاغلاً وكأننا في الباطنية ولسنا في نيويورك،

وتفرجت على بيوت نجوم السينما في هوليود وعلى مقابرهم، وقرأت الفاتحة على روح المرحوم دالاس بيري والمرحوم إدوارد جي روبنسون والمرحومة لانا تيرنر والمرحوم جيمس دين وشاهدت إحياء الفقراء، وحارة رابعة بالجيزة أحوالها أحسن بالقطع وأرفع مستوى من حواري الفقراء في أمريكا، ولاحظت أن التفرقة العنصرية لا مجال لها في حي الفقراء، فالسود الفقراء والبيض الفقراء يعيشون جنباً إلى جنب في سلام وهدوء. وفي انتظار فرج الله، ورأيت في أمريكا نصابين لا يفوقهم أحد في حرفة النصب وحرامية يسرقون في عز الضهر، ودخلت بارات تقدم لك المشروب مقابل ثلاثة دولارات وتسمح لك بالفرجة على نسوان ترقص أمام المرآة زلط ملط، وشعرت بحزن شديد وأحسست بأني جئت إلى أمريكا متأخراً، وكان ينبغي أن أزورها منذ ثلاثين عاماً. ولقد كانت مأساتي الحقيقية خلال الزيارة أنني لم أكن قادراً على قطع الرحلة حتى النهاية واضطربت أحوالي بسبب قلة صحتي وعظيم رغبتي وأتمنى أن تتيح لي الظروف زيارة أمريكا في مناسبة قادمة. لكي أرى الولايات التي لم أرها، وأطوف بالأماكن التي لم تقع عيني عليها.

ونصيحة واحدة للعبد لله إلى كل ويكا يرغب في السفر إلى أمريكا، أن يطرد هذه الفكرة من دماغه، إذا كانت شهادة ميلاده تشير إلى أنه قد تعدى الثلاثين، وأرفع قبعتي الآن وأنحني وداعاً لأمريكا، وأرفع قبعتي بالرغم من أنني ليس لي قبعة وليس على رأسي شعر، ولكنها عقدة الخواجة التي أصابت البعض منا، فأصبحنا نتشبه بالخواجة، ومن تشبه بالخواجة يكرم.

وأقول وداعاً لقارة أمريكا وأنا أستعد للطيران عائداً من حيث جئت. وهتفت من أعماقي وأنا ألقي على أمريكا نظرة أخيرة.. باي باي بلاد العم سام.. باي باي بلاد الفتونة والقرصنة والطمع والجشع، الثورة والثروة، والعافية والمافيا، باي باي بلاد الأحلام!

السبيل في أمريكا
كمال عبد الملك (1995)

كمال عبد الملك هو أكاديمي مصري عاش في الولايات المتحدة وكندا لعدة سنين. ودرّس في جامعتي برنسيتون وكذلك براون الشهيرتين وهو يدرّس حالياً في الجامعة الأمريكية في دبي في دولة الامارات العربية. وتدور قصته القصيرة الساخرة حول مصري طيب القلب حاول إنشاء منظمة خيرية في مدينة بروفيدنس الأمريكية والعوائق البيروقراطية والثقافية العديدة التي واجهها في بيئة أمريكية غير معتادة على الطرق العربية في التعامل. وتتضمن القصة عدداً من الإشارات المضحكة لبعض المؤسسات في بروفيدانس ولجامعة براون حيث درّس المؤلف لعدة سنين.

في الصيف الماضي قابلت الشيخ مصطفى في مدينة بروفيدنس الأمريكية والتي لا تبعد كثيراً عن مدينة بوسطن الشهيرة. وقبل أن يستقر في أمريكا كان الشيخ قد حصل على عنواني وتليفوني من أبي رحمة الله عليه. أينما حل هذا الشيخ كان دائماً يحمل معه شنطة جلدية فيها المصحف وسجادة صلاة. كان من عادته أن يرفع بين اللحظة والأخري نظاراته التي تتزحلق علي أنفه الكبيرة الطيبة. حتى في أمريكا لم تفت هذا الشيخ الصلاة ومنذ اللحظة التي التقينا

فيها وهو يحدثني دائماً عن رغبته في أن يعمل عملاً خيرياً لوجه الله عملاً يرضى عنه المولي في بلاد اليانكي-ستان.

وأخيراً جاءته فكرة وإذا به على التليفون يكلمني :

- أستاذ أحمد- إزي الصحة؟

- الحمد لله يا شيخ مصطفى – إيه الأخبار؟

- ربنا هدانا لعمل خير أقدر أعمله في أمريكا.

- أيه هو ياشيخ؟

- ناوي على بركة الله أعمل سبيل في ميدان عام زي ما بنعمل كده في مصر.

- سبيل؟ وهاتحطه فين السبيل ده؟

- في ميدان كيندي اللي قدام مبني مجلس المدينة –ميدان كيندي اللي بيسموه Kennedy Plaza- السبيل هيكون طبعاً خدمة كويسة للعطشانين وبالذات طلاب جامعة بروان اللي بيحبوا ديماً يشربوا زي ما أنت عارف.

- على بركة الله يا شيخ— أهو عمل خير لوجه الله بس دا ممكن يكلفك فلوس.

- خليها على الله يا أستاذ – ربك يدبرها.

وطلب مني الشيخ أساعده في هذا المشروع ووافقت أول شئ كان لابد نقوم به هو أن نحصل على ترخيص بأقامة سبيل في ميدان عام وحيث أنني لا أعرف من أين نحصل على هذا الترخيص قلت في نفسي فلنذهب إلي مكتب السيد بدي سيانسي - Buddy Cia ci محافظ المدينة. ابتسم المحافظ في وجهنا وقال أنه لم يسبق له

أن سمع عن شيئ اسمه سبيل ونصحنا أن نذهب إلي ادارة الشئون الصحية بالمدينة وكذلك للبوليس للحصول على التراخيص المطلوبة.

قال لي الشيخ أنه يريد ان أن نذهب كل يوم ليصب الماء في قلل السبيل وهو يتمتم بالدعاء لله – قال سيفعل ذلك بنفسه لكنه يحتاج إلي حارس للسبيل وسألني أن أضع اعلاناً في صحيفة المدينة عن الحاجة إلي حارس – لا يهم فيه الخبرة.

في ادارة الشئوون الصحية رفع المستر فراتتيشللي حاجبيه في تعجب ظاهر عندما سألناه عن حاجتنا لترخيص لاقامة سبيل في ميدان كندي. وجه المسترَ كلامه للشيخ :

–لماذا لا تستثمر مالك في مشروع آخر يا شيخ؟

– أستثمر؟ أنا لا أبغي الأ مرضاة الله.

كان على الشيخ كما شرح المستر فراتيتشيللي أن يدفع مصاريف الرقابة الصحية علي السبيل عدا رسوم اقامته فدفع الشيخ بكل حسن نية.

المعضلة التي واجهت مجلس المدينة هي ماذا كان السبيل يعتبر عملاً استثمارياً تعترض عليه الضرائب أم عملاً خيرياً يعفي من الضرائب. شكلت لجان كثيرة ولجان أصغر منهما وتقدم مسئول بأقتراح أن تبعث لجنة الي القاهرة لدراسة كل ما يتعلق بالسبيل من اجراءات وفعلاً ذهبت اللجنة المشكلة من عدة أعضاء مع مترجمين من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس ولكن سرعان ما اتضح أن الجهات الرسمية في مصر لا تسجل أي سبيل المهم أنه في نهاية هذه الأسفار والتقارير ثم أخراج التصاريح الأمريكية لأقامة سبيل الشيخ مصطفي

في ميدان كيندي بمدينة بروفيدس القريبة من بوسطن.

في أيام قليلة تم تعيين ثلاثة موظفين للسقاية بهذه الرتب :

باش — ساقي وساقي وصبي ساقي وكذلك اثنين من الضخام الغلاظ للقيام بأعمال الحراسة وكذلك مفتش سبيل للكشف الدوري علي أحوال النظافة.

وكذلك حصلنا على التصاريح الخاصة بمصلحة الضرائب وأقسام البوليس في المدينة وبالإضافة إلى خطاب توصية من المستر فراتتيشيلي المدير العام لدائرة الصحة بمجلس مدينة بروفيدنس القريبة من بوسطن كان لزاماً أيضاً أن نؤجر مكتباً مطلاً علي السبيل حيث تم تعيين بضعة موظفين فيه : عاملة تليفون — سكرتيرة — وخبير في الكمبيوتر ليدير موقع سبيل دوت كوم www.sabeel.com وطبعاً مدير لمراقبة كل هؤلاء.

يوم الافتتاح كان رائعاً فقد تدفق جمع غفير من رجال الصحافة والتلفزيون لتغطية مباشرة للحدث وأستقبل أهل بروفيدس النبأ بسرور عظيم ووزعت عليهم كميات وفيرة من ماء السبيل. وأصبح لزاماً على الشيخ مصطفى أن يوسع السبيل ويضيف القلل الكبيرة الحجم ويعين الموظفين ويعلق يافطة عليها هذا التحذير الأمريكي الأصيل: NO LOITERING ممنوع التسكع والتجمهر أمام السبيل (تعجب الشيخ كثيراً من هذا الاعلان الأمريكي الأصيل مشيراً إلي حقيقة أننا في مصر قد نكون محرومين من حريات كثيرة أساسية ولكننا نتمتع في مصر بحرية التسكع بلا هدف. وتساءل الشيخ قائلاً: أليس غريباً أن في أمريكا -التي تتمتع بالديمقراطية وتحاول نشرها

في العالم- الناس يستطيعون أن يشتموا رئيسهم إن أرادوا ويلعنوا الحكومة إن أرادوا وأن يستمتعوا بشواطئ للعراة وأن يحملوا أسلحة ولكنهم ممنوعون قانوناً من التسكع بلا هدف؟).

كالنار في الهشيم أنتشر خبر السبيل في انحاء الولاية – ولاية رود آيلاند Rhode Island. ما نشتات الجرايد في المدينة أذاعت: «شيوخ النفط والسبيل يتدفقون على بروفيدنس -حنفيات ماء- بطريقة عربية – تدهش المتسوقين في المدينة» ونشرت مجلة تايم عدداً خاصاً بعنوان:

«مشروعات مائية عربية في نيوانجلاند»

أما مجلة الموضة كوزموبوليفان Cosmopolitan فكتبت أن شكل قلة السبيل هي الشكل الأمثل للمرأة الجذابة السكسي والنساء الأمريكيات ذوات المؤخرات الثقيلة والنهود الصغيرة عبرن عن السعادة الغامرة – أخيراً اعترفت أمريكا أن شكلنا الذي يشبه قلة السبيل هو الشكل المثير السكسي. ولكن مجلة مودموزيل - Mademoselle نشرت صورة قلة سبيل مقلوبة علي أنها الشكل المثير السكسي الأفضل و الأمريكيات ذوات النهود الكبيرة والمؤخرات الصغيرة أعلن أن هذا الشكل القللي هو الأمثل للألفية الجديدة (هناك اشاعات أن برنامج جيري سبرنجر الشهير Jerry Springer سوف يخصص حلقة للمتنازعين على الاشكال القللية وأن جين فوندا استغلت هذه المعركة حول السبيل وأصدرت فيديو جديد تحت عنوان «أيروبك عربي مع جين فوندا» Arabic Aerobics with Jane Fonda.

لعدة أسابيع والميديا تغرق السوق بأخبار السبيل حتي أن

المنظمات الصهيونية بالولاية أنزعجت مما أسمته «تدخلات العرب في الشئون الداخلية لأمريكا ففي غضون أيام أصدرت هذه المنظمات دراسة كاملة تحت عنوان S.I.P matters وهي اختصار Sabeel in Providence (السبيل في مدينة بروفيدنس قضية تستحق الأهتمام بها) وفي هذه الدراسة أثباتات تاريخية موثقة أن السبيل لم يكن في الأصل عربياً ولكنه أساساً كان تقليداً مشهوراً عند بني أسرائيل وقد قيل أن عدة كتاب أمريكان مشهورين ممالئين للصهيونية أيدوا هذه الدراسة. وقام أستاذ ذو تعليم نسبي يقال إنه خريج قسم الدراسات النسبية المقارنة بجامعة بروان – والله أعلم) بالقاء محاضرة بعنوان :»السبيلولجي: أشارات – أوهام – خلط – خليط – خلطة : نظرات مبعدية مستمدة من الأدب العالمي مع الأهمال الملحوظ والمقصود لأي أشارة إلي الأدبيات العربية «والتي أثبت فيها أن اشارات كثيرة إلي السبيل لا توجد في الأدب العربي كما يتوقع الناس ولكن في الأدب الفنلندي. ولكنه لم يسهب وترك جمهوره في حيرة.

اتصل بالشيخ مصطفى عدد كبير من الشركات الأمريكية – وعرضوا عليه أن ينتجوا مشروباً أمريكياً مثل الكوكا كولا معبأ في قلل السبيل وأضافو أنه يمكن أن ينتجوا أيضاً دايت سبيل Diet Sabeel. طبعا الشيخ لم يكن سعيداً لكل هذه الدعاية للسبيل ووعندما تقابلنا كان زعلان وقال لي :

- خلاص يا أستاذ هرجع مصر.
- أنا عارف أنك زعلان لكن-
- لكن أيه يا أستاذ؟ كل اللي كنت عاوز أعمله هو عمل لوجه

المولي عزوجل وشوف ايه اللي حصل. – شوف !

-وأشار إلي عومة أوراق ومستندات وتصاريح و أستثمارات وفواتير من مصلحة الضرائب وتراخيص و................

-ودمعت عيناه. حاولت أن أقول شيئاً ولكنه قاطعني :

-يعلم الله أن نيتي صافية كل اللي كنت عايزه هو أني أعمل سبيل لوجه الله يعني عمل خير لقيت نفسي بدير «الشركة العربية الأمريكية المحدودة للسبيل «أنا بس عملت إيه في حياتي؟ بعد هذه المقابلة بأيام رجع الشيخ إلي مصر.

وفي هذه السنه لم تسقط نقطة مطر واحدة علي مدينة بروفيدنس.

يقدم هذا الكتاب للمكتبة العربية -لأول مرة - نماذج مهمة من الكتابات العربية الخاصة بالرحلة إلى أمريكا والتي تغطي الفترة الواقعة بين 1668 وحتي عام 2000. كما يوضِّح بعض السمات المميزة لكتابات الرحالة العرب الذين زاروا أمريكا خلال هذه الفترة.

كما يقدم هذا الكتاب قائمة ببليواغرافية شاملة للرحلات العربية الى أمريكا منذ العام 1668 وحتى العام 2000 والتي قام بها كتاب عرب، أغلبيتهم من مصر ولبنان وبلدان عربية أخرى وبعضهم من العرب الأمريكان. وهذه المختارات تزودنا بصورة أمريكا في خيال العرب وكيف تطورت عبر فترة زمنية طويلة.

إن صورة أمريكا التي تبرز من خلال هذه السرديات ليست متناغمة ومتناسقة فأمريكا تبدو وكأنها الآخر نقيض الذات العربية مرورا بأمريكا المرأة المغرية ووصولا لصورة أمريكا الآخر الذي هو جدير بـ... معاً. وهذه الأعمال الأدبية تشكل نافذة هامة على العلاقات الع... نسعد بتقديمها للقراء ونأمل أن نقدم دراسة عنها في المستقبل...



